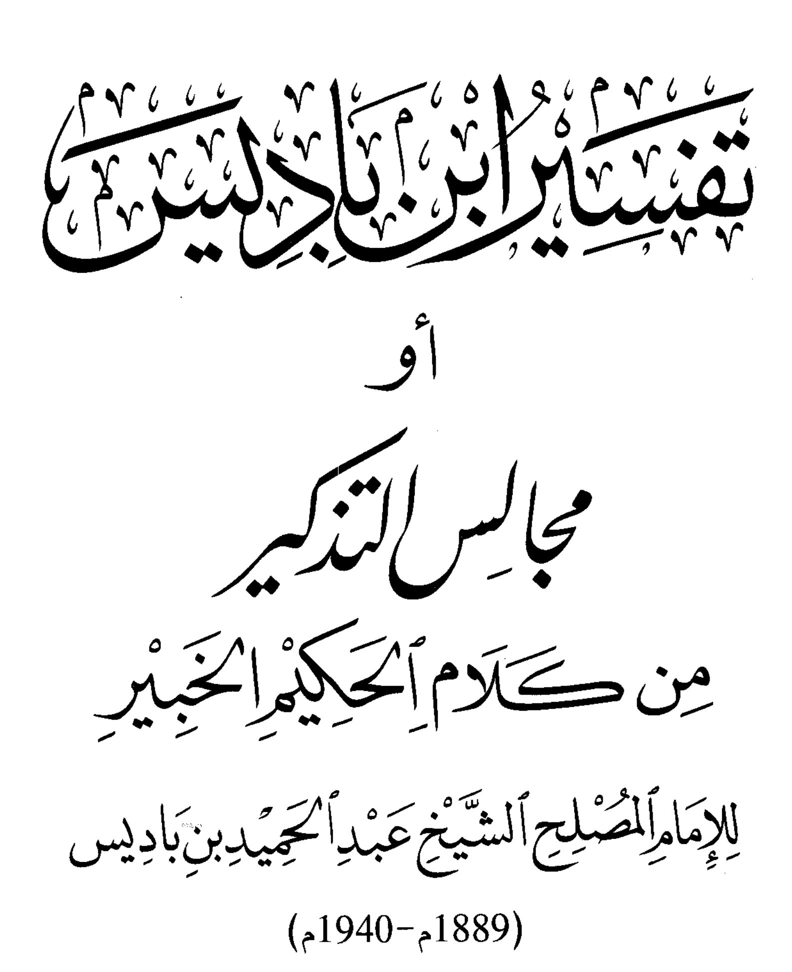


المجلد الثاني

اعتنى به وخرج أحاديثه وآثاره

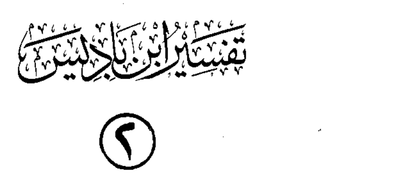
أبو عبد الرحمن محمود

دار الرشيد
للكتاب والقرآن الكريم
(الجزائر)

الطَّبْعَةُ الأُولَىٰ
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م



المبيعات: 33 ش محمد برقيه مقابل مسجد السنه (باب الوادى) 00213 21962546
الإدارة : شارع بوجمعه خليل العاشور وادى الرمان - الجزائر 00213 21308043


تفسير ابن باديس


٢



من سورة الفرقان

تفسير الآيات [١ و٢ و٤ - ٦ و٢٠ و٢٧ - ٣٤ و٥١ و٥٢ و٦٢ - ٧٧]



«الفرقان»

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ . [الفرقان: الآيات: ١ - ٢].

المفردات:

«تبارك»: مادة (ب . ر . ك) كلها ترجع إلى معنى الثبوت .

منها بروك الإبل، استناختها .

والبركة كالقربة مثل الحوض يثبت فيها الماء .

والبراكاء الثبات في الحرب .

ومنها البركة بمعنى النماء والزيادة .

ولا ينمو ويزيد إلا ما كان ثابت الأصل، وشأن ثابت الأصل أن ينمو ويزيد، فلم تخرج عن معنى الثبوت .

وتبارك من البركة، فمعناه تزايد خيره، واللّٰه تعالى له الكمال ومنه الإنعام، فتبارك أي تزايد كماله وإنعامه، فلا تحصى إنعاماته ولا تحد كمالاته .

وثبوت الكمال ينافي وينفي ضده، فيقتضي التنزه عن النقص، فانتظم اللفظ ثلاثة معاني[1]: التنزه عن النقص، والاتصاف بالكمال، والإفاضة للإنعام .

(١) كذا في الأصل!

فتبارك «تقدس وتعاظم»، الفعل الأول مفيد للأول، والفعل الثاني مفيد للثاني والثالث.

«نزَّل»: مادة نزل كلها ترجع إلى معنى الهبوط من عَلٍ والحلول في أسفل. ونزَّل المضاعف أبلغ في المعنى من أنزل، وقد يفيد كثرة النزول كما هنا، لأنه نزله مفرقًا على نيف وعشرين سنة، وقد يفيد القوة في نزول واحد كما في ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: الآية ٣٢]: لأن تنزيل الجملة أقوى من إنزال التفصيل.

«الفرقان»: أصله مصدر فرق بمعنى فصل، وهو أبلغ في الدلالة على المعنى من فرق المصدر المجرد بما فيه من زيادة الألف والنون، كما كان القرآن أبلغ من القراءة لذلك، وهو هنا اسم من أسماء هذا الكتاب الكريم.

«نذير»: مادة نذر كلها ترجع إلى الإعلام والتحتيم.

فمنها نذر على نفسه الصوم، أوجبه وحتمه وأعلم به، ونذر بالعدو كفرح علم به، وأنذره أعلمه، ولا يستعمل إلا في إبلاغ ما فيه تخويف، فهو إعلام بتأكيد وتحتيم.

ونذير هنا بمعنى منذرٍ، من فعيل بمعنى مفعل.

التراكيب:

«الذي نزَّل» عرف المسند إليه بالموصولية لزيادة تقرير الغرض الذي إليه سيق الكلام، لأنَّ الغرض بيان كمالات اللَّه تعالى وإنعاماته، وتنزيل الفرقان منها، فهو من أعظم نعم اللَّه على البشر، ومن آيات اللَّه الدالة على قدرته

وعلمه وحكمته.

عبده: إضافة تشريف لأنه أكمل العباد.

المعنى:

تقدَّس وتعظام الربُّ الذي نزَّل الكتاب الذي يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وحزبيهما من الناس، مفصلًا آياتٍ آياتٍ على محمد ﷺ أكمل عباده، ليكون بذلك الكتاب لجميع الإنس والجن منذرا لهم، يعلمهم بعذابه، ويخوفهم بشديد عقابه، إن لم يعبدوه وحده، ويخلعوا غيره من آلهتهم الباطلة، ويدخلوا في الدِّين الذي جاءهم به وهو الإسلام.

توحيد:

هذا الفعل وهو «تبارك» لا يسند إلا إلى اللَّه تعالى، ذلك لأن العظمة الحقيقية بالكمال والإنعام، والتقدّس بالتنزُّه التام، ليسا إلا له، وما من كامل من مخلوقاته إلا وهو ﷻ الذي كمله، وما من منعم عليه منهم إلا وهو تعالى الذي أنعم عليه، وما من زكي منهم إلا وهو - سبحانه - الذي زكاه.

سلوك:

هذا الرب الكامل المكمل، المنعم المتفضل، القدوس المقدس، هو الذي أنزل هذا الفرقان، فإذا أردت أن ترقى في درجات الكمال، وتظفر بأنواع الإنعام، وتزكي نفسك الزكاء التام، فعليك بهدى هذا الفرقان، فهو بساط القدس، ومعراج الكمال، ومائدة الإكرام.

وقد سُئلت عائشة -رضي اللَّه تعالى عنها- عن خُلق النبي ﷺ، فقالت:

«كان خلقه القرآن»[١٢١].

تفقُّهٌ واستنباطٌ:

لما سمَّى اللَّه كتابه الفرقان علمنا أنه به يفرق بين الحق والباطل، وأهل هذا وذاك، فهو الحكم العدل والقول الفصل بين كل متنازعين يدَّعي كل منهما أنه على الحق فيما هو عليه من عقد أو قول أو عمل.

فما تقابل حق وباطل، وما تعالجت حُجَّةٌ وشُبهةٌ، إلَّا وفي هذا الكتاب الحكيم ما يفرق ما بينهما، وإنما يتفاوت الناس في إدراك ذلك منه على حسب ما عندهم من قوة علم وصدق بصيرة وحسن إخلاص.

فعلينا - إذًا - أن يكون أول فزعنا في الفرق والفصل إليه، وأن يكون أول جهدنا في استجلاء ذلك من نصوصه ومراميه مستعينين بالسنة القولية والعملية على استخراج لآليه.

فإذا حَكَم قَبِلْنا وسَلَّمْنا، وكُنا مع ما حكم له وفارقنا ما حكم عليه.

فاللَّه سمَّاه الفرقان لنعلم أنه فارق بنفسه، ولنعمل بالفرق به، ولا يكمل إيماننا بأنه الفرقان إلا بالعلم والعمل.

ولما جعل - تعالى - غاية تنزيل الفرقان أن يكون عبده نذيرًا اقتضى ذلك أن نذارته تكون بالفرقان لتقوم الحجة وتتم الحكمة وتحصل الفائدة وتشمل النعمة.

---

[١٢١] صحيح:
تقدم تخريجه برقم (١).

وقد صرح بهذا في قوله تعالى بالأعراف: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ [الأعراف: الآية ٢] .

وبالأنعام: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: الآية ١٩] .

وبالنمل: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النمل: الآية ٩١- ٩٢] .

وبـق: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: الآية ٤٥] .

وبالتوبة: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: الآية ٦] .

فعلينا - إذًا - أن نعلم أن القرآن هو كتاب النذارة والهداية، فنستخرج أصولهما وفنونهما من آياته، وهذا حظ العلم، وأن يكون اهتداؤنا في أنفسنا وهدينا لغيرنا به، وهذا حظ العمل، وهما ركنا الإيمان.

تطبيق وتحاكم:

في العالم الإسلامي كله اليوم طائفتان من المؤمنين تتنازعان خطة الهداية والنذارة والتذكير، ولكل منهما في سلوكها للقيام بتلك الخطة سبيل، وكل منهما تدعي أنها هي التي على الصواب، وأنها الأحق والأولى بنفع العباد.

فرأينا أن نطبق فصل الفرقان عليهما، وننظر كيف يفرق ما بينهما وبين المصيبة من المخطئة منهما، وفي ضمن ذلك تحاكمهما إليه وفصل النزاع بينهما بحكمه.

وإنما اخترناهما للتطبيق والتمثيل لخطر الخطة التي تنازعا عليها، وعظيم

النفع والضرر الذي يحصل من خطأ المخطئ وصواب المصيب بها، ولأن الهداية والنذارة والتذكير أمور لها أنزل القرآن، فتنازعهما عليها تنازع عليه، فأحق فصل نمثل به لنعلمه هو فصله بين المتنازعين فيه.

وها نحن نعرض بعض حال كل طائفة في قيامها بالخطة، ثم نسوق آيات القرآن، وننظر مَن أسعد الطائفتين بها:

الطائفة الأولى: يذكِّرون من يدعونهم بغير القرآن، بأحزاب وأوراد من وضعهم لا مما ثبت عن النبي ﷺ إلا قليلًا.

ولهم عليهم في أموالهم حق في أوقات من السنة معلومة.

والطائفة الثانية: يذكِّرون الناس بالقرآن، فيأمرونهم بقراءته وتدبره، ويبينون لهم معانيه، ويحثونهم على التمسك به والرجوع إليه.

ويدعونهم إلى الأذكار النبوية الثابتة في الكتب الصحاح لرجوعها إلى القرآن بحكم قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: الآية ٧]، ولا يطلبون عليهم في ذلك أجرًا.

واللَّه تعالى يقول في الحال الأول: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ [ق: الآية ٤٥] وغيرها من الآيات المتقدمة في هذا المجلس.

ويقول - تعالى - في الحال الثاني لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: الآية ٥٧]. ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: الآية ٢٣].

ويقول في آية صريحة صراحة تامة في بيان من يجب أن يُتَّبَع من الدعاة:

﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرًا وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [يس: الآية ٢١] .

ومن هم المهتدون؟

هم المتبعون للنبي ﷺ لقوله تعالى في الأعراف: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٨] .

واتباعه بالنسبة لموضوعنا هو اتباعه في طريق دعوته الخلق إلى اللَّه .

وقد ثبت بالقرآن أنه كان يدعو بالقرآن ويذكّر به، وأنه لا يسأل على ذلك أجرًا .

بان - والحمد للَّه - بما ذكرنا حكم القرآن بين الطائفتين، واتضح طريق الحق في الدعوة والإرشاد لمن يريد سلوكه منهما .

واللَّه نسأل لنا ولهم قبول الحق والتعاون عليه، والقوة والإخلاص في الصدع به والثبات عليه .

و﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: الآية ٢٧] (١) .

* * *

---

(١) الشهاب: (ج١٢، م٧) غرة شعبان ١٣٥٠هـ - ديسمبر ١٩٣١م.

كلام الظالمين في الكتاب الحكيم والرسول الكريم ورَدُّ ربِّ العالمين

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ . [الفرقان: الآيات ٤- ٦].

الألفاظ:

كفروا : غطوا الحق بإنكاره وعدم الاعتراف والإعلان به ، وكل من غطى شيئًا وستره فقد كفره ، وسمي الليل كافرًا لأنه يغطي الأشياء بظلامه ، والزارع كافر لأنه يغطي البذر بالتراب .

إفك : كذب مصروف عن وجهه الحق ، من أفكه يفكه أفكا أي صرفه .

افتراه : اختلقه واخترع صورته .

جاءوا : وردوه وانتهوا إليه .

ظلمًا : وضع الشيء في غير موضعه .

زورا : شهادة بالباطل .

أساطير : جمع أسطورة ، أي أخبار وحكايات مسطورة في كتب الأوائل ، ليست محل الثقة .

اكتتبها: أمر بكتابتها له، وافتعل يأتي للطلب كاحتجم وافتصد.

تُملى: تلقى عليه ليحفظها فليقيها على الناس.

بكرة: ما بين الفجر والطلوع.

أصيلًا: ما بعد العصر إلى الغروب.

السر: الخفي من كل شيء.

غفورًا: ستارًا للذنوب، كثير التجاوز عنها.

رحيمًا: دائم الإفاضة للنعم[1].

---

(١) هذا من تفسير اللفظ بلازمه، وهو من تأويل الأشاعرة وغيرهم لأسماء اللّه وصفاته، المخالف لمنهج السلف أهل السنة والجماعة، القائم على إثبات ما أثبته اللّه لنفسه في الكتاب والسنة الصحيحة من الأسماء والصفات، دون تأويل أو تعطيل أو تشبيه أو تمثيل.
وقد بيّن الشيخ رشيد رضا - رحمه اللّه تعالى- في «تفسير المنار» (١/ ٧٦- ٧٧) أن ما ذهب إليه أستاذه الشيخ محمد عبده - رحمه اللّه تعالى- من تأويل الرحمة بلازمها وهو الإحسان والإنعام، إنما تبع فيه متكلمي الأشاعرة والمعتزلة ومفسريهم كالزمخشري والبيضاوي.
قال: «وهذا القول من فلسفة المتكلمين الباطلة المخالفة لهدي السلف الصالح.
والتحقيق أن صفة الرحمة كصفة العلم والإرادة والقدرة وسائر ما يسميه الأشاعرة صفات المعاني، ويقولون إنها صفات قائمة بذاته تعالى خلافًا للمعتزلة، فإن معاني هذه الصفات كلها بحسب مدلولها اللغوي..».
قال: «فقاعدة السلف في جميع الصفات التي وصف اللّه تعالى بها نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله أن نثبتها له ونمرها كما جاءت مع التنزيه عن صفات خلقه، الثابتة عقلًا ونقلًا بقوله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: الآية ١١].
فنقول: إن له علمًا حقيقيًّا هو وصف له ولكنه لا يشبه علمنا، وإن له سمعًا حقيقيًّا هو وصف له لا يشبه سمعنا، وإن له رحمة هي صفة لا تشبه رحمتنا التي هي انفعال النفس، وهكذا نقول في سائر صفاته تعالى، فنجمع بين النقل والعقل.
=

المعنى:

وقال الذين أنكروا الحق مع ظهوره، وجحدوه مع وضوحه: ما هذا الكلام الذي يتلوه محمدعلينا إلا كلام كذب مصروف عن وجه الحق، اخترعه وصوره وأعانه عليه غيره أناس آخرون!.

فقد سموا الحق الصراح والصدق الخالص إفكًا، وجعلوا أخبار الأمين الذي كانوا يدعونه هم أمينًا - افتراء، وجعلوا القرآن الذي عجزوا عن معارضته كلامًا عاديًا متعاونًا على تركيبه وتصويره، فسموا الشيء بغير اسمه، ووضعوا الوصف في غير موضعه، فانتهوا بذلك إلى ظلم عظيم أتوه ووقعوا فيه.

وقد شهدوا بالباطل، فنسبوا للرسول ﷺ ما هو بريء منه من الإفتراء والإستعانة بغيره، فانتهوا إلى زور عظيم تحمَّلوه.

وقالوا -أيضًا- : هذا الذي يتلوه علينا هو من أخبار الأوائل وكتبهم المسطورة التي سطورها من أعاجيب أحاديثهم ممايتلهى به ولا يوثق بصحته توصل إليها من غيره، أمر فكتبت له، فكاتبها له يمليها عليه دائمًا في طرفي

= وأما التحكم بتأويل بعض الصفات وجعل إطلاقها من مجاز المرسل أو الاستعارة التمثيلية كما قالوا في الرحمة والغضب وأمثالها دون العلم والسمع والبصر وأمثالها فهو تحكُّمٌ في صفات اللَّه وإلحادٌ فيها».

والمسألة حرّرها العلامة ابن القيم - رحمه اللَّه تعالى- تحريرًا بديعًا في كتابه النفيس «الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة» (٢/ ٤٧١- ٤٨٦- مختصره) من عشرين وجهًا، فليراجع فإنه نسيج وحده، واللَّه ولي التوفيق والهداية.

والخلاصة أن «الرحمن» و«الرحيم» اسمان من أسماء اللَّه الحسنى، مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، و«الرحمن» أشد مبالغة من «الرحيم» كما في «تفسير ابن كثير» وغيره، واللَّه أعلم.

النهار، فيحفظها هو ويأتينا بها.

قل - يا محمد - أنزل هذا الذي أتلوه عليكم الخالقُ الذي يعلم الشيء الخفي والأمر المكتوم في العالَم العلوي والعالَم السفلي.

وما أمهلكم فلم يعاجلكم بالعذاب، وبقي يجدد لكم التذكير مع إعراضكم وعنادكم وقبح صنيعكم وسوء ردِّكم إلا أنه من شأنه الصفح والتجاوز، ودوام الإنعام والتفضل، فهل لكم أن ترجعوا إلى هذا الرب الغفور الرحيم؟

مزيد بيان:

بهر العرب ما رأوا وما سمعوا، من رجل كان بالأمس معرضًا عنهم تاركًا لهم وشأنهم، يشهد موسم الحج معهم، ويجتنب مشاهد وثنيتهم، ولكنه لا يعاديهم، ولا ينكر عليهم، ويسير بينهم بالصدق والجد والعفاف وكمال المروءة: سيرة تخالف سيرتهم، فهم لذلك يحبونه ويعظمونه ويدعونه الأمين: لقبًا خصصوه به فصار يدعى به بينهم.

فأصبح اليوم - وقد جاوز الأربعين - ينكر عليهم، ويسفِّه أحلامهم، ويقبِّح عبادتهم وما يعبدون، ويصبر على أذاهم، ولا يقابلهم بالمثل، ويستمر على دعوته غير مبال بهم ولا حاسب شيئًا لكثرتهم ولا لسطوتهم.

ومن كلام مثل كلامهم في ألفاظه وفي تراكيبه ثم هم يعجزون عن معارضته بمثل أقصر سورة منه، ثم يشهدون الفرق بينه وبين كلام محمد نفسه، فهو إذا حدثهم حدثهم بما اعتادوا من حديثه معهم، حتى إذا تلى عليهم القرآن جاءهم بما هو فوق كلامه وكلامهم، وما تقصر عن معارضته ألسنتهم.

بهرهم هذا وهذا، وأخذ العناد بعقولهم واستحوذت عليهم شياطينهم

فحاروا فيما يقذفون به هذا الرسول وهذا الكتاب، فأخذوا يقولون عن الكتاب إنه إفك مفترى، ورأوه أكبر مما كانوا يسمعون من كلام محمد، فلم يكن ليأتي به وحده وهو فوق المعتاد من كلامه، فإذًا هنالك أقوام يعينونه. ومن هم الأقوام؟.

وهو - بعد - في نفر قليل ممن آمن به، وهم هم في كثرتهم وتساندهم وقد عجزوا عن الإتيان بشيء مثله، فالقليل الأحرى بالعجز من الكثير.

ويقولون أنه أساطير الأولين وقد كان منهم من عرف شيئًا من أخبار الفرس وملوكهم وكان يحدثهم بها، ويقصها عليهم، ويزعم لهم أنها مثل ما يأتي به محمد، فقالوا - وقد علموا الفرق - هذه منها وهي مثلها، ولكن محمدًا عرفوه أميًا لا يقرأ ولا يكتب، فيكف اتصل بهاته التي زعموها أساطير؟

فاخترعوا وسيلة لذلك أنه يكتبها له غيره ويمليها عليه وهو يحفظها، ومن هو هذا الذي يكتب ويملي عليه وهم قد عرفوا مدخل محمد ومخرجه ومغداه ومجلسه، وعرفوا بلدتهم ومن يساكنهم، فكيف لا يرونه ولا مرة بين يدي هذا الكاتب المملي ولا يشاهدونه يومًا في صحبته؟.

فاخترعوا لذلك أنه يمليها عليه في طرفي النهار، في ظلام من الوقت وسكون من الناس.

وقالوا في الرسول ﷺ أنه مفتري[١] يستعين على افترائه بغيره، ويتظاهر باستقلاله وينسب للّه ما هو من حكايات الأوائل وأوضاعهم. فيكذب عليه - تعالى - لديهم.

رد اللّه عليهم كل ما قالوا فيهما بأنه ظلم وزور، وأن ما يتلوه عليه هذا

---

(١) كذا في الأصل!

النبي الكريم من ذلك الكتاب الحكيم ليس مما يكون إلا من خالق المخلوقات، العالم بأسرارها.

أسلوب في البيان:

لقد جاءوا بالظلم والزور في قولهم الأول وقولهم الثاني.

وقوله: «قل» أمر بما يرد قولهم الأوَّل وقولهم الثاني غير أنه قصد إلى الإيجاز وعدم التكرار، فجعل مع قولهم الأول الوصف، وهو الظلم، واكتفى بذكره هنا عن إعادته، وجعل مع قولهم الثاني الدليل وهو إنزال من يعلم السر. واكتفى بذكره هنا عن ذكره مع الأول فحذف من كلٍّ ما أثبت مع الآخر. وجعل الوصف مع الأول والدليل مع الثاني ترقيا من الدعوى للدليل.

وجه الدليل:

القرآن أعجز العرب ببلاغته حتى عرفوا وعرف العلماء بلسانهم، المرتاضين ببيانهم، أنه ليس مثله من طوق البشر.

هذه هي الناحية الظاهرة في إعجاز القرآن والاستدلال به له ولمن أتى به ﷺ.

وهنالك ناحية أخرى هي أعظم وأعم وهي ناحيته العلمية التي يذعن لها كل ذي فهم من جميع الأمم في كل قطر وفي كل زمن.

وهذه الناحية هي التي احتج بها في هذا الموطن.

فقد استدل على أن القرآن لا يمكن أن يكون أتى به محمد من عنده، ولا يمكن أن يستعين عليه بغيره، ولا أن يكون من أوضاع الأوائل - بأنه ينطوي

على أشياء من أسرار الكون لا يعلمها إلا خالقه.

فمن ذلك ما أنبأ به من أسرار الأمم الخالية، وبين من أسرار الكتب الماضية، وما أنبأ من أحداث مستقبلة، وما ذكر من حقائق كونية كانت لذلك العهد عند جميع البشر مجهولة، كالزوجية في كل شيء، وسبح الكواكب في الفضاء، وسير الشمس إلى مستقر مجهول معيَّن عنداللَّه لها، وغير ذلك من أسرار العمران والإجتماع، وما تصلح عليه حياة الإنسان مما تتوالى على تصديقه تجارب العلماء إلى اليوم، وإلى ما بعد اليوم.

فكتاب اشتمل على كل هذه الأسرار لايمكن أن يأتي به مخلوق.

ترغيب:

قد دعانا اللَّه إلى العلم، ورغبنا فيه في غير ما آية، وأعلمنا أنه خلق لنا ما في السموات وما في الأرض جميعا، وأمرنا بالنظر فيما خلقه لنا، وأعلمنا هنا أن في هذه المخلوقات أسرارًا بينها القرآن واشتمل عليها، وكان ذلك من حجته العلمية على الخلق.

فكان في هذا ترغيب لنا في التقصي في العلم، والتعمق في البحث، لنطلع على كل ما نستطيع الإطلاع عليه من تلك الأسرار: أسرار آيات الأكوان والعمران، وآيات القرآن، فنزداد علمًا وعرفانًا، ونزيد الدين حجةً وبرهانًا، ونجني من هذا الكون جلائل ودقائق النعم، فيعظم شكرنا للرب الكريم المنعم.

فقهنا اللَّه في كتابه، ووفقنا إلى الاهتداء به والسير على سننه[1].

---

(١) الشهاب (ج٣، م١٣) غرة ربيع الأول ١٣٥٦هـ- ماي ١٩٣٧م.

منزلة الرسالة العلية والضرورات البشرية

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ [الفُرقان: الآية ٢٠] .

المناسبة:

لما طعنوا في رسالته بأنه بشر يفعل ما يفعله البشر بقولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفُرقان: الآية ٧] رد اللَّه عليهم بأن هذا هو حال جميع المرسلين من قبله، واحتج عليهم بما يعلمون من ذلك بما يسمعون من أهل الكتاب جيرانهم، وبما عندهم من أخبار عاد وثمود من بني جلدتهم .

المفردات:

الإرسال: هو البعث لتبليغ شيء أو قضائه .

وفي لسان الشرع: هو إنزال اللَّه تعالى الوحي على من اصطفاه من خلقه لينذر به من أمره بإنذاره من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢- ١٩٤] .

فالرسالة وحي مع أمر بالتبليغ .

التراكيب:

مفعول أرسلنا محذوف تقديره رجالًا ، وعليه عاد الضمير في «إنهم» وهو

صاحبِ الحال، والحال هي الجملة التي بعد إلا ، والجملة الثانية حال بالعطف على الأولى ، والاستثناء مفرغ من الأحوال .

وتقدير الكلام: وما أرسلنا قبلك رجالًا من المرسلين إلا حالة أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق . أي ما أرسلناهم في حالة من الأحوال إلا في هذه الحال .

وإنَّ واللام والحصر بما وإلَّا : كل هذه لتأكيد المعنى الذي سيق إليه الكلام، وهو إثبات أن رسول البشر لا يكون إلا بشرًا ، ردًّا على منكري ذلك من المشركين .

وعبر بالمضارع في «يأكلون ويمشون» ، لأن ذلك من ضروريات بشريتهم فهو يتجدد ويتكرر منهم .

وأكل الطعام والمشي في الأسواق كناية عن البشرية لأنهما وصفان لازِمانِ لها .

المعنى:

وما ينكر عليك هؤلاء من أكلك الطعام ومشيك في الأسواق مع أنك رسول اللَّه ، وقد علموا أنه ما من رسول كان قبلك إلا وهذه حالته ، وما أنت إلَّا واحدٌ منهم ، فلا عيب عليك في ذلك ، ولا حجة لهم عليك به .

تاريخ:

هذه المقالة شنشنة قديمة من الأمم التي أرسلت إليها الرسل فقابلتها بالجهل والعناد .

فقد قال لنوحٍ قومُه: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هُود: الآية ٢٧].

وقال لهودٍ قومُه: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: الآية ٣٣].

ولصالح: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١٥٤].

ولشُعيب: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ١٨٦].

ولموسى وهارون: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون: الآية ٤٧].

وفي سورة إبراهيم عن قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم أنهم قالوا لرسلهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: الآية ١٠].

فقال المشركون للنبي ﷺ ما قاله أمثالهم لإخوانه المرسلين -عليهم الصلاة والسلام-.

تعليل:

ما اعترض المعترضون على الرسل ببشريتهم إلا من جهلهم وسوء نظرهم وغباوتهم:

أما جهلهم، فقد جهلوا ما في البشرية من استعداد لنيل أرقى الكمالات، وجهلوا ما تقتضيه الرسالة من مشاكلة بين الرسول والمرسل إليهم لتحصل المفاهمة والاتصال، وجهلوا ما يؤهل به البشر لرتبة الرسالة من كمال في الروح والعقل والأخلاق والسلوك، مما كان الرسل متصفين به كله أمام أعين أقوامهم.

وأما سوء نظرهم فإنهم نظروا إلى بشرية الرسل فقاسوهم بهم، وقالوا

لهم: أنتم مثلنا، مع وجود الفارق الواضح بينهم وبين الرسل في الصفات النفسية التي بها كمال الإنسان.

وأما غباوتهم فإنهم لغلبة الجسمانيات على حسهم، وإهمالهم استعمال عقولهم، لم يتفطنوا للكمال المشاهد الذي امتاز به الرسل بين أقوامهم.

تعليم:

هذه العلل التي صدر اعتراض المعترضين عنها، قد علَّمنا اللَّه تعالى في كتابه العزيز ما يعصمنا منها.

فعلَّمنا أن الإنسان مستعد لأن تخضع له العوالم بما فيه من روح اللَّه، وأنه يلتحق بعالم الملائكة الأطهار بتلك الروح عند ما تكون على أصل طهرها وقدسها.

علمنا هذا بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾ [الحِجر: الآية ٢٩] فأخضع له ملائكته أشرف العوالم، وبقوله تعالى: ﴿قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ٣٣] فاتصل بهم وخاطبهم وعلمهم، فلا عجب أن يأتي المماثلون له من أبنائه في طهره وعصمته على سنته في الإتصال بالملائكة ومخاطبتهم.

وعلمنا أن الرسول لا يكون إلا من جنس المرسل إليهم ليحصل الإتصال ويمكن التلقي، وأن أهل الأرض لو كانوا ملائكة لأُرسِل لهم مَلَكٌ، وأنهم لو أنزل عليهم مَلَكٌ وهم بشر لَكُسي حلة البشرية، ولَالْتَبَس عليهم أمره، ولقالوا فيه مثل ما قالوا في المرسلين من البشر.

علَّمنا هذا بقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: الآية ٩٥] وبقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٩].

وعلَّمنا أن البشر يؤهل للرسالة باصطفاء اللَّه له، ومن مقتضى ذلك الاصطفاء تطهيره من أول نشأته من أوضار البشرية، وظلم الجسمانية وتسفلها، فتبقى روحه على غاية الطهر والعلوية النورانية، مستعدة للإتصال بالملأ الأعلى حتى تستكمل قواها فيأتيها الملك بالوحي.

علَّمنا هذا بمثل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحجّ: الآية ٧٥]، وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص: الآية ٤٧]، وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٤٢] وقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٤] وغيره كثير.

وعلَّمنا أن الرسل وإن كانوا موافقين لنا في الخلقة البشرية، فإنهم مباينون لنا غاية المباينة في الخلقة النفسية من حيث الطهر والكمال.

فنفوسهم بقيت على طهرها لم تدنس بشيء، ونفوسنا لا تخلو من تدنس، والموفق من داوم على غسلها بالتوبة وتحليتها بالصالحات.

وكمالهم فطري ويبلغون فيه بعملهم المتواصل وعصمتهم الربانية إلى الغايات التي لا تنال، وكمالنا ليس كذلك في الأمور الثلاثة: الفطرة والعمل المتواصل والعصمة.

علَّمنا هذه بقوله تعالى: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: الآية ١١].

فبالنظر الصحيح فيما منَّ اللَّه عليهم به ندرك أنهم ليسوا مثلنا وإن ساوونا في الخلقة البشرية.

وعلَّمنا أن لا ننظر إلى ظواهر الأمور دون بواطنها، وإلى الجسمانيات الحسية دون ما وراءها من معان عقلية، بل نعبر من الظواهر إلى البواطن، وننظر من المحسوس إلى المعقول، ونجعل حواسنا خادمة لعقولنا، ونجعل عقولنا هي المتصرفة الحاكمة بالنظر والتفكير.

علَّمنا هذا بقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المَائدة: الآية ١٠٠].

فلا ينظر إلى بهرجة الكثرة، ولكن إلى حقيقة وحالة الشيء الكثير فيعتبر بحسبهما.

وقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: الآية ١٥- ١٧].

فلا يجوز أن نغتر بالمال والقوة والجاه وأنواع النعيم إذا سيقت إلينا، فنحسب أنها هي نفس الكرامة الربانية التي دعينا إلى العمل لنيلها، بل إنما نعدها كذلك إذا كان معها التوفيق إلى شكرها بالقيام بحقوقها وصرفها في وجوهها.

ولا نغتر بحالة الضيق والعسر والضعف، فنحسب أنها إهانة من اللَّه لصاحبها، بل علينا أن ننظر إلى ما معها من صبر ورجاء وبر، أو ضجر ويأس وفجور: فنعلم حينئذ أنها مع الأولى للتمحيص والتثبيت، ومع الأخيرة للزجر والعقاب بعدل وحكمة من أحكم الحاكمين.

وبقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: الآية ١١٠].

فعلمنا أنه بشر، ولكنه خصص بالوحي إليه بتوحيد اللّه وبما يقتضيه مقام الإيحاء إليه من طهر وكمال حتى لا تحجب عنا بشريته التي نشاهدها بأبصارنا كمال حاله ومنزلته الذي ندركه ببصائرنا.

عقيدة:

الرسول إنسان ذو روح طاهرة نورانية علوية بها تأتّى له تلقي الوحي من الملائكة، وذو جسد بشري تجري عليه ضروريات البشرية الخلقية دون نقائصها الكسبية، لأنه مصرف بتلك الروح العلوية الطاهرة التي لا يصدر عنها إلا الخير، وبهذا الجسد البشري تأتّى للبشر الأخذ عنه والاقتداء به.

ومأخذ هذه العقيدة من الآيات التي تلوناها في فصل التعليم المتقدم.

تحذير:

علينا أن نحذر من أن نعترض أو نحكم بالأنظار السطحية دون بحث عن الحقائق، أو أن نلحق شيئًا بشيء دون أن نتحقق انتفاء جميع الفوارق.

فقد انتشرت بعدم الحذر من هذين الأمرين جهالات، وارتكبت ضلالات.

وبالنظر السطحي ازدرى إبليس آدم فامتنع من السجود له واعترض على خالقه، فكانت عليه اللعنة إلى يوم الدين.

وبعدم النظر إلى الفوارق، قال أحد ابني آدم لأخيه لما تقبل قربانه دونه هو

﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ [المَائدة: الآية ٢٧] ، حتى ذكَّره أخوه بوجود الفارق، فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المَائدة: الآية ٢٧] .

وحقيقة الأول ترجع إلى الجهل المركب، وحقيقة الثاني ترجع إلى القياس الفاسد، وهما أعظم أصول الفساد والضلال.

سلوك:

الأنبياء والمرسلون أكمل النوع الإنساني، وهم المثل الأعلى في كماله، وقد كان أصل كمالهم بطهر أرواحهم وكمالها، فأقبل على روحك بالتزكية والتطهير والترقية والتكميل، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالاقتداء بهم والإهتداء بهديهم.

وقد قال اللّٰه تعالى لنبينا -عليه وعليهم الصلاة والسلام-: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعَام: الآية ٩٠] .

فاقرأ ما قصه القرآن العظيم من أقوالهم وأعمالهم وأحوالهم وسيرهم، وتفقه فيه، وتمسَّك به، تكن - إن شاء اللّٰه تعالى - من الكاملين.

* * *

فتنة العباد بعضهم ببعض

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفُرقان: الآية ٢٠] .

المناسبة:

أفاد ما تقدم من الآية أن الرسل يأكلون الطعام فيحتاجون للغذاء وتحصيله، وأنهم يمشون في الأسواق للسعي والتكسب .

وأفاد آخِرُ الآية الحكمةَ الربانيةَ في ذلك، وهو أن يكون بذلك فتنةً واختبارًا للعباد، وتلك سنة اللَّه تعالى في خلقه، فقد جعل بعضهم لبعض فتنة .

المفردات:

قال في «لسان العرب»[1]: «الأزهري وغيره: جماع معنى الفتنة الابتداء والامتحان والاختبار، وأصلها مأخوذ من قولك: فتنت الفضة والذهب، إذا أذبتهما بالنار لتميز الرديء من الجيد» . اهـ.

ومنه قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العَنكبوت: الآية ٢] و﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التّغابُن: الآية ١٥] و﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ [طٰه: الآية ٤٠] و ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبيَاء: الآية ٣٥] .

أتصبرون: الصبر: حبس النفس على المكروه. والمكروه لها فعل ما فيه

---

(١) في (١١/ ١٢٥).

تعب، وترك ما فيه لذة، ويكون في المشروع والمقدور.

ففي الأول القيام بالمأمورات والترك للمنهيات.

وفي الثاني - وهو المصائب والبلايا - بالرضا والتسليم للخالق، وعدم الاعتراض عليه، وعدم السعي في إزالتها بغير الوجه المأذون فيه.

و«البصير»: هو المشاهد للأشياء، ظاهرها وباطنها، ذواتها ونعوتها وأحوالها، مباديها وغاياتها وعواقبها.

التراكيب:

الاستفهام في «أتصبرون» بمعنى الأمر أي اصبروا، وخرج الأمر في صورة الاستفهام تنبيهًا على قلة الصبر في الوجود، فهو من الأمر المعدوم الذي يسأل عنه هل يوجد، وفي ذلك بعث للهمم على تحصيله والتمسك به.

وجملة «وكان.. إلخ» معطوفة على جملة «وجعلنا»، وعدل عن مقتضى الظاهر وهو (وكنا بصراء) بالإضمار إلى «وكان ربك بصيرا» بالإظهار، للتنبيه على أن فتنته لعباده من مقتضى ربوبيته لهم وحسن تدبيره فيهم.

موقع هذه الجملة بعد الجملة الأولى لبيان أن فتنته لهم هي عن علم وبصر بصواب ذلك وحكمته، وأنه مطلع على حقيقة ما يكون منهم عند الاختبار، ليجازيهم عليه، وفي هذا وعد ووعيد للممتحَنين.

المعنى:

امتحنا بعضكم ببعض لتظهر حقائقكم عند الامتحان، جعلنا الرسل يأكلون كما يأكل البشر، ويتكسبون كما يتكسَّبون، لنمتحن العباد بهم، فيظهر

من يتبعهم بالإيمان واليقين، لما معهم من الحق والكمال، ويصبر على ما يلحقه في اتباعهم من الجهد والبلاء، ممن يحتقرهم ويعرض عنهم لما يرى من بشريتهم.

كما جعلنا الأمم فتنة لرسلها وامتحانًا لهم ليظهر صبرهم على ما يلاقون منهم من إذاية وشر، فتعلو درجاتهم، ويضاعف أجرهم.

وجعلنا الغني امتحانًا للفقير حتى يظهر صبره على حاله. وكفه لعينه ويده عن شيء غيره.

كما جعلنا الفقير امتحانًا للغني حتى يظهر صبره على القيام بواجبه نحوه.

وجعلنا الصحيح فتنة للمريض حتى يظهر صبره على بلواه ورضاه بما أعطاه اللَّه.

كما جعلنا المريض فتنة للصحيح، حتى يظهر صبره على القيام بواجبه نحوه من العطف عليه وعيادته ومواساته.

وجعلنا الرعية فتنة للراعي، حتى يظهر صبره على القيام بواجب رعايتها.

كما جعلنا الراعي فتنة للرعية ليظهر صبرها على طاعته.

وهكذا في جميع أقسام الناس.

أتصبرون على هذا الامتحان؟ فإن الصبر عليه عزيز شديد، فاصبروا، فإنه لا يخرجكم من هذا الامتحان خالصين خلوص الذهب الإبريز إلَّا الصبر.

وكان ربك يا محمد بصيرًا، عالمًا بعاقبة الامتحان في عباده، مطَّلعًا على كل ما يكون منهم عند الامتحان ليجازيهم عليه.

سؤال وجوابه:

اللَّه تعالى عالِمٌ بما يكون من عباده بعد امتحانهم قبل أن يمتحنهم، فما هي حكمة الامتحان؟

والجواب: أن اللَّه تعالى إنما يحاسب عباده على ما عملوه وكسبوه واكتسبوه بما عندهم من التمكن من الفعل والترك، وما عندهم من الاختيار، لا على ما علمه منهم قبل أن يعملوه، فلهذا يمتحنون، لتظهر حقائقهم، ويقع جزاؤهم على ما كسبت أيديهم باختيارهم، ولا حُجَّة لهم في تقدم علمه تعالى بما يكون منهم، لأن تقدم العلم لم يكن ملجئًا لهم على أعمالهم، ففي هذا الامتحان قيام حجة اللَّه على العاملين أمام أنفسهم وأمام الناس، كما فيه إظهار لحقيقتهم لأنفسهم ولغيرهم.

تطبيق:

كما يفتن الفردبالفرد، كذلك تفتن الأمة بالأمة.

من ذلك أننا - معشر الأمة الإسلامية - قد فُتنَّا بغيرنا من أمم الغرب، وفُتنوا هم أيضًا بنا.

فنحن ندين بالإسلام وهو دين السعادة الدنيوية والأخروية، ولكن حيثما كنا - إلا قليلًا - لسنا سعداء، لا في مظاهر تديننا، ولا في أحوال دنيانا.

ففي الأولى نأتي بما يبرأ منه الإسلام. ونصرح أنه من صميمه.

وفي الثانية ترانا في حالة من الجهل والفقر والتفرق والذل والاستعباد

يرثى لها الجماد، فلمَّا يرانا الغربيون على هذه الحالة ينفرون من الإسلام، ويسخرون منه إلا من نظر منهم بعين العلم والإنصاف، فإنه يعرف أن ما نحن عليه هو ضد الإسلام، فكنا فتنة عظيمة عليهم، وحجابًا كثيفًا لهم عن الإسلام، فكنا - ويا للأسف - فتنة للقوم الظالمين.

وهم من ناحيتهم نراهم في عز وسيادة، وتقدم علمي وعمراني، فننظر إلى تلك الناحية منهم، فنندفع في تقليدهم في كل شيء حتى معائبهم ومفاسدهم، ونزدري كل شيء عندنا حتى أعز عزيز إلا من نظر بعين العلم فعرف أن كل ما عندهم من خير هو عندنا في ديننا وتاريخنا، وأن ذلك هو هو، الذي تقدموا وسادوا به، وأن ما عندهم من شر هو شر على حقيقته، وأن ضرره فيهم هو ضرره، وأنه لا يجوز أن يتابعوا عليه، فكانوا فتنة لنا حتى يظهر من ينظر بعين الحق للحقائق ممن تبهره الظواهر، فتسلبه إدراكه، فيغدو لا يفرق بين اللُّبِّ والقشور.

اقتداء:

علمنا من هذه الآية وغيرها أن اللَّه تعالى يمتحن عباده ويختبرهم ليظهر حقائقهم، فلنقتد به تعالى في هذا، فنبني أمورنا على الامتحان والاختبار، فلا نقرر علما، ولا نصدر حكما إلا بعد ذلك، وخصوصًا في معرفة الناس والحكم عليهم، فالظواهر كثيرا ما تخالف البواطن، والتصنع والتكلف، قلما يسلم منهما أحد، ولا يعصم من الخطأ مع هذه المغلطات كلها إلا الامتحان والاختبار، فاعتصم بهما.

اهتداء:

كل من اتصل بك من أهلك وبنيك وأبيك وأمك وأصحابك وعشيرتك وقومك، وكل من ترتبط به برباط من أبناء جنسك - هو فتنة وامتحان لك، هل تقوم بواجبك نحوه من جلب خير له أو دفع شر عنه أو جلب خير منه لغيره أو دفع شره عن غيره، وهل تكف يدك عن شيئه، وتكف بصرك عما متع به، وتسأل اللَّه مما عنده من فضله؟

وإنما تقوم بواجبك نحوه مما تقدم، وتكف يدك وعينك عنه، وتسأل اللَّه مما عنده راضيًا بما قسم لك، معتقدًا الخير كل الخير في قسمه - إذا تدرعت بالصبر على إتيان ما يطلب منك إتيانه وإن كان عليك ثقيلًا، والكف عما يطلب منك الانكفاف عنه وإن كان منك قريبًا وفي طبعك لذيذًا، وإنما يكون لك هذا الصبر إذا كنت دائم اليقين بعلم اللَّه بك واطلاعه عليك، وأنه كان بك بصيرًا.

هذه الحقائق كلها هدتنا هذه الآية الكريمة إليها: هدتنا إلى أنا امتحنا ببعضنا، وأن الذي يخلصنا في هذا الامتحان، ويخرجنا سالمين هو الصبر، وأن حالتنا في الامتحان منكشفة لمن سيجازينا عليها.

فلنهتد بهدايتها إلى ما هدتنا إليه، ولنتدرع في هذا الامتحان العظيم بالصبر المتين، ولنستحضر في قلوبنا مراقبة اللَّه لنا لتثبت قدمنافي مقام الصبر بروح اليقين، فبذلك نخرج - إن شاء اللَّه تعالى - من نار الفتنة ذهبًا خالصًا نقيًّا، وجوهرًا طيبًا زكيًّا، فنسعد في الدارين برضى رب العالمين. واللَّه ولي التوفيق[1].

* * *

(١) الشهاب (ج١، م٨) رمضان ١٣٥٠هـ- جانفي ١٩٣٢م.

ندامة الظالم
على تركه السبيل القويم وصحبته للمضلين

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ . [الفرقان: ٢٧ - ٢٩] .

المناسبة:

لما سأل المشركون أن يروا الملائكة أُخبروا بأنهم سيرونهم في يوم يكون شره عليهم عظيمًا .

وذكر في الآيات السابقة مايكون في ذلك اليوم من حبوط أعمالهم، وتشقق السماء بالغمام، وتنزل الملائكة، وغير ذلك .

وذكر في هذه الآية ما يكون في ذلك اليوم من ندم الظالم وسوء حاله .

المفردات:

الظلم: وضع الشيء في غير موضعه، كوضع الكفر موضع الإيمان، ووضع المعصية موضع الطاعة، وحقُّ اللَّه تعالى أن يُؤمَن به ويُوحَّد ويُطاع . فمن كفر أو أشرك به أو عصاه فقد ظلم . وهو هنا الكافر والمشرك لأنه الذي لم يتخذ مع الرسول سبيلًا .

الويلة: الهلكة، كالويل بمعنى الهلاك .

فلان: يكنى به عن الأعلام، كما يكنى بِالهَنِ عن الأجناس.

الخليل: فعيل، بمعنى فاعل، وهو من تخللت مودته القلب وامتزجت بالنفس، فكانت له مكانة منهما وسلطان عليهما.

هذا في جانب الخلق.

وأما في جانب اللَّه تعالى، فبالمعنى الذي يليق بقدسه وتنزيهه.

فإبراهيم عليه السلام خليل الرحمان بما له عنده تعالى من عظيم المنزلة ورفعة الشأن وقبول الدعوة، وما له عليه من جزيل الإنعام.

الإضلال: الصد والصرف عن طريق الحق والنجاة.

الذكر: القرآن العظيم. وفسر بالشهادتين وبالإسلام. والقرآن فيه ذلك كله، وهو الذي سيأتي على الأثر ذكر هجرهم له، ولذلك اخترناه في معنى الذكر هنا.

الشيطان: الخبيث الشرير الذي استولى عليه، وتمكن منه خلق الإفساد والإضرار من الجن والإنس.

الخذول: الكثير الخذل، أي التسليم والترك لمن نزل به البلاء في وقت الحاجة إلى إنقاذه.

التراكيب:

شأن من وقع في غيظ وحسرة وندامة أن يعضَّ يديه ويأكل بنانه، كأنه لما لم يجد شيئًا يطفئ فيه غيظه رجع على نفسه بذلك، فعضُّ اليد لازم لحالة الحسرة والغيظ والندامة، فلذا يكنى به عنها، من إطلاق اللازم وإرادة

الملزوم، وذلك لا يمنع من وقوع العض منه حقيقة، بل وقوع ذلك هو الشأن الغالب.

وجملة (يقول يا ليتني) حالية، فهو يعض حالة كونه قائلًا: يا ليتني، فبينت هذه الجملة ما يقول، كما بينت التي قبلها ما يعمل، فصورتاه في حاله الشنيع الفظيع.

ويوم منصوب بأذكر، أو معطوف على (يوم يرون الملائكة)، كما عطف عليه (ويوم تشقق السماء)، و(يوم يرون) منصوب بأذكر، أو بيمنعون البشرى، كما يدل عليه: (لا بشرى يؤمئذ للمجرمين).

والتنكير في قوله (سبيلًا) للإفراد، أي سبيلًا واحدًا لا تعدد فيه، بخلاف ما كان عليه الظالم من سبل أهوائه المتعددة المتشعبة.

والألف في (يا ويلتى) منقلبة عن ياء المتكلم، والأصل: يا ويلتي، نادى ويلته، أي هلكته لتحضر في ذلك الوقت لأنه وقتها، وليس نداؤها رغبة في حضورها، فالهلاك لا يرغب فيه، وإنما نادى الهلاك ليحضر، لما حصل له من اليأس والقنوط من أسباب النجاة فلم يبق له إلا الهلاك، كما يقول العليل للطبيب وقد أيس من معالجة جرح بيده مثلًا: اقطع، فهذا وقت القطع.

وهكذا يخرج كل نداء في حالة شدة لما لا يخلص منها وإنما يزيد في اشتدادها كما ينادي الشقي «يا شقوتاه» والمفتضح «يا فضيحتاه» والمصاب «يا مصيبتاه».

وكنى بفلان، لأن لكل ظالم خليلا له اسمه الخاص، فلا يمكن التصريح بأسماء الجميع، فما بقي إلا الكناية عنها بفلان.

وجملة (لقد أضلَّني) بيان لسبب تمنيه السابق.

و«ال» في الشيطان، والإنسان، للجنس، فيدخل في جنس الشيطان خليل الظالم الذي صده عن الذكر، وقرين خليله من الجن الذي سوَّل له ذلك وأعانه، وقرينه هو الذي زينه له ودعاه إليه.

والجملة من كلام الظالم لإعلان خيبته وإظهار ألمه منها لما وجد نفسه وحده مخذولًا ممن أضله وأغواه.

المعنى:

ويوم يعضُّ الظالم لنفسه بالكفر بربه أو الشرك على يديه، ندمًا وحسرةً على تفريطه، وعدم اتباعه لسبيل الحق مع الرسول الذي أرسل إليه، وعلى توريطه لنفسه بصحبته لخليله وطاعته له حتى صرفه عن الإيمان بالقرآن بعد ما جاءه وسمعه وتمكن من الإيمان به، فأغواه ذلك الخليل وقرينه، وقرينه هو حتى أردوه، ثم خذلوه في ذلك اليوم العظيم، وفي وقت الحسرة والندامة، فلم يجد منهم نصرًا ولا معونة كما هو شأن الشياطين في خذلان من يغوونه ويردونه[1].

إلحاق واعتبار:

كما علينا أن نتبع سبيل الرسول -عليه وآله الصلاة والسلام-، التي جاء بها من عند اللَّه تعالى وهي الإسلام، كذلك علينا أن نتبع سبيله في القيام بشرائع الإسلام علمًا وعملًا في أبواب العبادات وأحكام المعاملات، وفي

---

(١) في الأصل: «من يغووه ويردوه»

تطبيق أصول الإسلام وفروعه على الحياة الخاصة والعامة، وهذه هي سنته التي كان عليها وكان عليها أصحابه وأهل القرن الثاني من التابعين وأهل القرن الثالث من أتباع التابعين، تلك القرون المشهود لها بالخيرية على غيرها بلسان المعصوم[1].

وكما أن من عدل عن الإسلام ولم يسلك سبيله وقع في ضلال الكفر، كذلك من عدل عن السنة ولم يسلك سبيلها وقع في ضلال الابتداع.

وكما أن من لم يتخذ مع الرسول سبيل الإسلام يندم أشد الندم ويتحسر أعظم الحسرة على ما كان من تفريطه، كذلك من لم يتخذ مع الرسول سبيل السنة، إذ كلٌّ منهما قد ظلم نفسه، وفرط في سبيل نجاته.

فالآية وإن كانت في الكافر والمشرك فهي تتناول بطريق الإعتبار أهل الأهواء والبدع.

وبهذا كانت الآية متناولة بوعظها وترهيبها جميع الخلق ممن لم يدخل في الإسلام، أو دخل فيه ولم يلتزم سنة نبيه ﷺ.

تحذير:

عندما تتخلل صحبة شخص من الناس قلبك وتمتزج بروحك، ويستولي

---

(١) كما في قوله ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم».
أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣) عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه.
وله شاهد عن عمران بن حصين: أخرجه البخاري (٣٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٥).
وآخر عن أبي هريرة: أخرجه مسلم (٢٥٣٤).
وثالث عن عائشة: أخرجه مسلم (٢٥٣٦).

بسلطان مودته عليك، تصير أقواله وأفعاله كلها عندك مرضية، وعيوبه ونقائصه عنك محجوبة، فتمسي طوع بنانه ورهن إشارته، يوجهك حيث شاء، ويصرفك عما أراد.

وهذه حالة من أخطر الأحوال عليك، لأنك فيها قد سلبت تمييزك وخسرت إرادتك، وصرت آلة في يد غيرك، فقد ترى الخير وتُدعى إليه فيصرفك عنه، وقد ترى الشر وتحذر منه ويوقعك فيه.

وهَبْ هذا الخليل كان مخلصًا لك وحدبًا عليك، فإنه غير معصوم من الخطإِ والضلال، أمَّا إذا كان شريرًا مفسدًا فهنالك الهلاك المحقق والوبال الشديد.

وقد ذكر لنا اللَّه تعالى في الآية ما كان من سوء مآل الظالم بسبب انقياده لخليله واتباعه له عن غير روية وصدق تمييزٍ.

يحذرنا من سلطان الخلة الذي يهمل معه شأن الإرادة والتمييز، ويعلمنا أن علينا أن نحافظ على إرادتنا وتمييزنا ونظرنا لأنفسنا مع الصديق والعدوِّ، ومع الخليل وغير الخليل، بل نحافظ عليهما مع الخليل أكثر لأنه مظنة الخوف بما له من المكانة في القلب والسلطان على النفس.

إرشاد:

لما كان خليل المرء بهذه المنزلة فعليك أن تختار من تخال، فلا تخال إلا من حسنت سريرته واستقامت سيرته، وغلب الصواب على أقواله وأعماله، ليكون دليلك إلى الخير وسائقك إليه، مع محافظتك على إرادتك وتمييزك معه على كل حال.

علامة:

إذا أردت أن تعرف شر خلانك، وأحقهم بهجرك له وابتعادك عنه، فانظر فيما يرغبك هو فيه، وما يرغبك عنه.

فإذا وجدته يرغبك عن القرآن وعما جاء به القرآن، فإياك وإياه، فتلك أصدق علامة على خبثه وسوء عاقبة قربه، فابتعد عنه في الدنيا قبل أن تعض على يديك على صحبتك له في الأخرى.

وإذا وجدته يرغبك في القرآن وما جاء به القرآن، فذلك الخليل الزكي الصادق، فاستمسك به وحافظ عليه.

وإنَّ خلَّة أُسِّست على الرجوع إلى القرآن، والتحابِّ على القرآن، والتناصح بالقرآن، لخلة نافعة دنيا وأخرى، لأنها أسست على أساس التقوى.

وقد قال اللَّه تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزّخرُف: الآية ٦٧].

* * *

شكوى النبي الكريم من هجر القرآن العظيم

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ [الفرقان: الآية ٣٠] .

المناسبة:

لما ذكر تعالى ما قاله المشركون من الباطل في معارضة القرآن والإعراض والصد عنه، وما قالوه من عبارات الحسرة والندامة يوم القيامة على ما كان منهم من ذلك في الدنيا، ذكر ما قاله النبي ﷺ من الشكوى لربه بهم من تركهم للقرآن العظيم وهجره.

المفردات:

مهجورًا: متروكًا مقاطعًا مرغوبًا عنه.

الرسول: محمد ﷺ.

وقومه: قريش.

التراكيب:

في قوله: يا رب، إظهار لتعظيم التجائه، وشدة اعتماده، وتمام تفويضه لمالكه ومدبر أمره وموالي الإنعام عليه.

وفي التعبير عنهم بقومه وإضافتهم إليه، وفي التعبير عن القرآن باسم الإشارة القريب، بيان لعظيم جرمهم بتركهم للقرآن وهو قريب منهم في متناولهم، وقد أتاهم به واحد منهم أقرب الناس إليهم، فصدوا وأبعدوا في

الصد عمن هو إليهم قريب من قريب . وهذا أقبح الصد وأظلمه .

وفي قوله (اتخذوا . . إلخ) بيان أنهم جعلوا الهجر ملازمًا له ووصفًا من أوصافه عندهم ، وذلك أعظم من أن يقال : هجروه، الذي يفيد وقوع الهجران منهم دون دلالة على الثبوت والملازمة .

المعنى:

وقال الرسول شاكيًا لربه : إن قومي الذي أرسلتني إليهم بالقرآن لأتلوه عليهم ؛ قد صدوا عنه ، وتركوه، وثبتوا على تركه وهجره .

استنتاج واعتبار:

في شكوى النبي ﷺ من هجر القرآن دليل على أن ذلك من أصعب الأمور وأبغضها لديه .

وفي حكاية القرآن لهذه الشكوى وعيد كبير للهاجرين بإنزال العقاب بهم إجابة لشكوى نبيه .

ولما كان الهجر طبقات أعلاها عدم الإيمان به ، فلكلِّ هاجرٍ حظُّه من هذه الشكوى وهذا الوعيد .

تنزيل:

ونحن - معشر المسلمين - قد كان مِنَّا للقرآن العظيم هجرٌ كثيرٌ في الزمان الطويل . وإن كُنَّا به مؤمنين .

بسط القرآن عقائد الإيمان كلها بأدلتها العقلية القريبة القاطعة،

فهجرناها، وقلنا تلك أدلة سمعية لا تحصل اليقين، وأخذنا في الطرائق الكلامية المعقدة، وإشكالاتها المتعددة، واصطلاحاتها المحدثة، مما يصعب أمره على الطلبة فضلًا عن العامة.

وبيَّن القرآن أصول الأحكام، وأمهات مسائل الحلال والحرام، ووجوه النظر والاعتبار، مع بيان حِكم الأحكام وفوائدها في الصالح الخاص والعام، فهجرناها، واقتصرنا على قراءة الفروع الفقهية مجردة بلا نظر، جافة بلا حكمة، محجبة وراء أسوار من الألفاظ المختصرة، تفنى الأعمار قبل الوصول إليها.

وبيَّن القرآن مكارم الأخلاق ومنافعها، ومساوئ الأخلاق ومضارها، وبيَّن السبيل للتخلي عن هذه، والتحلي بتلك، مما يحصل به الفلاح بتزكية النفس، والسلامة من الخيبة بتدسيتها، فهجرنا ذلك كلها، ووضعنا أوضاعا من عند أنفسنا واصطلاحات من اختراعاتنا، خرجنا في أكثرها عن الحنيفية السمحة إلى الغلو والتنطع، وعن السنة البيضاء إلى الإحداث والتبدع، وأدخلنا فيها من النسك الأعجمي والتخيُّل الفلسفي ما أبعدها غاية البعد عن روح الإسلام، وألقى بين أهلها بذور الشقاق والخصام، وآل الحال بهم إلى الخروج من أثقال أغلالها، والاقتصار على بقية رسومها للانتفاع منها، ومعارضة هداية القرآن بها.

وعرض القرآن علينا هذا الكون وعجائبه، ونبهنا على ما فيه من عجائب الحكمة ومصادر النعمة، لننظر ونبحث، ونستفيد ونعمل، فهجرنا ذلك كله إلى

«خريدة العجائب»[١] و«بدائع الزهور»[٢] والحوت والصخرة وقرن الثور[٣]!.

ودعانا القرآن إلى تدبره وتفهمه والتفكر في آياته، ولا يتم ذلك إلا بتفسيره وتبيينه، فأعرضنا عن ذلك وهجرنا تفسيره وتبيينه، فترى الطالب يفني حصة كبيرة من عمره في العلوم الآلية دون أن يكون قد طالع ختمة واحدة في أصغر تفسير كتفسير الجلالين مثلًا، بل ويصير مدرسًا متصدرًا ولم يفعل ذلك.

وفي جامع الزيتونة - عمره اللّٰه تعالى - إذا حضر الطالب بعد تحصيل التطويع في درس تفسير، فإنه - ويا للمصيبة - يقع في خصومات لفظية بين الشيخ عبد الحكيم وأصحابه في القواعد التي كان يحسب أنه فرغ منها من قبل، فيقضي في خصومة من الخصومات أيامًا أو شهورًا، فتنتهي السنة وهو لا يزال حيث ابتدأ، أو ما تجاوزه إلا قليلًا دون أن يحصل على شيء من حقيقة

---

(١) من الكتب المتداولة التي تكثر فيها الأحاديث الموضوعة والشديدة الضعف، كما قال الشيخ رشيد رضا في «الفتاوى» (٣/ ١٧١)، واسمه الكامل «خريدة العجائب وفريدة الغرائب» اشتهرت نسبته لابن الوردي المتوفى سنة (٧٤٩هـ). انظر حاشية «الأعلام» (٥/ ٦٧) للزركلي.

(٢) مؤلفه أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس مؤرخ مصري، توفي نحو سنة (٩٣٠هـ). وقد حذر إمامنا المصنف من كتابه هذا «بدائع الزهور في وقائع الدهور» لغلبة الأحاديث الموضوعة عليه. وانظر «فتاوى اللجنة الدائمة» (١/ ٢٦) و«كتب حذر منها العلماء» (٢/ ٢١-٢٢) لمشهور حسن.

(٣) يشير الإمام إلى ما ذكره بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ [القَلَم: الآية ١] أن النون: الحوت العظيم الذي تحت الأرض السابعة، وأن على ظهر هذا الحوت صخرة سمكها كغلظ السموات والأرض، وعلى ظهرها ثور له أربعون ألف قرن وعلى متنه الأرضون السبع وما فيهن وما بينهن؛ في روايات: لا زمام لها ولا خطام، بل إما ضعيفة أو موضوعة أو من الإسرائيليات، كما نبه إليه الجهابذة النقاد، جزاهم اللّٰه خيرًا.

وللإمام جواب حول المسألة نشر في مجلة «الشهاب» (ج١، م٧) الصادر غرة رمضان ١٣٤٩هـ، فليراجعه من شاء.

التفسير، وإنما قضى سنته في المماحكات بدعوى أنها تطبيقات للقواعد على الآيات، كأن التفسير إنما يقرأ لأجل تطبيق القواعد الآلية، لا لأجل فهم الشرائع والأحكام الإلهية.

فهذا هجر آخر للقرآن مع أن أصحابه يحسبون أنفسهم أنهم في خدمة القرآن.

وعلمنا القرآن أن النبي ﷺ هو المبيِّن للناس ما نزل إليهم من ربِّهم، وأن عليهم أن يأخذوا ما أتاهم، وينتهوا عما نهاهم عنه، فكانت سنته العملية والقولية تالية للقرآن، فهجرناها كما هجرناه، وعاملناها بما عاملناه، حتى إنه ليقل في المتصدرين للتدريس من كبار العلماء في أكبر المعاهد من يكون قد ختم كتب الحديث المشهورة كالموطأ والبخاري ومسلم ونحوها، مطالعةً، فضلًا عن غيرهم من أهل العلم، وفضلًا عن غيرها من كتب السنة.

وكم وكم وكم بيَّن القرآن! وكم وكم وكم قابلناه بالصدِّ والهجران!.

بيان واستشهاد:

شرُّ الهاجرين للقرآن هم الذين يضعون من عند أنفسهم ما يعارضونه به، ويصرفون وجوه الناس إليهم وإلى ما وضعوه عنه، لأنهم جمعوا بين صدهم وهجرهم في أنفسهم وصد غيرهم، فكان شرهم متعديًا وبلاؤهم متجاوزًا، وشر الشر وأعظم البلاء ما كان كذلك.

وفي هؤلاء جاء ما ذكره الإمام ابن القيم في كتاب «إعلام الموقعين»[1] عن

---

(١) في (١/ ٦٠) نشر دار الجيل بيروت، سنة ١٩٧٣م.

حماد بن سلمة ثنا أيوب السختياني عن أبي قلابة عن يزيد بن أبي[1] عميرة عن معاذ بن جبل قال:

«تكون فتن، فيكثر المال، ويفتح القرآن، حتى يقرأه الرجل والمرأة، والصغير والكبير، والمنافق والمؤمن، فيقرؤه الرجل فلا يُتَّبَع، فيقول: واللَّه لأقرأنه علانيةً، فيقرؤه علانية فلا يُتَّبع، فيتخذ مسجدًا، ويبتدع كلامًا ليس من كتاب اللَّه ولا من سنة رسول اللَّه ﷺ، فإياكم وإياه، فإنه بدعة وضلالة»[١٢٢].

قاله معاذ ثلاث مرات اهـ.

فانظر في قطرنا وفي غير قطرنا، كم تجد ممن بنى موضعًا للصلاة، ووضع كتبًا من عنده، أو مما وضعه أسلافه من قبله، وروَّجها بين أتباعه! فأقبلوا عليها، وهجروا القرآن، وربما يكون بعضهم قصد بما وضع النفع فأخطأ وجهه، إذ لا نفع بما صرف عباد اللَّه عن كتاب اللَّه، وإنما يدعى للَّه بكتاب اللَّه، ولذلك سمي صنيع هذا الواضع بدعة وضلالة، وحذر معاذ منه وأكد في

---

(١) كذا الأصل، والصواب: «بن عميرة»، كما في كتب الرجال والمصادر التي خرجته.

[١٢٢] صحيح:

أخرجه الحاكم (٤/ ٤٦٦) وابن وضاح في «البدع والنهي عنها» (رقم٦٣ - تحقيق بدر البدر) عن حماد بن سلمة به.

وقال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم».

وتابع أبا قلابة أبو إدريس الخولاني: أخرجه أبو داود (٤٥٩٨)، وإسناده صحيح رجاله ثقات، وأورده الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

وله طرق أخرى أشار إليها أخونا الفاضل الشيخ مشهور حسن - حفظه اللَّه - في تحقيقه لكتاب «إعلام الموقعين» (١/ ١١٢و ١٩٤- ١٩٥و ٢/ ٤٥٥- الطبعة الجديدة لدار ابن الجوزي) لابن القيم، فليراجعه من أراد التوسع في التخريج، واللَّه ولي التوفيق و الهداية.

التحذير بالتكرير.

وهذا الحديث وإن كان موقوفًا على معاذ فهو في حكم المرفوع، لأنه إخبار بمغيب مستقبل، وهذا ما كان يعلمه الصحابة رضوان اللّه تعالى عليهم إلا بتوقيف من النبي ﷺ، وقد تحقق مضمونه في المسلمين منذ أزمان ولا حول ولا قوة إلا باللّه.

سبيل النجاة:

لا نجاة لنا من هذا التيه الذي نحن فيه، والعذاب المنوع الذي نذوقه ونقاسيه، إلا بالرجوع إلى القرآن: إلى علمه وهديه وبناء العقائد والأحكام والآداب عليه والتفقه فيه، وفي السنة النبوية: شرحه وبيانه، والإستعانة على ذلك بإخلاص القصد وصحة الفهم، والإعتضاد بأنظار العلماء الراسخين، ، والإهتداء بهديهم في الفهم عن رب العالمين.

وهذا أمر قريب على من قربه اللّه عليه، ميسر على من توكل على اللّه فيه، وقد بدت طلائعه والحمد للّه، وهي آخذة في الزيادة إن شاء اللّه، وسبحان من يحيى العظام وهي رميم.

* * *

التسلية والتثبيت للنبي ﷺ

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفُرقان: الآية ٣١] .

المناسبة:

لما شكا -عليه الصلاة والسلام- قومه، سلّاه اللّه تعالى وعزّاه، وأمره بالصبر والثبات، ووعده ورجّاه.

المفردات:

العدوُّ: وزنه فعول، يكون للواحد والجماعة.

التراكيب:

كاف (كذلك) بمعنى مثل، والإشارة للجعل المفهوم مما تقدم، أي مثل ذلك الجعل للأعداء لك جعلنا لكل نبي. . . إلخ.

المعنى:

مثلما جعلنا لك أعداءً من قومك، كفروا بك، وهجروا كتابك، وصدوا عنك، وبالغوا في إذايتك؛ جعلنا لكل نبي مما نبأنا أعداء من أهل الذنب والإجرام.

فما أصابك إلا ما أصابهم، فاصبر كما صبروا، وكفى بربك هاديًا - يهديك إلى صراط الحق، ويبصرك الرشد، ويعرفك بما تؤدي به رسالة ربك،

فلا تتحير في أمرك لما ترى من صدود قومك - وناصرًا ينصرك على أعدائك، يأمره بالصبر ويثبته بالتأسي، يعده بأنه يهديه في طريق التبليغ، وينصره على معارضيه حتى يتم أمر اللَّه على يده.

ترهيب:

هؤلاء الذين سماهم اللَّه - تعالى - أعداءً لنبيه ووصفهم بالإجرام، هم أولئك الذين هجروا القرآن وصدُّوا عنه.

فهذا تخويف عظيم ووعيد شديد لكل من كان هاجرًا للقرآن العظيم بوجه من وجوه الهجران.

اقتداء وتأسٍّ:

حق على حزب القرآن الداعين به والداعين إليه أن يقتدوا بالأنبياء والمرسلين في الصبر على الدعوة، والمضي فيها، والثبات عليها، وأن يداووا أنفسهم عند ألمها واضطرابها بالتأسي بأولئك السادة الأخيار.

بشارة:

قد وعد اللَّه تعالى نبيه - بعد ما أمره بالتأسي والصبر - بالهداية والنصر.

وفي هذا بشارة للدعاة من أمته من بعده السائرين في الدعوة بالقرآن وإلى القرآن على نهجه، أنه يهديهم وينصرهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العَنكبوت: الآية ٦٩] معهم بالفضل والنصر والتأييد، وهذا عام للمجاهدين المحسنين، والحمد للَّه رب العالمين[1].

(١) الشهاب (ج٢، م٨) غرة شوال ١٣٥٠هـ- فيفري ١٩٣٢م.

تثبيت القلوب بالقرآن العظيم

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفُرقان: الآية ٣٢].

المناسبة:

هذا اعتراض آخر من اعتراضاتهم الباطلة نسق مع ما تقدم منها ليجاب عنه، ويبين خطأهم فيه كما فعل بما تقدم.

المفردات:

(لولا): مع المضارع للتحضيض نحو: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ [النمل: الآية٤٦]، ومع الماضي للوم والتوبيخ، نحو: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ [النور: الآية ١٣].

وهي هنا مع الماضي فتكون للوم على عدم حصول المذكور وحصول ضده، والمقصود من اللوم هنا الاعتراض على عدم نزوله جملة واحدة ونزوله مفرقًا، فالمعترض عليه هو نزوله مفرقًا.

(نزّل): يأتي مرادفًا لأنزل، والتضعيف أخو الهمزة.

ويأتي مفيدًا للتكثير، فيفيد تكرر النزول وتجديده، وخرج على هذا قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ(١) وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: الآية ٢].

---

(١) في الأصل: «بين يديه من الكتاب»!.

وأما هنا فلا يصح حمله على التكثير المفيد للتدريج، لئلا يناقض قولهم: جملة واحدة، فيكون من التضعيف المرادف للهمزة.

وعندي أن نزَّل المضاعف يرد لكثرة الفعل ولقوته، فجاء لكثرته في آية آل عمران المتقدمة، وجاء لقوته في هذه الآية، لأن إنزال الجملة مرة واحدة أقوى من إنزال كل جزء من الأجزاء بمفرده.

(كذلك): الإشارة للإنزال المفرق المفهوم من قولهم: لولا نزل عليه القرآن جملة، لأنه في معنى: لِمَه نزل عليه جملة ولم ينزل عليه مفرقًا.

(التثبيت): ثبات الشيء إقامته ورسوخه دون اضطراب، وذلك من قوته، كما أن اضطراب المضطرب من ضعفه، فتفسير تثبيت الفؤاد هنا بتقويته تفسير بلازم معناه، على أنه مراد منه أيضًا أصل المعنى وهو السكون وعدم الاضطراب.

فتثبيته - إذًا - هو تسكينه وتقويته.

(الترتيل): مادة: ر.ت.ل. كلها ترجع إلى تناسق الشيء وحسن تنضيده، منه ثغر رتل، بالتحريك، أي مفلج، بين الأسنان فرج لا يركب بعضها بعضًا.

وترتيل القرآن في التلاوة هو إلقاء حروفه حرفًا حرفًا، وكلماته كلمةً كلمةً، وآياته آيةً آيةً، على تؤدة ومهل حتى يتبين للقارئ والسامع، ولا يخفى عليه منه شيء.

وأما ترتيله في نزوله، وهو المراد هنا، فإنه إنزاله آية وآيتين وآيات مفرقًا نجومًا على حسب الوقائع.

التراكيب:

(وقال الذين كفروا): وصل لأنه قيلٌ من أقوالهم، فعطف على ما تقدم من مثله.

(كذلك لنثبت): الأصل: أنزلناه كذلك، فأوجز بحذف المتعلق لوجود ما يدل عليه في اعتراضهم، وفصل لأنه جواب عن اعتراضهم.

(ورتلناه): وصل لأنه معطوف على أنزلناه المحذوف.

والتنوين في (ترتيلًا) تنوين تنويعٍ وتعظيمٍ، أي نوعًا من الترتيل عظيمًا.

المعنى:

وقال الذين كفروا - وهم قريش أو اليهود أو الجميع، وهو الظاهر، لأن قريشًا واليهود كان يتصل بينهم الكلام في شأن النبي ﷺ وشأن القرآن - قالوا معترضين ومقترحين: لمه لم ينزل عليه القرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة وغيرها، ونزل عليه مفرقًا؟

فقال اللَّه تعالى جوابًا لهم: أنزلنا كذلك الإنزال مفرقًا لنثبت به قلبك فيسكن ويطمئن، ونقويه فيصبر ويتحمل. وأنزلناه مرتلًا مفرقًا تفريقًا مرتبًا منزلًا كل قسم منه في الوقت المناسب لإنزاله والحالة الداعية إليه اللَّائقة به.

مزيد بيان للاعتراض والجواب:

أما اعتراضهم فكان لأنهم سمعوا القرآن يذكر أن الكتاب أنزل على النبي ﷺ، كما أنزلت الكتب على الأنبياء عليهم السلام من قبله بمثل قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [العَنكبوت: الآية ٤٧]. فقالوا: لماذا نزل هذا الكتاب مفرقًا، ولم ينزل مثل تلك الكتب جملة واحدة؟.

وهم لما عجزوا عن معارضة أقصر سورة منه أخذوا يباهتون بالباطل ويعترضون بمثل هذا الاعتراض.

وأما الجواب فكان ببيان حكمتين في إنزاله مفرقًا:

الحكمة الأولى: تثبيت قلبه.

والحكمة الثانية: تفريقه مرتبًا على الوقائع.

وكان في تينك الحكمتين مزيتان عظيمتان للقرآن العظيم على غيره من كتب اللَّه تعالى، فكان ما اعترضوا به على أنه نقص فيه عنها هو كمال له عليها.

شرح الحكمة الأولى:

كان كل نجم ينزل من القرآن العظيم - والنجم: القسم الذي ينزل معًا آية أو آيتين أو أكثر - يزداد به عجزهم وعنادهم ظهورا، وتزداد به حُجة النبي ﷺ وصدقه وضوحًا. فيزداد بذلك سكون قلبه وطمأنينته بظهور أمره على عدوه، وعلو كلمة الحق على كلمة الباطل.

وفي ذلك تقوية له وأي تقوية، لا عن شك كان في قلبه أو تردد، ولكن البراهين المتوالية والحجج المتتالية تزيد في سكون القلب واطمئنانه، وإن كان معقودًا من أول أمره على اليقين.

فهذا وجه من تثبيت فؤاده بالآيات المتفرقات في النزول.

وقد كان كل نجم من نجوم القرآن ينزل بشيءٍ من العلم والعرفان مما يرجع إلى العقائد أو الأخلاق أو الأحكام أوالتذكير بالأمم الماضية وأخبار الرسل المتقدمين أو باليوم الآخر أو بسنة اللَّه في المكذبين، إلى غير ذلك من علوم

القرآن، فيتقوى قلبه عند نزول كل نجم بما يكتسبه منه من معرفة وعلم.

وكان يلقى من الجهد والعناء في تبليغ الرسالة ما تضعف عن تحمُّله القوى البشرية، فإذا نزل عليه القرآن، واتصل بالملك الروحاني النوراني، وقذف في قلبه ذلك الوحي القرآني تقوى قلبه على تحمله أعباء الرسالة ومشاق التبليغ.

ولما كان البلاء والعناء في سبيل التبليغ متكررًا متجددًا كان محتاجًا إلى تجديد تقوية قلبه، وكان ذلك مقتضيًا لتفريق نزول الآي عليه.

فهذه ثلاثة وجوه من التثبيت.

حظنا من العمل بهذه الحكمة:

قلوبنا معرَّضة لخطرات الوساوس، بل للأوهام والشكوك، فالذي يثبتها ويدفع عنها الاضطراب ويربطها باليقين هو القرآن العظيم.

ولقد ذهب قوم مع تشكيكات الفلاسفة وفروضهم ومماحكات المتكلمين ومناقضاتهم، فما ازدادوا إلا شكًّا، وما ازدادت قلوبهم إلا مرضًا حتى رجع كثير منهم في أواخر أيامهم إلى عقائد القرآن وأدلة القرآن؛ فشفوا بعد ما كادوا كإمام الحرمين[1] والفخر الرازي[2].

---

(١) هو أبو المعالي الجوُيني المتوفى سنة (٤٧٨هـ) القائل:

«يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفتُ أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلتُ به».

وقال عند موته: «لقد خضتُ البحر الخِضَمّ، وخليتُ أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت في الذي نهوني عنه، والآن فإن لم يتداركني ربي برحمته، فالويل لابن الجُويني، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي - أو قال- على عقيدة عجائز نيسابور».

(٢) القائل آخر عمره:

نهاية إقدام العقول عِقالُ ... وغاية سعي العالمين ضلالُ

وأرواحنا في وحشةٍ من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذًى ووبالُ

=

وقلوبنا معرَّضة لران المعصية الذي تظلم منه القلوب وتقسوا حتى تحجب عنها الحقائق، وتنطمس أمامها سبل العرفان، فالذي يجلو عنها ذلك الران، ويزيل منها تلك القسوة، ويكشف لها حقائق العلم، ويوضح لها سبل المعرفة هو القرآن العظيم.

فقراؤه المتفقهون فيه، قلوبهم نيرة، مستعدّة لتلقي العلوم والمعارف، مستعدة لسماع الحق وقبوله، لها من نور القرآن فرقان تفرق به بين الحق والباطل، وتميز به بين الهدى والضلال.

وقلوبنا معرَّضة للضعف عن القيام بأعباء التكليف وما نحن مطالبون به من الأعمال، والذي يجدد لنا فيها القوة ويبعث فيها الهمة هوالقرآن العظيم.

فحاجتنا إلى تجديد تلاوته وتدبره أكيدة جدًا لتقوية قلوبنا باليقين وبالعلم وبالهمة والنشاط للقيام بالعمل.

شرح الحكمة الثانية:

من محاسن هذه الشريعة المطهرة أنها نزلت بالتدريج المناسب، كما في تحريم الخمر[1]، وكما كان في العدد المفروض عليه الثبات للعدو في آيات

= ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سِوى أن جمعنا فيه: قيل وقالوا

قال: «لقد تأملتُ الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلًا، ولا تروي غليلًا، ورأيتُ أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: الآية ٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، واقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: الآية ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: الآية ١١٠]». ثم قال: «ومن جرّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي».

(١) وقد حُرِّمت في ثلاث مراحل، كما في حديث عمر بن الخطاب الذي أخرجه أبو داود (٣٦٦٥)، والترمذي (٣٠٥٨)، وغيرهما، وصححه والحاكم وغيرهما. انظر «تفسير ابن كثير» (٢/ ٦٣٦)، و«فتح الباري» (٨/ ٣٥٤).

الأنفال[١]، وكما كان في مشروعية قيام الليل في آيات سورة المزمل[٢].

وما كان ليكون هذا التدريج بغير تفريق الآيات في التنزيل.

ومن محاسنها نسخ الحكم عند انتهاء المصلحة التي اقتضت تشريعه وانقضاء زمنها لحكم آخر أنسب منه للبقاء في الأزمان، كما كان في آيتي المتوفى عنها في سورة البقرة[٣].

وما كان ذلك ليتأتى إلا بتفريق الآيات في الإنزال.

وكانت الوقائع تقع، والحوادث تحدث، والشُّبه تعرض، والاعتراضات تَرِد، فكانت الآيات تنزل بما تتطلبه تلك الوقائع من بيان، وما تقتضيه تلك الحوادث من أحكام، وما تستدعيه تلك الشُّبه من رد، وتلك الاعتراضات من إبطال، إلى غير ما ذكرنا من مقتضيات نزول الآيات المعروفة بأسباب النزول.

وفي بيان الواقعة عند وقوعها، وذكر حكم الحادثة عند حدوثها، وردِّ الشبهة عند عروضها، وإبطال الاعتراض عند وروده؛ ما فيه من تأثير في

---

(١) يعني المصنف قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٥، ٦٦].

وراجع ما أخرجه البخاري (٤٦٥٣) عن ابن عباس.

(٢) يعني الآيات (١- ٤) والآية (٢٠) منها.

(٣) يشير المصنف إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ . .﴾ الآية [البقرة: ٢٤٠] والمنسوخة بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا . .﴾ الآية [البقرة: ٢٣٤]. وراجع «تفسير ابن كثير» (١/ ٥٢٦- ٥٢٧).

النفوس، ووقع في القلوب، ورسوخ في العقول، وجلاء في البيان، وبلاغة في التطبيق، واستلاء على السامعين.

وما كان هذا كله ليتأتَّى لولا تفريق الآيات في التنزيل وترتيلها وتنضيدها هذا الترتيل العجيب، وهذا التنضيد الغريب، الذي بلغ الغاية من الحسن والمنفعة، حتى أنه ليصح أن يعدَّ وحده وجهًا من وجوه الإعجاز.

حظنا من العمل بهذه الحكمة:

أن نقرأ القرآن ونتفهمه حتى تكون آياته على طرف ألسنتنا، ومعانيه نصب أعيننا، لنطبق آياته على أحوالنا، وننزلها عليها كما كانت تنزل على الأحوال والوقائع.

فإذا حدث مرض قلبي أو اجتماعي طلبنا دواءه في القرآن وطبقناه عليه.

وإذا عرضت شبهة أو ورد اعتراض طلبنا فيه الرد والإبطال.

وإذا نزلت نازلة طلبنا فيه حكمها.

وهكذا نذهب في تطبيقه وتنزيله على الشؤون والأحوال إلى أقصى حد يمكننا.

اقتداء:

انظر إلى هذه الحكمة في هذا الترتيل[1] كيف كان تنزل آياته على حسب الوقائع، أليس في هذا قدوة صالحة لأئمة الجُمع وخطبائها في توخيهم بخطبهم الوقائع النازلة وتطبيقهم خطبهم على مقتضى الحال؟.

(١) وقع في بعض النشرات: «التنزيل»!

بلى واللَّهِ! بلى واللَّه!.

ولقد كانت الخطب النبوية والخطب السلفية كلها على هذا المنوال تشتمل مع الوعظ والتذكير على ما يقتضيه الحال.

وأما هذه الخطب المحفوظة المتلوة على الأحقاب والأجيال، فما هي إلا مظهر من مظاهر قصورنا وجمودنا.

فإلى اللَّه المشتكى، وبه المستعان[1].

* * *

(١) الشهاب (ج٣، م٨) غرة ذي القعدة ١٣٥٠هـ - مارس ١٩٣٢م.

الحق والبيان في آيات القرآن

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفُرقان: الآية ٣٣] .

المناسبة:

لما رد تعالى اعتراضاتهم وأبطل شبهاتهم، أخبر تعالى بأنه لا يزال القرآن كذلك يدمغ باطلهم بحقه فيزهقه، ويصدع غشاء تمويههم بصادق بيانه فيمزقه، لطمأنة قلب نبيِّه ﷺ وتثبيته، ووعدًا له بدوام النصر والتأييد.

المفردات:

(المثل): هو الشبه، هذا أصله، ثم يطلق على الكلام الذي قيل أول ما قيل في مقام، ثم لحسنه وإيجازه حفظ وجرى على الألسنة وصار يقال في كل مقام يشابه مقامه الأصلي الذي قيل فيه أولًا، لمشابهة المقام الثاني للمقام الأول.

ثم صار يطلق أيضًا على كل كلام فيه بيان لشيء وتصوير له، سواء أطابق ذلك البيان والتصوير الواقع وأتى بالحق، أم لم يطابق الواقع ولم يأت بالحق.

وهذا المعنى هو المراد هنا، فإن المشركين جاءوا بكلمات في حق اللَّه تعالى، وفي حق كتابه، وفي حق ملائكته، وفي حق نبيه، لم يطابقوا فيها الواقع ولا أتوا فيها بحق، كقولهم في اللَّه وملائكته: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفُرقان: الآية ٢١] .

وفي نبيه: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفُرقان: الآية ٧].

وفي القرآن: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا﴾ [الفُرقان: الآية ٥] ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ [الفُرقان: الآية ٣٢].

فهذه هي أمثالهم التي ضربوها فضلُّوا.

وجاء القرآن بعد كلماتهم الباطلة بكلمات الحق الدامغة مثل قوله تعالى:

﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الفُرقان: الآية ٦].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ [الفرقان: الآية ٢٠].

﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ [الفُرقان: الآية ٣٢].

فهذه هي أمثال اللَّه التي جاءت بالحق وأحسن تفسيرًا.

«التفسير»: الكشف عن المعنى.

التراكيب:

وصلت الجملة لمشاركتها لما قبلها في الخبرية والمخبر عنهم والموضوع المتحدث عنه مما جاءوا به من الباطل وما رد عليهم به من الحق.

وجملة (جئناك) حالية من كاف الخطاب المفعول في (لا يأتونك).

والحصر بالنفي وإلَّا في تلك الحال.

والتقدير: ولا يأتونك بمثل في حال من أحوالك إلا في حال مجيئنا لك

بالحق وأحسن تفسيرًا.

والتعبير بالمضارع في (يأتونك) يفيد الحدوث وتجدد الإتيان منهم.

والتعبير بالماضي في (جئناك) مع أنه في معنى المستقبل يفيد تحقق المجيء، وهو المناسب لمقام الوعد والتثبيت.

المعنى:

ولا يأتيك يا محمد هؤلاء المشركون وأمثالهم بكلام يحسنونه ويزخرفونه، ويصورون به شبهةً باطلةً، أو اعتراضًا فاسدًا، إلا جئناك بالكلام الحق، الذي يدمغ باطلهم، ويدحض شبهتهم، وينقض اعتراضهم، ويكون أحسن بيانًا وأكمل تفصيلًا.

اهتداء:

إذا تتبعتَ آيات القرآن وجدتَها قد أتت بالعدد الوافر من شُبه الضالين واعتراضاتهم، ونقضَتْها بالحق الواضح والبيان الكاشف في أوجز لفظ وأقربه وأبلغه.

وهذا قسم عظيم جليل من علوم القرآن يتحتم على رجال الدعوة والإرشاد أن يكون لهم به فضل عناية ومزيد دراية وخبرة.

ولا نحسب شبهة ترد على الإسلام إلَّا وفي القرآن العظيم ردُّها بهذا الوعد الصادق من هذه الآية الكريمة.

فعلينا عند ورود كل شبهة من كل ذي ضلالة أن نفزع إلى آي القرآن، ولا أخالنا إذا أخلصنا القصد وأحسنا النظر إلَّا واجديها فيها، وكيف

لا نجدها في آيات ربنا التي هي الحق وأحسن تفسيرًا؟

اقتداء:

لنقتد بالقرآن فيما نأتي به من كلام في مقام الحِجاج أو مقام الإرشاد، فلنتوخ دائما الحق الثابت بالبرهان أو بالعيان، ولنفسره أحسن التفسير، ولنشرحه أكمل الشرح، ولنقربه إلى الأذهان غاية التقريب، وهذا يستدعي صحة الإدراك، وجودة الفهم، ومتانة العلم، لتصور الحق ومعرفته، ويستدعي حسن البيان، وعلوم اللسان، لتصوير الحق وتجليته والدفاع عنه.

فللاقتداء بالقرآن في الإتيان بالحق وأحسن بيان، علينا أن نحصل هذه كلها ونتدرب فيها ونتمرن عليها حتى نبلغ إلى ما قدر لنا منها.

هذا ما على أهل الدعوة والإرشاد وخدمة الإسلام والقرآن.

فأما ما على عموم المسلمين من هذا الاقتداء: فهو دوام القصد إلى الإتيان بالحق، وبذل الجهد في التعبير بأحسن لفظ وأقربه، ومن أخلص قصده في شيء وجعله من وكده[1] أعين - بإذن اللّٰه تعالى -عليه.

* * *

---

(١) أي: دأبه وقصده.

حشر الكفار إلى النار

﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ [الفُرقان: الآية ٣٤] .

المناسبة:

لما أبطل شُبههم بيَّن مآلهم وجزاءهم .

المفردات:

(الحشر) : السوق والجمع .

(المكان) : المنزل .

و(السبيل) : الطريق .

التراكيب:

فصلت الجملة لأنها بيان لحالهم في الآخرة، وهو غير الموضوع المتقدم .

عرف المسند إليه بالإشارة في قوله : (أولئك شر مكانًا) للتنبيه على أن المشار إليه وهو (الذين) المتقدم حقيق بما بعد اسم الإشارة من قوله : (شر مكانًا وأضل سبيلًا)، بسبب ما اتصف به المشار إليه المتقدم مما دلت عليه الصلة، وهو حشرهم على وجوههم إلى جهنم الذي ما أصابهم إلا بما قدمت أيديهم، ففي الحقيقة هم أحقاء بكونهم شرًّا مكانًا وأضل سبيلًا بسبب ما

أداهم إلى ذلك الحشر، فاكتفى بذكر المسبب عن السبب.

وأفعل التفضيل لم يذكر معه المفضل عليه، ليفيد أن مكانهم شر مكان من أمكنة الشر، وسبيلهم أضل سبيلًا من سبل الضلال، وإسناد الضلال للسبيل مجاز.

المعنى:

هؤلاء المشركون القائلون للمقالات المتقدمة ومن كان على شاكلتهم في الكفر والعناد، الذين يجمعون ويساقون إلى جهنم مقلوبين على وجوههم، أولئك شر مكانًا ومستقرًا، فإنهم أهل النار وأضل طريقًا، فإنهم سلكوا طريق الكفر الذي أداهم إلى ذلك المستقر.

حديث:

أخرج الشيخان عن أنس بن مالك رضي اللّه تعالى عنه، أن رجلا قال: يا نبي اللّه كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال ﷺ:

«**أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادرًا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟**»[١٢٣].

فقه:

من هذا الحديث علمنا أنه يجب فيما يرد من الأخبار عن اليوم الآخر أن يحمل على ظاهره ولو كان غيرمعتاد في الدنيا، لأن أحوال العالَم الآخر

[١٢٣] صحيح:

رواه البخاري (٤٧٦٠و٦٥٢٣) ومسلم (٢٨٠٦) عن أنس رضي الله عنه.

لا تقاس على أحوال هذا العالـم.

توجيه:

رفعوا وجوههم في الدنيا عن السجود للَّه، فأذل اللَّه تلك الوجوه فمشوا عليها في المحشر، ورفعوا رؤوسهم كِبرًا عن الحق فنكَّسها اللَّه يوم القيامة، ومشوا في طريق النظر والاستدلال مشيًا مقلوبًا، فمشوا في الآخرة مشيًا مقلوبًا، فكان ما نالهم من سوء تلك الحال جزاءً وفاقًا لما أتوا من قبيح الأعمال. وما ربك بظلام للعبيد.

تحذير:

فيما يذكره اللَّه تعالى من هذا الجزاء العادل تخويف عظيم لنا من سوء الأعمال التي تؤدي إلى سوء الجزاء، وخصوصًا من مثل ما ذكر فيما تقدم من ترك السجود والكبر على الحق والنظر المقلوب.

عصمنا اللَّه والمسلمين أجمعين بالعلم والدين، وهدانا سنن المرسلين، آمين يا رب العالمين[1].

* * *

---

(١) الشهاب (ج٣، م٨) غرة ذي القعدة ١٣٥٠هـ - مارس ١٩٣٢م.

من إكرام اللّٰه تعالى عبده، تحميله أعباء الرسالة وحده

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾ [الفرقان: الآية ٥١].

المناسبة:

قد استفيد من الآيات المتقدمة ما كان يكابد النبي ﷺ من إذاية قومه، وما كان يلقاه من مكابرتهم للحق وتعنتهم بالباطل، وما كان يعانيه من الجهد الجهيد في إنذارهم وتبليغ دين اللّٰه تعالى إليهم، وقد أحاط به الأعداء من كل جانب، ولقيته العقبات من كل ناحية، وهو في ذلك كله جاهدٌ في القيام بتبليغ الأمانة، ناهضٌ بأعباء الرسالة، ماضٍ في تلك السبيل ليس معه من نذير، وقد كان ذلك مما تتفسخ له القوى البشرية لولا تأييد من اللّٰه.

فأراد تعالى في هذه الآية أن يثبته في مقامه، ويؤنسه في انفراده، فيبين له أن تخصيصه بالقيام هذا المقام العظيم هو لأجل تعظيمه وتكريمه، وتخصيصه بالأجر الكثير، والثواب الذي ليس له من مثيل.

المفردات:

البعث: الإرسال.

القرية: منازل الناس حيث يقيمون ويكونون مجتمعًا كبيرًا أو صغيرًا.

النذير: المخوِّف من الوقوع في الشر والهلاك.

التراكيب:

مفعول المشيئة محذوف قياسًا، وتقدير الكلام: ولو شئنا أن نبعث، والبعث في كل قرية منتفٍ بحكم لو، لأنها هنا تدل على امتناع جوابها لامتناع شرطها.

المعنى:

لو أردنا لأرسلنا في كل بلدة ومصر رسولًا ينذرهم ويخوفهم من حلول نقمتنا بهم بكفرهم بنا، ومعصيتهم لنا، فيخفَّ عنك عبء ما حملت، ويسقط عنك بذلك تعب كثير، ولكنا لم نرد ذلك وحملناك أنت وحدك أعباء وأثقال النذارة لجميع القرى، ليظهر فضلك بعموم رسالتك، ويعظم أجرك بعظم جهادك وصبرك، ويكثر ثوابك بكثرة من يؤمن بك ومن تودُّ وتعمل ليؤمن بك.

حديث:

صح عن النبي ﷺ أنه قال:

«أُعطيت خمسًا لم يُعطَهن أحدٌ قبلي: كان كل نبي يُبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى كل أحمر وأسود، وأحلَّت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وجُعلتْ لي الأرضُ طيبةً طهورًا ومسجدًا، فأيما رجلٌ أدركته الصلاة صلى حيث كان، ونُصرتُ بالرعب بين يدي مسيرة شهر، وأُعطيت الشفاعة»[١٢٤].

وذكر اللونين الأحمر والأسود لقصد التعميم.

---

[١٢٤] صحيح:
رواه مسلم (٥٢١) عن جابر بن عبد اللّه رضي الله عنهما.

هكذا جاء هذا الحديث عن جابر بن عبد اللَّه في «صحيح مسلم».

وجاء فيه من طريق أبي هريرة زيادة: «**وخُتم بي النبيون**»[١٢٥].

فتعميمُ رسالتِه وختمُ النبوةِ به في هذا الحديث الصحيح من طريقيه من مقتضى معنى الآية، فإنه لما عمت رسالته ولم يكن معه رسول في حياته، وختمت به النبوة فلا يكون كذلك بعد وفاته، ثبتت له كرامة في الخصوصية وعظمة المنزلة وجزالة المثوبة، وهو ما كنا بيناه في معنى الآية.

وما أحسن التفسير تعضده الأحاديث الصحاح!

تأسٍّ ورجاء:

قد ثبت في السنة ما يكون من كثرة الجهل وموت السنة وانتشار البدعة[(١)]، وقد أيد ذلك الواقع والمشاهدة.

فإذا كان دعاة العلم والسنة، وخصوم الجهل والبدعة، فلابد أن يكونوا قليلًا في العدد الكثير خصوصًا في مبدإ أمرهم وأول دعوتهم، ولابد أن يلقوا ما يلقون ويقاسوا ما يقاسون.

ومما يثبت قلوبهم في عظيم مواقفهم تأسيهم بالنبي ﷺ الذي جاء وحده بالحق والناس كلهم على الباطل، فمازال يجاهد حتى لقي ربه.

---

[١٢٥] صحيح:

رواه مسلم (٥٢٣) عن أبي هريرة، بلفظ:

«فضلت على الأنبياء بست: أعطيت (وفي رواية بعثت) جوامع الكلم .... وخُتم بي النبيُّون».

(١) انظر: «صحيح البخاري» (٨٠ و٨١)، وصحيح مسلم (٢٦٧١و٢٦٧٢) و«صحيح الترغيب» (٣٧و٥١و١١١) للألباني.

ومما يثبت قلوبهم أيضًا رجاؤهم -إذا أخلصوا النية وأحسنوا الاقتداء- فيما يكون لهم من الأجر العظيم والثواب الجزيل في جهادهم على قلتهم، وفيما يكون لهم من الثواب كذلك فيمن اهتدى بهم، وفيمن بذلوا جهدهم في هدايته، وكانت لهم الرغبة العظيمة في إيصال الخير إليه، وإن لم يرجع إليهم.

* * *

عدم طاعة الكافرين، والجهاد بالقرآن العظيم

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٥٢].

المناسبة:

لما بيَّن له ما خصصه به من الكرامة دعاه إلى مقابلة ذلك بعدم طاعة أهل الكفر والثبات على جهادهم بالقرآن.

المفردات:

الفاء تفريعية.

الطاعة: الامتثال للطلب.

والجهاد: بذل الجهد من ناحيتك في مقابلة من هو باذل جهده في الناحية المقابلة لك، هذا مقتضى صيغة فِعال.

التراكيب:

جهادًا كبيرًا: مصدر مبين للنوع المطلوب بصفته وهي كبيرًا.

المعنى:

لما أكرمناك بعموم رسالتك وختم النبوة بك، فقابل هذه النعمة بإخلاص الطاعة لربك، ولا تطع الكافرين أعداء اللّٰه وأعدائك في أي شيء يدعونك إليه من مقتضيات كفرهم، كالرجوع إليهم، والسكوت عن بعض كفرهم، وابذل كل جهدك في دعوتهم للدين الحق، ومقاومة ما هم عليه من الباطل بالقرآن

العظيم، وجاهدهم بهذا القرآن جهادًا كبيرًا، يتحمل كل ما يأتيك من ناحيتهم من بلاء وإذاية، والصبر عليه والثبات على الدعوة والمقاومة.

تعميم:

كما لا تجوز طاعة الكافرين في شيء مما يمليه عليهم كفرهم، كذلك لا تجوز طاعة العصاة في شيء مما تمليه عليهم معصيتهم، لأن الجميع فيه مخالفة لدين اللّه.

وكما يجاهد أهل الكفر بالقرآن العظيم الجهاد الكبير، كذلك يجاهد به أهل المعصية لأنه كتاب الهداية لكل ضال، والدعوة لكل مرشد.

وفي ذكر الكافرين تنبيه على العصاة، من التنبيه بالأعلى على الأدنى، لاشتراكهم في العلة، وهي المخالفة.

اقتداء:

ما كان للنبي ﷺ ليطيع الكافرين، وإنما جاء هذا النهي تهييجًا له على تمام مخالفتهم ومعاكستهم في جميع مناحي ومظاهر كفرهم، والخطاب وإن كان له، فالحكم شامل لأمته.

فلا يجوز لمسلم أن يطيع كافرًا أو عاصيًا في أي شيء من نواحي الكفر ونواحي المعصية.

وكما أن الجهاد بالقرآن العظيم هو فرض عليه، فكذلك هو فرض على أمته هكذا على الإجمال، وعند التفصيل تجده فرضًا على الدعاة والمرشدين الذين يقومون بهذا الفرض الكفائي على المسلمين.

فالنبي ﷺ قدوة لأمته فيما اشتملت عليه الآية من نهي وأمر.

استدلال:

هذه الآية نص صريح في أن الجهاد في الدعوة إلى اللَّه، وإحقاق الحق من الدِّين، وإبطال الباطل من شبه المشبهين، وضلالات الضالين، وإنكار الجاحدين، هو بالقرآن العظيم.

ففيه بيان العقائد وأدلتها، ورد الشبه عنها.

وفيه بيان الأخلاق: محاسنها ومساويها، وطرق الوصول إلى التحلي بالأولى، والتخلي عن الثانية ومعالجتها.

وفيه أصول الأحكام وعللها.

وهكذا فيه كل ما يحتاج إليه المجاهد به في دين اللَّه.

فيستفاد منها كما يستفاد من آيات أخرى غيرها أن على الدعاة والمرشدين أن تكون دعوتهم وإرشادهم بالقرآن العظيم.

ميزان:

عندما يختلف عليك الدعاة الذين يدَّعي كلٌّ منهم انه يدعوك إلى اللَّه تعالى، فانظر من يدعوك بالقرآن إلى القرآن- ومثله ما صح من السنة لأنها تفسيره وبيانه، فاتَّبعه لأنه هو المتبع للنبي ﷺ في دعوته وجهاده بالقرآن، والممتثل لما دلت عليه أمثال هذه الآية الكريمة من آيات القرآن.

نعمة ومنقبة:

قد سمَّى اللَّه تعالى الجهاد بالقرآن جهادًا كبيرًا، وفي هذا منقبة كبرى

للقائمين بالدعوة إلى اللَّه بالقرآن العظيم، وفي ذلك نعمة عظيمة من اللَّه عليهم حيث يسَّرهم لهذا الجهاد حتى ليصح أن يسموا بهذا الاسم الشريف (مجاهدون)، فحقٌّ عليهم أن يقدِّروا هذه النعمة، ويؤدوا شكرها بالقول والعمل، والإخلاص والثبات، والصبر واليقين.

جعلنا اللَّه والمسلمين منهم، وحشرنا في زمرتهم أجمعين[1].

* * *

(١) الشهاب (ج٤، م٨) غرة ذي الحجة ١٣٥٠هـ- أبريل ١٩٣٢م.

تعاقب الليل والنهار للتفكير والعمل

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفُرقان: الآية ٦٢] .

المناسبة:

لما سأل المشركون بقولهم: ﴿وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفُرقان: الآية ٦٠] ؟ كما يسألون عن المجهول، ذكر لهم القرآن ما يعرفهم به من عظيم آياته وجلائل إنعاماته، التي هي من آثار رحمته، فذكر لهم بروج السماء والشمس والقمر، ثم ذكر لهم تعاقب الليل والنهار.

المفردات:

خلفة: يقولون: خلفتِ الفاكهةُ بعضُها بعضًا خَلَفًا- بالتحريك- وخلفة إذا صارت خلفًا من الأولى.

وخلف زيدٌ عمرًا يخلفه إذا جاء بعده في مكانه.

فالخِلفة مصدر، وهو لما كان على وزن فِعلة دل على الهيئة كالرِّكبة بمعنى الهيئة من الركوب.

فالخِلفة إذًا هيئة من الخلوف، فإذا قلتَ: خلفه خَلفًا أو خلوفًا، فقد أردت مطلق الحدث، وإذا قلتَ: خلفه خِلفة، فقد أردت هيأة خاصة من الخلوف.

«التذكُّر»: قبول التذكير، فإنَّ مخلوقاتِ اللَّه مُذَكِّراتٌ للعبد بربه،

فَتَذَكُّرُه: هو قبوله ذلك التذكير واعتباره واتعاظه به.

«الشكور»: مصدر شكر بمعنى القيام بعبادته وطاعته لأجل نعمه.

«أو»: للتفصيل والتنويع؛ لأن المستفيدين من اختلاف الليل والنهار هم المتذكرون والشاكرون، فلا تمنع من أن يكون الشخص الواحد متذكرًا شاكرًا في آنٍ واحدٍ.

التراكيب:

خِلفة مفعول ثان لجعل على معنى جعلهما ذوي خلفة.

وفي الإخبار تقول: الليل والنهار خلفة، والرجلان خلفة على هذا المعنى، أي: يخلف أحدهما الآخر، وكان مفردًا عن الاثنين، لأنه مصدر.

والجار في (لمن أراد) يتعلق بجعل. وكان الجعل لهما لأنهما المستفيدان منه.

ولم يكرر الاسم الموصول؛ لأن الشخص الواحد يمكن أن يتصف بالصلتين معًا، وكرر فعل الإرادة؛ لأنها لابد منها في التذكر وفي الشكر.

وقيل: «أن يتذكَّر». ليفيد المضارع الحدوث والتجدد، فإن الغفلة مستولية على الإنسان، والآيات المرئية ما تزال تحدث له التذكر وتجدد له.

وقيل (شكورًا) لمناسبة رؤوس الآي.

المعنى:

يقول تعالى: وهو الذي جعل الليل والنهار ووضعهما يختلفان ويتعاقبان على هيأة مخصوصة في التخالف والتعاقب ليستفيد مِنْ ذلك مِنَ العباد مَنْ أراد

أن يتذكر، فيعتبر بما فيهما من انتقال وتغير ونظام وتقدير، ويستدل بذلك على وجود خالقهما وقدرته وإرادته وعلمه وحكمته ورحمته بمخلوقاته، أو أراد أن يشكر فيقوم بعبادة خالقه المنعم عليه بجلائل النعم ودقائقها التي منها هذا الاختلاف والتعاقب بين هذين الوقتين الذي لا يصلح حال الإنسان، ولا تنتظم أعماله، ولا يستقيم عمرانه إلَّا به.

فقه لغوي:

اختيرت لفظة الخِلفة هنا لدلالتها على الهيئة، فتكون منبهة على هيأة هذا الاختلاف بالطول والقصر المختلفين في جهات من الأرض، وذلك منبه على أسباب هذا الاختلاف من وضع جرم الأرض وجرم الشمس، وذلك كله من آيات اللَّه الدالة عليه.

وبتلك الهيأة من الاختلاف المقدر المنظم عظمت النعمة على البشر، وشملتهم الرحمة، فكانت هذه اللفظة الواحدة منبهة على ما في اختلاف الليل والنهار من آية دالة، ومن نعمة عامة، وهكذا جميع ألفاظ القرآن في انتقائها لمواضعها.

فقه شرعي:

لما كان جعل الليل والنهار خِلفةً لأجل التذكُّر والعمل، كان كل واحد منهما صالحًا للعمل الذي يعمل فيه صاحبه، فمن فاته عمل بالليل أتى به في النهار، ومن فاته عمل بالنهار أتى به في الليل، وهذا إذا كان من العادات فهو على سبيل التدارك، وإذا كان من العبادات فهو على سبيل القضاء.

وقد روى ابن جرير بسند حسن أن رجلًا جاء إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه

فقال: فاتتني الصلاة الليلة. فقال: أدرك ما فاتك من ليلتها في نهارك، فإن اللَّه جعل الليل والنهار خِلفة لمن أراد أن يذكَّر أو أراد شكورًا[١٢٦].

ومن هذا ما رواه مسلم والأربعة عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول اللَّه ﷺ:

«من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كُتب له كأنما قرأه من الليل»[١٢٧].

فقه قرآني:

حياة الإنسان من بدايتها إلى نهايتها مبنية على هذه الأركان الثلاثة: الإرادة، والفكر، والعمل.

وهي المذكورات في هذه الآية؛ لأن التذكر بالتفكر، والشكر بالعمل. فاستفادة الإنسان مما خلقه اللَّه له وجعله لأجله لا تكون إلَّا بهذه الثلاثة.

وهذه الثلاثة متوقفة على ثلاثة أخرى لابد للإنسان منها: فالعمل متوقف

---

[١٢٦] ضعيف:

رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٣٠) قال: حدثنا ابن حميد قال: ثنا يعقوب القُمِّي عن حفص بن حُميد عن شِمر بن عطية عن شقيق قال: جاء رجل إلى عمر .... فذكره.

وهذا إسناد حسن -كما قال المصنِّف- لولا أن شيخ الطبري: ابن حُميد -وهو محمد بن حُميد الرازي- ضعيف، بل اتهمه بعضهم كأبي زُرعة وأبي حاتم والنسائي وغيرهم.

وشقيق هو ابن سلمة، ويعقوب هو ابن عبد اللَّه بن سعد الأشعري، واللَّه تعالى أعلم.

[١٢٧] صحيح:

رواه مسلم(٧٤٧) وأبو داود(١٣٠٩) والترمذي(٥٨٠) وقال: «حسن صحيح» والنسائي(٣/ ٢٥٩و٢٦٠) والدارمي(١/ ٣٤٦) وابن ماجه(١٣٤٣) وأحمد(١/ ٣٢و٥٣) عن عمر مرفوعًا.

على البدن، والفكر متوقف على العقل، والإرادة متوقفة على الخلق.

فالتفكير الصحيح من العقل الصحيح، والإرادة القوية من الخلق المتين، والعلم المفيد من البدن السليم.

فلهذا كان الإنسانُ مأمورًا بالمحافظة على هذه الثلاثة: عقله وخلقه وبدنه، ودفع المضار عنها، فيثقف عقله بالعلم، ويقوّم أخلاقه بالسلوك النبوي، ويقوي بدنه بتنظيم الغذاء وتوقي الأذى والتريض على العمل.

موعظة:

قال الإمام ابن العربي: سمعتُ ذانشمند[1] الأكبر- يعني: الغزَّالي- يقول:

«إنَّ اللَّه خلقَ العبدَ حيًّا عالمًا وبذلك كماله، وسلَّط عليه آفةَ النوم وضرورة الحدث ونقصان الخلقة؛ إذ الكمال للأوَّلِ الخالق، فما أمكن الرجل من دفع النوم بقلة الأكل والسهر في الطاعة فليفعل.

ومن الغبن العظيم أن يعيش الرجلُ ستِّينَ سنةً ينام ليلَها فيذهب النصفُ من عمره لغوًا. وينام نحو سدس النهار راحةً فيذهب له ثلثاه، ويبقى له من العمر عشرون سنة.

ومن الجهالة والسفاهة أن يتلف الرجلُ ثلثي عمره في لذَّةٍ فانية ولا يتلف عمره سهرة في لذة باقية عند الغني الوفي الذي ليس بعديم ولا ظلوم»[2]. اهـ.

---

(١) في مطبوعة «الأحكام»: ذا الشهيد!

(٢) أحكام القرآن (٣/ ١٤٢٨).

سلوك:

حافظ على العبادات في أوقاتها، واقض ما فاتك[1]، واربط أعمالك بأوقاتها، وتدارك ما فاتك، ووجِّه قصدك إلى ما ترى من آيات ا للَّه متفكرًا، ووجِّه قصدك في جميع أعمالك للَّه سامعًا مطيعًا؛ تكن عبدًا ذاكرًا شاكرًا سعيدًا- إن شاء اللَّه- في الدارين.

وفقنا اللَّه إلى ذلك والمسلمين أجمعين[2].

* * *

---

(١) قضاء ما فات مشروع للمعذور، لا المفرط المتعمد، كما حققه شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية- رحمهما اللَّه تعالى- فليراجع من شاء التوسع في المسألة وزيادة الاطلاع، ما سطره الأخير منهما في مساجلة علمية نافعة ومناظرة فقهية رائعة في كتابيه: «مدارج السالكين» (١/ ٣٧٥- ٣٨٦) و «الصلاة وحكم تاركها» (ص٧٢- ١٠٩).

(٢) الشهاب (ج٥، م٨) غرة محرم ١٣٥١هـ - ماي ١٩٣٢م.

القرآن يصف عباد الرحمن

الصفة الأولى والثانية

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفُرقان: الآية ٦٣] .

المناسبة:

لما تجاهل المشركون الرحمن، واستكبروا عن السجود له، عرَّفهم القرآن بالرحمن، بخلقه وتدبيره وإنعامه، كما مضى في الآيات المتقدمة .

ثم عرَّفهم بعباده الذين عرفوه بذلك، فآمنوا به، وخضعوا له، بما اشتملت عليه هذه الآيات من صفاتهم .

وكما كانت مخلوقاتُ اللَّهِ المذكورةُ سابقًا دالةً عليه، ومعرفةً به، بما فيها من آثار قدرته وآثار رحمته؛ كذلك كان عباده المذكورون أدلة عليه، ومعرِّفين به، بأقوالهم وأفعالهم وهديهم وسلوكهم، ومظاهر آثار رحمة اللَّه عليهم، فذُكِروا بعد ذكر تلك المخلوقات، وذُكِرتْ هي قبلهم لأنها كانت أدلة لهم، والدليل سابق على المستدل سبق المستفاد منه على المستفيد .

وفي تعريف القرآن لعباد الرحمن بعد تعريفه بالرحمن تشريف كبير لهم، وتبكيت لأولئك المتجاهلين المتكبرين .

ووجه آخر في المناسبة، وهو أنه لما ذكر التذكر والشكر في الليل والنهار في الآية المتقدمة، ذكر صفات المتذكرين الشاكرين، وما أثمره لهم تذكرهم وشكرهم، ترغيبًا في التذكر والشكر.

وقولهم للجاهلين سلامًا من مقتضى هونهم ورفقهم، فلذلك قرن به وعطف عليه.

المفردات:

عباد: جمع عبد، بمعنى المملوك الذليل الخاضع، أو جمع عابد، كصاحب وصحاب، وتاجر وتجار، بمعنى المطيع والقائم بما يرضي ربه، والأول هنا أظهر.

الرحمن: المنعم[1] الذي تتجد نعمه في كل آن.

يمشون على الأرض: يتنقلون عليها.

هونًا: هان الأمر يهون هونًا بمعنى سهل، ومنه ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [مريَم: الآية ٩]. أي: سهل. وشيء هَيِّنٌ على وزن فيعل أي: سهل، ويقال: هين بالتخفيف.

ومن صفات المؤمن أنه هيِّن ليِّن، من الهون بمعنى: السهولة في أخلاقه ومعاملته.

وفي «مسند أحمد» عن ابن مسعود مرفوعًا: «**حُرِّمَ على النار كلُّ هَيِّنٍ لَيِّنٍ**

(١) تقدم (ص١٥-١٦) أن هذا من تأويل الأشاعرة المخالف لما كان عليه السلف، فانظر ما علقناه هناك، واللَّه الموفق لا ربَّ سواه ولا إله غيره.

سَهْلٍ قَرِيبٍ من الناس»[١٢٨].

وهو على ما فسرنا من السهولة في أخلاقه ومعاملته، وذلك هو الذي يقرِّبه من الناس.

وفُسِّر الهون في الآية بالحلم والوقار والسكينة والتواضع والطاعة، وكلها ترجع إلى السهولة واللين.

وفُسِّر بعدم الفساد في الأرض وعدم التجبر والتكبر؛ لأنها كلها أضداد للسهولة واللين.

خاطبهم: كالَمَهم.

الجاهلون: السفهاء القليلو الأدب، السيئو الأخلاق.

---

[١٢٨] **صحيح لغيره:**

أخرجه أحمد (١/ ٤١٥) من طريق الأودي عن ابن مسعود مرفوعًا.

وهذا إسناد ضعيف: الأودي - واسمه عبد اللّه بن عمرو - مجهول ولم يوثقه سوى ابن حبان على قاعدته في توثيق المجهولين.

ومن طريقه أخرجه الترمذي (٢٤٩٣) بنحوه وابن حبان (١٠٩٦و١٠٩٧) وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

وللحديث شواهد يتقوى بها:

١- عن معيقيب: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٣٥٢/ ٨٣٢) و«الأوسط» (٩/ ٢٠٦/ ٨٤٤٧) وفيه أبو أمية بن يعلى الثقفي وهو ضعيف كما في «مجمع الزوائد» (٤/ ٧٥) للهيثمي.

٢- عن أبي هريرة: أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥٧٢١) وفيه من لا يعرف كما قال الهيثمي.

وأخرجه الحاكم (١/ ١٢٦) من طريق آخر وقال:

«صحيح على شرط مسلم»! ووافقه الذهبي! وأقره المنذري في «الترغيب»!

٣- عن أنس: أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٨٢٥٢) وفيه الحارث بن عُبيدة وهو ضعيف. قاله الهيثمي.

والجهل ضد العلم، ويطلق بمعنى السفه والطيش؛ لأنهما عنه ينشآن، ومنه قول الشاعر:

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهلَ فوقَ جهلِ الجاهلينا[1]

ومنه الجاهلون في الآية.

سلامًا: السلام كالسلامة، معناهما التعري من الآفات والمكروهات.

التراكيب:

وُصِلَتِ الجملةُ بما قبلها بالواو لاشتراكهما في القصد، وهو التعريف بالرحمن وبعباده.

وعباد مبتدأ، الذين خبر، وأضاف العباد للرحمن تخصيصًا لهم وتفضيلًا وتقريبًا، وفيه تعريض بأولئك المتجاهلين المتكبرين المبعدين.

وهونًا منصوبًا على أنه مفعول مطلق، والتقدير مشيًا هونًا، أو على أنه حال من فاعل يمشون أي: هينين، ومجيء المصدر حالًا كثيرٌ، ولمصدريته أفرد، والموصوف جمع، نظير: الزيدون عدل.

ويمشون على الأرض هونًا: تركيب كنائي أُريد به معناه ولازم معناه، فهم يمشون هينين برفق وتثبت، لا يضربون بأقدامهم، ولا يخفقون بنعالهم أشرًا وبطرًا.

هذا أصل المعنى وهو مراد، ومراد أيضًا لازمه، وهو سهولتهم،

---

(١) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم. انظر «شعره» (ص٤٠).

ومعنى قوله: (فنجهل فوق جهل الجاهلينا): أي فنهلكه ونعاقبه بما هو أعظم من جهله.

وتواضعهم، وعدم تكبرهم، ورفقهم في الأمور، وبعدهم عن الإفساد.

ومراد لازم آخر أيضًا، وهو سيرهم في الحياة، وتصرفهم في جميع الأمور، ومعاملتهم للناس، فإذا كانوا أهل رفق وسهولة في مشيهم في الأرض، فكذلك هم أهل رفق وسهولة في الأمور الأخرى مما ذكرنا؛ لأن الرفق والسهولة خُلُقٌ فيهم، فكما هو في المشي هو في غيره.

وكانت الصلة بالمضارع ليفيد التجدد، فإن المشي في الأرض ضروري للإنسان.

وكان المعطوف على الصلة بصورة الشرط؛ لأن خطاب الجاهلين لهم ليس مما يكون دائمًا.

وكان التعليق بإذا لأن مخاطبة الجاهلين لهم بالسوء أمر محقق، ومتى سلم أهل العلم والدين من الجاهلين؟

ولم يذكر ما يخاطبهم به الجاهلون للعلم بأن خطاب الجاهل- أي: السفيه- لا يكون إلا سوءًا مما يمليه عليه جهله وسفهه.

ونصب سلامًا على أنه مفعول مطلق، والتقدير: قالوا قولًا سلامًا. أي: ذا سلام، فيشمل كل قول فيه سلامة من الأذى والمكروه، كسلام عليكم، ويغفر اللَّه لكم، وسامحكم اللَّه، ونحو ذلك.

أو نصب على أنه مفعول به، أي: قالوا هذا اللفظ سلامًا نفسه.

المعنى:

يقول تعالى: وعباد الرحمن ومماليكه القائمون بحق العبودية له هم أهل

الرفق والسهولة، الذين يمشون على الأرض هينين في مشيهم، وفي معالجتهم لشؤون الحياة، ومعاملتهم للناس لحلمهم وتواضعهم، غير مستكبرين، ولا متجبرين، ولا ساعين في الأرض بالفساد.

وإذا خاطبهم السفهاء بما لا ينبغي من الخطاب قابلوهم بالحلم، وقالوا لهم: سلامًا؛ لأنهم سلموا من الجهل، فسلم المخاطب لهم من أن يجهلوا عليه ولو جهل، أو قالوا لهم من الكلام ما فيه سلامة من الأذى والمكروه.

الأحكام:

في الآية استحباب الرفق في المشي، وكراهية العنف والاضطراب، ومن العنف الضرب بالرجل والخفق بالنعل، فإذا كانا بعجب وخيلاء فهو حرام.

وفيها الإغضاء عن الجاهل، ومقابلة كلمته السيئة بالكلام الحسن، وكراهة مجاراته في خطابه ومماثلته، وإذا كان في ذلك فتنة أو مفسدة محققة كان حرامًا.

تمييز:

ليس من الهون في المشي التثاقل والتماوت فيه.

وروي أن عمر بن الخطاب ﵁ قال لجماعة رآهم كذلك: «لا تميتوا علينا ديننا أماتكم اللَّه»[١٢٩].

---

[١٢٩] ؟ :

لم أقف عليه مسندًا بعد البحث الحثيث عنه في مظانه.

وقد أورده أبو العباس المبرد في «الكامل» (٢/ ١٢٣) بلا إسناد، مصدرًا إياه بصيغة التمريض، وعنه نقله السيوطي في «الأمر بالاتباع» (ص١٩٦)، واللَّه أعلم.

وإن عائشة رضي الله عنها رأت قومًا يتماوتون فسألت عنهم، فقيل لها: هؤلاء قوم من القراء. فقالت: لقد كان عمر من القراء، وكان إذا مشى أسرع، وإذا تكلم أسمع، وإذا ضرب أوجع[١٣٠].

وكان مشيه رضي الله عنه إلى السرعة خلقةً لا تكلفًا، والخير في الوسط.

وليس هون المشي وحده يعرفك بأن صاحبه من عباد الرحمن، فَرُبَّ ماشٍ هونًا رويدًا وهو ذئب أطلس(١)، ولكن بالهون في المشي، وبما ذكرنا في فصل التراكيب والمعنى من لوازمه.

بيان وردّ:

اشتملت الآية على بيان الأدب في معاملة الجاهلين من أفراد الناس، سواء أكانوا مسلمين أم غيرهم.

وما اشتملت عليه من الأدب قد جاء في آيات كثيرة مثل: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ

---

[١٣٠] **ضعيف جدًا:**

أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٢٩٠) قال: أخبرنا محمد بن عمر الأسلمي قال: أخبرنا عمر بن سليمان بن أبي حثمة عن أبيه قال:

قالت الشفاء ابنة عبد اللَّه - ورأت فتيانًا يقصدون في المشي ويتكلمون رويدًا - فقالت: ما هذا؟ فقالوا: نساك! فقالت:

كان - واللَّهِ - عمر، إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع، وهو الناسك حقًّا.

والأسلمي هو الواقدي، متهم بالكذب.

وفي «التقريب»: «متروك مع سعة علمه».

والأثر ذكره في «الكامل» من طريق عائشة بلا إسناد، ثم السيوطي أيضًا. والعلم عند اللَّه.

(١) هو الذئب الأمعط، في لونه غبرة إلى السواد. «القاموس المحيط».

ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٩٩] . و﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: الآية ٥٥] .

فهو أدب مشروع مؤكد، وحكم دائم محكم، وهو في معاملات الأفراد كما ترى .

فلا ينافي ما شرع في الحرب عند وجود أسبابها، وتوفر شروطها بين الأمم والجماعات، وهي من الأمور العامة- كما ترى- .

فبطل قول من زعم أن هذه الآية بالنسبة لغير المسلم منسوخة بآية السيف؛ لأن هذه الآية ثابت حكمها في حال، وآية السيف ثابت حكمها في حال أخرى، فلا تنسخ إحداهما الأخرى .

وما أكثر ما قُتلت أحكامٌ بآية السيف هذه، وهي عند التحقيق غير معارضة لها لمباينة حالها لحالها .

تمثيل واستدلال:

جاء في «الصحيح» من طرق مجموع ألفاظها : أنَّ رهطًا من اليهود دخلوا على النبي ﷺ فقالوا : السام عليكم- والسام الموت- ففهمتها عائشة رضي الله عنها فقالت : وعليكم السام واللعنة وغضب اللَّه عليكم! فقال لها رسول اللَّه ﷺ :

«مهلًا يا عائشة! عليك بالرفق، وإياك والعنف والفحش، إنَّ اللَّه يحب الرفق في الأمور كلها» .

فقالت له عائشة : أوَلم تسمع ما قالوا؟ فقال لها : **«أولم تسمعي ما قلتُ**

رددتُ عليهم. قد قلتُ: «وعليكم». فيستجاب لي فيهم - لأنه دعاء بحق-، ولا يستجاب لهم في - لأنه دعاء بباطل وظلم-»[١٣١].

فقد خاطبه هؤلاء الجاهلون بالسوء، فقال لهم كلمة سالمة من القبح، ليس فيها لفظ الإذاية وهو السام، بعيدة عن الإيحاش، خالصة للرفق، فهي من القول السلام، أي ذي السلام من مقتضى الآية على الوجه الأوَّل من وجهيها.

ففي الحديث مثال لقول السلام في خطاب الجاهل، ودليل على عموم الحكم وأحكامه.

سؤال وجوابه:

على الوجه الثاني في الآية، وهو أنه يقول للجاهل: سلامًا، يقال: هل يسلِّم عليه إذا كان كافرًا؟

فيقال: نعم، كما قال إبراهيم لأبيه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ﴾ [مريم: الآية ٤٧] وقد قال اللَّه تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [المُمتحنَة: الآية ٤]. ولم يستثن إلا قوله لأبيه: ﴿لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ﴾ [المُمتحَنة: الآية ٤][1].

---

[١٣١] صحيح:

تقدم برقم (٨٤).

(١) قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في «تفسيره» (٦/ ٦٢٥):

«أي لكم في إبراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسون بها إلا في استغفار إبراهيم لأبيه، فإنه إنما كان عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو للَّه تبرأ منه، وذلك أن بعض المؤمنين كانوا يدعون لآبائهم الذين ماتوا على الشرك ويستغفرون لهم ويقولون: إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه، فأنزل اللَّه عَجَّلَ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤]. وانظر أيضًا (٤/ ٤٦١) منه.

نعم، هو سلام موادعة ومتاركة، لا سلام تحية وكرامة[1].

لطيفة تاريخية:

قالوا: إنَّ إبراهيم بن المهدي العباسي كان منحرفًا عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فرآه في النوم قد تقدمه لعبور قنطرة، فقال له إبراهيم: إنما تدَّعي هذا الأمر- يعني: الخلافة- بامرأة- يعني: فاطمة رضي الله عنها-، ونحن أحق به منك. وحكى إبراهيمُ رؤياه للمأمون، وقال له: فما رأيت له بلاغة في الجواب كما يذكر عنه، فقال له المأمون: فما أجابك به؟ قال: كان يقول لي: «سلامًا سلامًا»، فنبهه المأمون على هذه الآية، وقال: يا عمّ! قد أجابك بأبلغ جواب، فخزي إبراهيم واستحيى. اهـ.

فرضي اللَّهُ عن الإمام الهاشمي! ما أبلغه حيًّا وميِّتًا!

توجيه وسلوك:

القول السلام محمود ومطلوب في كل حال، وإنما خصت حالة خطاب الجاهل؛ لأنها الحالة التي تثور فيها ثائرة الغضب بما يكون من سفهه ومهاترته.

فعلى المؤمن أن يكون حاضر البال بهذه الآية عندما تسوق إليه الأقدارُ جاهلًا فيخاطبه بما لا يرضيه، حتى يسلم من شره ويكسر من شرته، فيسلم له عرضه ومروءته ودينه، ويسلم ذلك الجاهل- أيضًا- من اللجاج في الشر

---

(١) لثبوت النهي عن ابتداء الكافر بالسلام، كما في حديث أبي هريرة مرفوعًا: «لا تبدءوا اليهود ولا النصارى بالسلام، فإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه». أخرجه مسلم (٢١٦٧) وغيره.

والتمادي فيه.

فيكون المؤمن بقوله السلام وتأدبه بأدب القرآن قد حصل السلامة للجميع، و أعظم به من فضلٍ وأجرٍ في الدنيا والدين.

وفقنا اللَّه لذلك والمسلمين أجمعين[١].

* * *

(١) الشهاب (ج٦، م٨)، غرة صفر ١٣٥١هـ - جوان ١٩٣٢م.

الصفة الثالثة

﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ [الفُرقان: الآية ٦٤] .

المناسبة:

لما ذكر فيما تقدم سلوكهم مع الخلق، ذكر في هذه الآية سلوكهم في القيام بعبادة الحق. وفيما تقدم بيان حالهم عند اختلاطهم بالعباد، وفي هذه بيان حالهم عند تفردهم لرب العباد.

المفردات:

يَبِيْتُونَ: من البيتوتة وهي أن يدركك الليل، نِمْتَ أو لم تنم، ويقابلها «الظلول» وهو أن يدركك النهار.

«السُّجَّد»: جمع ساجد.

و«القيام»: جمع قائم، وهو من الأوزان التي يشترك فيها المصدر والجمع.

التراكيب:

«الذين»: عطف على الخبر الأول، وأعيد لفظ «الذين» لاستقلال الحالة الثانية عن الأولى.

وقُدِّم الجار ليفيد تخصيص عبادتهم بربهم، ويفيد الكلامِ عبادتهم وإخلاصهم.

وقدِّم (سُجَّدًا) لأن السجود أقرب أحوال العبد للرب لحديث: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»[١٣٢].

ووقع (قيامًا) في موقعه مناسبًا للفاصلة.

المعنى:

ومن صفات عباد الرحمن أنهم يحيون الليل، فيبيتون يصلُّون لربهم يراوحون بين السجود والقيام.

بيان وترغيب:

هذه الآية من آيات الحث على قيام الليل مثل قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السَّجدَة: الآية ١٦].

وقد بيَّنت السنة المطهرة مقداره.

فثبت في «الموطأ» من طريق أبي سلمة عن عائشة- رضي اللَّه تعالى عنها- «أن رسول اللَّه ﷺ ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة، يصلي أربعًا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلِّي أربعًا لا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلِّي ثلاثًا»[١٣٣].

---

[١٣٢] صحيح:

أخرجه مسلم (٤٨٢) وأبو داود (٨٧٠) والنسائي (٢/ ٢٢٦) وأحمد (٢/ ٤٢١) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا، وزادوا كلهم في آخره:

«فأكثروا الدعاء».

[١٣٣] صحيح:

رواه الإمام مالك في «الموطأ» (١/ ٢٤٦-٢٤٧/ ٢٦٢) ومن طريقه البخاري (١١٤٧) ومسلم (٧٣٨) وأبو داود (١٣٣٧) والترمذي (٤٣٩) وقال: «حسن صحيح» والنسائي (٣/ ٢٣٤) وأحمد =

والسلام بعد كل ركعتين لحديث: «**صلاة الليل مثنى**»[١٣٤].

وثبت عند مسلم من طريق سعد بن هشام عنها أنه «كان يفتتح صلاته بالليل بركعتين خفيفتين، فتلك ثلاث عشرة»[١٣٥].

وقد ثبت ذلك في «الموطأ» من طريق عروة عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يصلي بالليل ثلاث عشرة ركعة»[١٣٦].

= (٦/ ٣٦و٧٣و١٠٤) عن عائشة رضي الله عنها.

[١٣٤] صحيح:

رواه البخاري (٩٩٠) عن عبد الله بن يوسف، ومسلم (٧٤٩) عن يحيى بن يحيى، وأبو داود (١٣٢٢) عن القعنبي، والنسائي في «المجتبى» (٣/ ٢٣٣) وفي «الكبرى» (١٣٩٩) عن ابن القاسم، والدارمي (١/ ٣٤٠و٣٧٢) عن خالد بن مخلد، والبيهقي (٣/ ٢١) عن الشافعي ويحيى بن يحيى والطحاوي في «شرح المعاني» (١/ ٢٧٨) عن ابن وهب، سبعتهم عن مالك - وهذا في «الموطأ» (١/ ٢٥٢-٢٥٣/ ٢٦٦) عن نافع وعبد الله بن دينار - ولم يذكر الدارمي عبد الله بن دينار - عن عبد الله بن عمر أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ عن صلاة الليل، فقال رسول الله ﷺ:

«صلاة الليل مثنى مثنى: فإذا خشي أحدكم الصبح صلى ركعة واحدة توتر له ما قد صلى».

وللحديث طرق أخرى عن ابن عمر عند البخاري (٩٩٣و٩٩٥و ١١٣٧) ومسلم (١/ ٥١٦-٥١٧و٥١٩) والترمذي (٤٣٧) والنسائي (٣/ ٢٣٢-٢٣٣و٢٣٣) وابن ماجه (١١٧٤ و١٣١٨ و١٣٢٠) وأحمد (٢/ ٥و٩و١٠و٢٦و٣٠و. . .).

وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

[١٣٥] صحيح:

رواه مسلم (٧٦٧) من طريق سعد بن هشام عن عائشة قالت:

«كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل ليصلي، افتتح صلاته بركعتين خفيفتين».

[١٣٦] صحيح:

رواه الإمام مالك في «الموطأ» (١/ ٢٤٧/ ٢٦٣) عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة.

ومن طريق مالك أخرجه البخاري (١١٧٠).

وأخرجه مسلم (٧٣٧) من طريق هشام بن عروة به.

وهذا هو الغالب من أحواله.

وقد كان يصلي أقل منه في بعض الأحوال.

فقد ثبت عند البخاري من طريق مسروق عنها: «أن صلاته ﷺ بالليل سبع وتسع وإحدى عشرة سوى ركعتي الفجر»[١٣٧].

ومثل ما جاء عن عائشة من انتهاء ركعاته إلى ثلاث عشرة جاء في «الموطأ» في حديث ابن عباس[١٣٨]، وجاء فيه- أيضًا- من حديث زيد بن خالد الجهني[١٣٩].

وفي هذه السُّنَّة العملية الثابتة بيانٌ للقدر الأكمل الذي يكون به العبد ممن يصدق عليهم هذا الوصف من صفات عباد الرحمن.

* * *

---

[١٣٧] صحيح:

رواه البخاري (١١٣٩) عن مسروق قال: سألت عائشة رضي الله عنها عن صلاة رسول اللَّه ﷺ بالليل، فقالت: سبعٌ و... الحديث.

[١٣٨] صحيح:

رواه مالك (١/ ٢٤٨-٢٥٠/ ٢٦٤) وكذا البخاري (١١٣٨) ومسلم (٧٦٣و٧٦٤) من حديث ابن عباس.

[١٣٩] صحيح:

رواه مالك (١/ ٢٥١-٢٥٢/ ٢٦٥) ومن طريقه رواه مسلم (٧٦٥) عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه.

الصفة الرابعة

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان، الآيات: ٦٥، ٦٦].

المناسبة:

لما ذكر حسن سلوكهم مع الخلق واجتهادهم في عبادة الحق؛ ذكر خوفهم من ربهم واعتمادهم عليه في نجاتهم وعدم اغترارهم بأعمالهم، فهم يأتون ما يأتون من محاسن الأعمال، ولا يعتمدون إلَّا على الكبير المتعال.

المفردات:

«الغرام»: مادة (غ ر م) تدور على معنى الملازمة مع الثقل والشدة، ولذا فسر «الغرام» بالشر وبالعذاب وبالهلاك الملازم.

ساءت: بمعنى قبحت، مثل بئس لإنشاء الذم.

«المستقر»: محل الاستقرار، أي: الثبوت.

و«المقام»: محل الإقامة، أي: البقاء.

التراكيب:

(ساءت) فاعله الضمير المخصوص بالذم.

و(مستقرًّا ومقامًا) تمييز مفسر للضمير.

وجملة (إن عذابها) تعليل للجملة الدعائية، وفصلت عنها لكمال

الانقطاع بينهما، لإنشائية الأولى وخبرية الثانية.

وجملة إنها ساءت مؤكدة لمضمون الجملة قبلها مع اختلاف في المعنى، فإن ما أفادته الأولى من فداحة عذابها وملازمته، أكدته الثانية بما أفاده من مقامه ومستقرها، ففصلت عنها لما بينهما من كمال الاتصال نظير ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢]. والتأكيد فيهما بإن، لأنه قد لوح وأشير في الكلام السابق إلى هذا الخبر، وشأن السامع لهذا أن يستشرف له استشراف المتردد الطالب، فينزل منزلة المتردد، فيؤكد له الخبر.

ووجه التلويح بهذا الخبر أنه لما سئل صرف عذاب جهنم، كان هذا مشيرًا إلى قبح هذا العذاب وشدته، فهذا نظير ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هُود: الآية ٣٧].

المعنى:

ومن صفاتهم أنهم يدعون اللَّه- تعالى- أن يصرف عنهم عذاب جهنم؛ لأن عذابها عذاب شديد فادح ملح ملازم، ولأنها بئست المستقر الذي يستقر ويثبت فيه، وبئست المقام الذي يقام ويمكث فيه.

رد واستدلال:

زعم قومٌ أنَّ أكمل أحوال العابد أن يعبد اللَّه- تعالى- لا طمعًا في جنته ولا خوفًا من ناره!

وهذه الآية وغيرها ردٌّ قاطعٌ عليهم، ومثلها قول إبراهيم- عليه وعلى آله الصلاة والسلام-: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشُّعَراء: الآية ٨٢].

في نصوص لا تُحصى كثرة.

وزعموا أنَّ كمال التعظيم للَّه ينافيه أن تكون العبادة معها خوف من عقابه أو طمع في ثوابه!

وأخطأوا فيما زعموا فإنَّ العبادة مبناها الخضوع والذل والافتقار والشعور بالحاجة والاضطرار، وإظهار العبد هذه العبودية بأتمها، ومِن أتمِّ مظهرٍ لها أن يخاف ويطمع كما يذل ويخضع.

ففي إظهار كمال نقص العبودية القيام بحق التعظيم والإجلال للربوبية، ولهذا كان الأنبياء- عليهم وآلهم الصلاة والسلام- وهم أشد الخَلق تعظيمًا للَّه، أكثرَهم(1) خوفًا من اللَّه وتعوذًا من عذاب اللَّه وسؤالًا لما عند اللَّه! وكفى بهم حجة وقدوة.

وإن هذه المقالة تكاد تفضي إلى طرح الرجاء والخوف، وعليهما مبنى الأعمال لما فيهما من ظهور العبودية بالذل والاحتياج.

ومن دعاء القنوت الثابت المحفوظ: «**وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك ونخاف عذابك الجد**»[١٤٠].

وهذا ضروري في الدين.

ولكن مثل هذه المقالة إنما يجر إليه الغلو وقلة الفقه في الدين في الكتاب

---

(١) في الأصل: «ومن أكثرهم».

[١٤٠] صحيح:

تقدم برقم (٤٤).

والسنة وما كان عليه هدي السابقين الأولين .

اعتبار ونصيحة:

إنَّ جهنم هي أقبح مستقر وأقبح مقام، وإنَّ الدنيا هي مطية الآخرة، فمن ساء مستقره ومقامه في الدنيا ساء كذلك مستقره ومقامه في الآخرة .

وإن ملازمة العذاب في الآخرة على قدر ملازمة المعاصي في الدنيا ، فمن لازمها بالكفر ومات عليه دامت له تلك الملازمة ، ومن لازمها بالإصرار على الكبائر كانت له على حسب ذلك الملازمة .

فعلى العاقل أن يحسن مقره ومقامه، وأن يجتنب كل موطن تلحقه فيه الملامة، وأن يجتنب مجالس السوء والبدعة، ويلازم مجالس الطاعة والسنة، وأن يسرع بالتوبة مفارقًا الذنوب، وألا يصر على شيء من القبائح والعيوب ، وأن يكون سريع الرجوع إلى اللَّه ولو عظم ذنبه وبلواه ، فاللَّه يحب التوابين ويغفر للأوابين .

جعلنا منهم أجمعين آمين[1] .

* * *

---

(١) الشهاب (ج٩، م٨) غرة جمادى الأولى ١٣٥١هـ - سبتمبر ١٩٣٢م .

أيهما أكمل:
العبادة مع رجاء الثواب وخوف العقاب
أم العبادة دونهما؟[١]

زيادة بيان على قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفُرقان: الآية ٦٥].

قد قال قوم: إن العبادة دون رجاء ثواب ولا خوف عقاب هي أكمل العبادات.

وأنكرنا مقالتهم فيما كتبناه على قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفُرقان: الآية ٦٥]. في الجزء الصادر في غرة جمادى الأولى.

وقلنا في الإنكار عليهم: «وزعموا أن كمال التعظيم للّه ينافيه أن تكون العبادة معها خوف من عقابه أو طمع في ثوابه، وأخطأوا فيما زعموا».

وذكرنا إثر ذلك بعض الأدلة التي اعتمدنا عليها.

وبعد أن مضى على ذلك ثلاثة أشهر كاملة نشر الشيخ المولود الحافظي[٢]

---

(١) وفيه رد على مقال الشيخ الحافظي المدرج في جريدة (البلاغ) منذ بضعة أسابيع. (الشهاب).

(٢) هو الشيخ المولود بن الصديق سحابي الحافظي، الفلكي الأزهري، عالم فقيه، له مقالات قيّمة منشورة في جريدة ومجلة «الشهاب» وقد نشبت بينه وبين العلماء المصلحين أمثال المشايخ: مبارك=

مقالًا ردًّا علينا دون أن يذكر جميع أدلتنا، ودون أن يتعرض لنقضها في سندها أو متنها، أو عدم انطباقها أو إفادتها لما سيقت لإفادته، ودون أن يعارضها بمثلها في الرتبة والدلالة. وأطال بما بعضه خارج عن محل النزاع، وبعضه هو نفس الدعوى المحتاجة إلى الاستدلال.

فرأينا إثر اطلاعنا على مقاله أن نعود في هذا الجزء لذكر أدلتنا التي اعتمدنا عليها فيما اخترناه من أن وضع العبادة الشرعية على رجاء الثواب وخوف العقاب، وبيان دلالتها على المدعى، ثم نتكلم على بعض ما في مقاله، فنقول:

إن العبادة هي غاية الذل والخضوع مع الشعور بغاية الضعف والافتقار، ومن مقتضى الضعف أن يخاف ويوجل، ومن مقتضى الافتقار أن يرجو ويطمع.

فخوف العبد من عقاب ربه هو من مقتضى اعترافه بضعفه وقوة ربه وشهوده لعزته وقهره وعموم تصرفه في خلقه، وأنه لا معقب لحكمه، وأنه لا يؤمن من

= الميلي، والعربي التبسي، وأبي يعلى الزواوي، معارك قلمية، وردود علمية ومساجلات فقهية.
وكان أحد أعضاء «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» عند تأسيسها سنة ١٩٣١م، ولم يمض عام حتى انفصل عنها، ليترأس «جمعية علماء السنة!» التي تأسست ضرارًا، وأصدر جريدة «الإخلاص» لسان حالها.
من مؤلفاته «مثلث الربع المجيب» في الفلك وعلم الهيئة. توفي رَحِمَهُ اللَّهُ سنة ١٩٤٨م.
انظر: «من أعلام الإصلاح في الجزائر» (١/ ٧٥- ٧٩) لمحمد الحسن فضلاء، و«صراع بين السنة والبدعة» (١/ ٣٢٠، ٣٢٢- ٣٢٤) لأحمد حماني، و«الشيخ المولود الحافظي: حياته وأفكاره» لمحمد الصالح آيت علجت.

مكره.

وطمعه في ثوابه هو من مقتضى اعترافه بحاجته وفقره وغنى ربه وفضله وتصديقه بوعده.

فهو يعبده ويخاف ألا يقبل عبادته ويخشى نقمته. ويعبده ويرجو رحمته وينتظر مثوبته.

وفي عبادته هذه إظهار لغاية العبودية بنقصها وحاجتها، وقيام بحق التعظيم والإجلال للربوبية، والاعتراف لذلك المقام بالقدرة والعزة والغنى والرحمة والكمال.

فوضعت العبادة في الدين على خوف العقاب ورجاء الثواب لما في ذلك من إظهار غاية عبودية العبد بضعفه وافتقاره أمام ربه الغنيّ الرحيم القوي المتين.

والدليل على هذا ستسمعه من الكتاب والسنة وأقوال السلف.

أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: الآيات ١٥- ١٧].

ووجه الدليل من الآية أن هؤلاء المذكورين فيها هم الكُمَّلُ من عباد اللَّه الصالحين؛ بدليل حديث أبي هريرة رضي الله عنه المرويِّ في «الصحيح» قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم:

«**يقول اللَّه تعالى: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ذخرًا بَلْهَ ما اطلعتم عليه**». ثم قرأ: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السَّجدَة: الآية ١٧] [١٤١].

ومع كمالهم لم تتجرد عبادتهم من الخوف والطمع.

ووجه آخر: هو أن اللَّه- تعالى- ذكر لنا عبادتهم لنعرف العبادة الشرعية كيف تكون، فذكرها مع الخوف والطمع، فعرفنا أن العبادة وضعت في الشرع على ذلك.

ووجه آخر: وهو أنه- تعالى- ذكر لنا صفاتهم وعبادتهم لنقتدي بهم فيها، فعلم أن العبادة التي يدعونا ربنا إليها هي العبادة خوفًا وطمعًا.

ومثل هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ

[١٤١] صحيح:
أخرجه البخاري (٣٢٤٤و٤٧٧٩و٤٧٨٠و٧٤٩٨) ومسلم (٢٨٢٤) والترمذي (٣٢١٠) و (٣٣٠٣) وقال: «حديث حسن صحيح» والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٠٨٥) والدارمي (٢/ ٣٣٥) وابن ماجه (٤٣٢٨) وأحمد (٢/ ٣١٣و٤٣٨و٤٦٦) من حديث أبي هريرة.
وله شاهد من حديث سهل بن سعد الساعدي: أخرجه مسلم (٢٨٢٥).
وآخر من حديث المغيرة بن شعبة: أخرجه مسلم (١٨٩) أيضًا.
وثالث من حديث أبي سعيد الخدري مختصرًا: رواه الطبراني والبزار بإسناد صحيح قاله الحافظ المنذري في «الترغيب»!

ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: الآيات ١٩١-١٩٤].

ووجه الدليل منها كالتي قبلها، وتزيد عليها ببيان صريح دعائهم وطلبهم الوقاية من النار وغفران وتكفير السيئات.

ومثلها قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: الآية ٦٥].

ووجه الدليل منها كالتي قبلها.

ومثلها قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: الآيات ٧-١٠].

ووجه الدليل منها مثل ما تقدم، وتزيد ببيان أن خوف اليوم العبوس لا ينافي الإطعام لوجه الله.

ومثلها قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: الآيات ١٩- ٢٢].

ووجه الدليل- كما تقدم-، وفيها أيضًا بيان أن خوف سوء الحساب لا ينافي الصبر ابتغاء وجه الله.

ومثلها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: الآيات ٥٧- ٦١].

ووجه الدليل ما تقدم، ومعنى الآية أنهم يعطون ما أعطوا من أعمال البر والطاعات وقلوبهم خائفة من أنهم راجعون إلى ربهم فيخافون ألا تُقْبَل منهم.

ففيها بيان أنهم كانوا يعملون راجين قبول الأعمال خائفين من عدم قبولها.

فهؤلاء هم الكُمَّل من عباد اللَّه وهذه هي عبادتهم في صريح هذه الآيات الكريمة التي ذكرت فيها صفاتهم، وكلها بكثرتها وصراحتها دالة دلالة قطعية لما قلناه من أن العبادة الشرعية موضوعة على رجاء الثواب والخوف من العقاب، إذ ذلك هو أظهر مظاهر العبودية بذلِّها وخضوعها وضعفها وحاجتها وفقرها وحالتها المباينة غاية المباينة لمقام الربوبية، مقام ذي الجلال والإكرام.

ولا تجد في القرآن العظيم آيةً واحدةً دالةً دلالة صريحة على ذكر عبادة- هكذا- دون خوف أو طمع.

ونزيد على الآيات المتقدمة آيةً دالةً على حال عبادة المعصومين- عليهم الصلاة والسلام-، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٨٢].

ووجه الدليل من الآية أنَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أخبر عن نفسه بصيغة المضارع

المفيد للتجدد أنه يطمع من اللَّه أن يغفر له خطيئته، فدل ذلك على أنه كان في عبادته طامعًا، ومعلوم أنه معصوم وأنه مؤمَّن من العذاب، وأنَّ ما سمَّاه خطيئة هو بالنسبة إلى مقامه الرفيع من باب «حسنات الأبرار سيئات المقربين»(١).

ومع ذلك كله فالمقصود من الدليل حاصل، وهو أنه خاف المؤاخذة- المؤاخذة اللائقة بمقامه- وطمع في الغفران وكانت عبادته على الطمع والخوف.

ولا يقال أنه كان معلمًا للناس؛ لأنه إخبار عن نفسه، وخبره صدق ثابت، فلابدَّ أن يكون كما أخبر.

وأما السنة: فمنها دعاء القنوت المشهور «**نرجو رحمتك ونخاف عذابك الجد**»[١٤٢].

ووجه الدليل منه أنَّ الصلاةَ أشرفُ أحوالِ العبدِ وأجلّ مقاماته وأعظم عباداته، وقد علم أن يدعو فيها هذا الدعاء الصريح في رجاء الرحمة وخوف العذاب، وما كان ذلك إلَّا لأنَّ العبادة الشرعية موضوعة عليهما.

ومنها حديث: «**وأما السجود فادعوا فيه، فَقَمِنٌ أنْ يُستجاب لكم**»[١٤٣].

---

(١) هذا ليس محفوظًا عمّن قوله حُجَّةٌ، لا عن النبي ﷺ ولا عن أحد من سلف الأمة وأئمتها، وإنما هو كلام لبعض الناس، وله معنى صحيح، وقد يحمل على معنى فاسد. قاله شيخ الإسلام ابن تيمية. وراجع «الضعيفة» (١٠٠) للألباني.

[١٤٢] صحيح:

تقدم برقم (٤٤).

[١٤٣] صحيح كما قال المصنف:

أخرجه مسلم (٤٧٩) عن ابن عباس قال: =

وهو حديث صحيح .

وفي الصحيح- أيضًا- «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»[١٤٤] .

ووجه الدليل أن أقرب أحوال العبد من ربه هو محل للدعاء، والداعي يرجو القبول ويخاف المنع، فالعبادة في أقرب أحوال العبد موضوعة على الرجاء والخوف .

ومنها الحديث الصحيح : «**إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن، ثم قل : اللَّهم أسلمتُ وجهي إليك، وفوضتُ أمري إليك، وألجأتُ ظهري إليك؛ رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، اللَّهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت، فإن مت من ليلتك فأنت على الفطرة، واجعلهن آخر ما تتكلم به**»[١٤٥] .

= كشف رسول اللَّه ﷺ الستارة ؛ والناس صفوف خلف أبي بكر فقال :

«يا أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له، ألا وإني نهيت أن أقرأ القرآن راكعًا أو ساجدًا، فأما الركوع فعظموا فيه الرب ﷻ ، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فقَمِنٌ أن يُستجاب لكم» .

وأخرجه أيضًا أبو داود (٨٧١) والنسائي في «المجتبى» (٢/ ٢١٧-٢١٨) وفي «الكبرى» (٧٠٧و٧٦٢٣) والدارمي (١/ ٣٠٤) وأحمد (١/ ٢١٩) .

[١٤٤] صحيح :

تقدم برقم (١٣٢) .

[١٤٥] صحيح :

أخرجه البخاري (٢٤٧و٦٣١٣و٦٣١٥و٧٤٨٨) ومسلم (٢٧١٠) وأبو داود (٥٠٣٦) والترمذي (٣٤٠٣) والنسائي في «الكبرى» (١٠٦٠٩-١٠٦٢١) وفي «عمل اليوم والليلة» (٧٧٣-٧٧٦و٧٨٠ و٧٨٥) وابن ماجه (٣٨٧٦) وأحمد (٤/ ٢٨٥و٢٩٠و٢٩٢-٢٩٣و٢٩٦و٢٩٩و٣٠٠و٣٠١و٣٠٢) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه .

وقال الترمذي : «حديث حسن» .

ووجه الدليل منه أنه تعليم لما يقوله المسلم فيما قد يكون آخر حال يلقى عليه ربه، ولا ينبغي أن يلقاه إلا على أكمل حال.

فعلمنا هذا الدعاء الصريح في الرغبة والرهبة ليقوله المؤمن ولو كان من أكمل الكُمل، فدل على أن الرغبة والرهبة عليهما وضعت العبادة في جميع الأحوال.

ومنها الحديث الصحيح: قالت عائشة رضي الله عنها: كنتُ نائمةً إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ففقدته فلمسته بيدي فوضعت يدي على قدميه وهو ساجد يقول:

«أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك، لا أحصي ثناء عليك كما أثنيت على نفسك»[١٤٦].

ووجه الدليل أنه في الحال التي هو فيها أقرب ما يكون من ربه، وهي حالة سجوده، استعاذ برضى اللَّه من سخطه، وبعافيته من عقوبته، ثم لما لم يستطع الإحاطة بأفعاله رد الأمر لذاته فاستعاذ به منه، وهو في الجميع مستعيذ، والمستعيذ طالب، والطالب راج وطامع في نيل المطلوب، فلم يفارق عبادته الرجاء والطمع حتى في هذه الحالة التي هي بينه وبين ربه؛ لأنه كان ساجدًا في

---

[١٤٦] صحيح:

أخرجه مسلم (٤٨٦) وأبو داود (٨٧٤) والترمذي (٣٥٠٢) والنسائي في «المجتبى» (١/ ١٠٢-١٠٣و٢/ ٢١٠و٢٢٢-٢٢٣) وفي «الكبرى» (١٥٨و٦٨٧) وابن ماجه (٣٨٤١) وأحمد (٦/ ٥٨و٢٠١) ومالك (٢/ ٣٧/ ٥٠٠) عن عائشة.

وقال الترمذي: «حديث حسن، قد روي من غير وجه عن عائشة».

جنح الليل دون حضور أحد من الناس إلا عائشة التي كانت نائمة واستيقظت ففقدته، فاطلعت عليه في تلك الحال.

ومنها الحديث الصحيح عن ابن عباس الذي كان يعلمهم رسول الله ﷺ إياه كما يعلمهم السورة من القرآن.

رواه مالك.

وفيه: «**اللَّهم أعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات**»[١٤٧].

ووجه الدليل منه أنه علمهم هذه الاستعاذة الصريحة في الخوف والرجاء كسائر ما علمهم من الدعوات المبنية عليهما.

وهكذا تجد جميع دعواته المأثورة، على الرغبة والرهبة، والرجاء والخوف، ولا تجد دعاءً واحدًا علمهم فيه أن يتوجهوا إلى اللَّه- تعالى- دون رغبة ولا رهبة، ولا رجاء ولا خوف.

ولو كانت العبادة الخالية من الطمع والخوف هي أكمل العبادة، لكان

---

[١٤٧] صحيح:

رواه مالك في «الموطأ» (٢/ ٣٨-٣٩/ ٥٠٢) عن أبي الزبير المكي عن طاوس اليماني عن عبد اللَّه بن عباس أن رسول اللَّه ﷺ كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن، يقول: ... فذكره.

ومن طريق مالك: أخرجه مسلم (٥٩٠) وأبو داود (١٥٣٩) والترمذي (٣٥٠٣) والنسائي (٤/ ١٠٤و٨/ ٢٧٦-٢٧٧) وأحمد (١/ ٢٤٢و٢٥٨و٢٩٨و٣١١).

وقال الترمذي: «حديث حسن».

وأخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٦٩٤) وابن ماجه (٣٨٤٠) من طريق آخر عن ابن عباس.

بيَّنها لهم بيانًا شافيًا صريحًا، كعادته في بيان الكمالات، وهو الحريص على دلالتهم على كل خير، فكيف لم يدلهم على هذا المقام بصريح المقال لو كان من الكمال بحيث يدعى لها بعض الناس.

فقد بان بما ذكرنا توارد آيات الكتاب وأحاديث السنة في صراحة وجلاء على مشروعية العبادة مقرونة بالرغبة والرهبة والرجاء والخوف، ولم نظفر بآية واحدة أو حديث واحد فيه التصريح بمشروعيتها مجردة منهما فضلًا عن أنها أكمل منها معهما، وما كنا لنترك أدلة الكتاب والسنة الصريحة لرأي أحد كائنًا من كان.

وإننا نورد فيما يلي حديثًا من «صحيح البخاري» يبين لنا كيف كان الصحابة سادة هذه الأمة يعبدون اللَّه- تعالى- يرجون قبول أعمالهم لديه:

«قال أبو بردة ابن أبي موسى الأشعري: قال لي عبد اللَّه بن عمر: هل تدري ما قال أبي لأبيك؟

قال: قلتُ: لا.

قال: فإن أبي قال لأبيك: يا أبا موسى هل يسرك إسلامنا مع رسول اللَّه ﷺ وهجرتنا معه وجهادنا[1] وعملُنا كلُّه معه بَرَدَ لنا، وإن كل عمل عملناه بعده نجونا منه كفافًا رأسًا برأس.

قال أبي[2]- يعني: أبا موسى-: لا واللَّه، قد جاهدنا بعد رسول اللَّه ﷺ

---

(١) في «صحيح البخاري»: «وجهادنا معه».

(٢) كذا وقع فيه! والصواب: قال أبوك، لأن ابن عمر هو الذي يحكي لأبي بُردة ما دار بين عمر وأبي موسى، وهذا الكلام الأخير كلام أبي موسى، وقد وقع في رواية النسفي على الصواب=

وصلينا وصمنا، وعملنا خيرًا كثيرًا، وأسلم على أيدينا بشرٌ كثيرٌ، وإنَّا لنرجو ذلك.

فقال أبي - يعني: عمر -: لكني أنا والذي نفس عمر بيده، لوددت أن ذلك بَرَدَ لنا وأن كل شيء عملناه بعد نجونا منه كفافًا رأسًا برأس.

فقلتُ - أبو بردة -: إنَّ أباك واللَّهِ خيرٌ من أبي»[١٤٨].

ووجه الدليل عملهم على الرجاء وخوفهم من عدم القبول والعقاب على المخالفة وإن اختلفا فيما اختلفا فيه.

ولا تجد في كلام واحد منهم أنه كان يجرد عبادته عن الطمع والخوف، وما كان المقام الأكمل ليفوتهم وهم أفقه الناس في الدين وأحرصهم على الخير.

هذه هي أدلتنا فيما ذهبنا إليه، ورددنا على مخالفيه، وهي أكثر من هذا عَدًّا في كتاب اللَّه وسنة رسوله، وفيما ذكرناه كفاية - إن شاء اللَّه - لمن نصح وأنصف، وأخلص الإيمان بقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النِّساء: الآية ٥٩].

= ولفظه: فقال أبوك: لا واللَّه .. إلخ».

أفاده الحافظ في «الفتح» (٧/ ٣١٨).

[١٤٨] صحيح:

أخرجه البخاري (٣٩١٥) عن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري.

و(بَرَد) بفتح الموحدة والراء (لنا) أي ثبت لنا ودام، يقال: برد لي على الغريم حق أي ثبت.

و(كفانا) أي سواءٌ سواءٌ، والمراد لا موجبًا ثوابًا ولا عقابًا.

كذا في «الفتح» للحافظ.

والآن نعطف بالكلام على مقال الشيخ ونحصره في مواضع:

١- أنكرنا على من زعموا أن مرتبة العبادة العليا أن يعبد اللَّه- تعالى- لذاته دون الطمع في ثوابه ولا الخوف من عقابه، ونسبنا إليهم الخطأ.

ولما وجدنا آيات الكتاب وأحاديث السنة طافحةً بأنَّ عبادة الكُمَّل مِنْ عباد اللَّه مقرونة بالخوف والطمع كما قدَّمنا نَسَبْنا خطأهم إلى قلَّة التفقه في الدين، أي: في أدلة الدين، وهي الآيات والأحاديث المذكورة.

وما عسى أن يقال فيمن لم تكفه تلك الآيات والأحاديث كلها على صراحتها واتفاقها إلَّا أنه لم يتفقه فيها؟

ولما لم نجد آيةً واحدةً ولا حديثًا واحدًا يصرِّح بمدّعاهم حملناهم على الغلوِّ.

هذا كله دون أن نصرِّح بشخصٍ ولا بِطائفةٍ لأن الكلام مع القول والدليل.

فأبى حضرته إلَّا أن يحمل كلامنا على طائفة مخصوصة يحب هو اليوم التظاهر بالدفاع عنها، ثم تطرق من ذلك إلى رمينا بما يناسب غرضه من الجرأة وقلة النصيحة والتطاول على الأئمة، إلى ما يريد أن يصفنا به، ليقول القارئ أن حضرته موصوف بضده. وربك أعلم بتلك الأوصاف وأهلها.

٢- كان استدلالنا بآية ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: الآية ٦٣]. على الوجه الذي بيناه فيما تقدم دون أن نذكر الحصر ولا أن نشير إليه، ولا من مقتضى موضوعنا أن نقصر عباد الرحمن على تلك الصفات، لكن حضرته أخذ يقرر في قواعد الحصر الضرورية عند المبتدئين، وخرج من ذلك إلى أن الآية

لا حصر فيها، وأننا تسرعنا وما تدبرنا، ولم نحسن تطبيق قواعد العلوم على موضوع النزاع.

وفي الحق إن حضرته هو الذي لم يحسن تنزيل ما طولب به في الحصر على كلام لم ندع فيه الحصر ولم نستدل به، وإنما استدللنا بالآية مثلما استدللنا بغيرها على الوجه الذي تقدم وعلى ما معه من الوجوه.

٣- ما في كلام الإمام الرازي من أن اللَّه مستحق للعبادة لذاته، وأنه لو أمرنا بالعبادة بلا ثواب ولا عقاب لوجبت، فهو حقٌّ مُسَلَّمٌ، وليس هو موضوع النزاع، إذْ موضوع النزاع هل العبادة مع الخوف والرجاء أكمل أم العبادة دونهما؟

وما فيه من أن «مَنْ عبدَ اللَّهَ للثوابِ والعقابِ، فالمعبود في الحقيقة هو الثوابُ والعقابُ، واللَّهُ واسطةٌ»[1].

- إذا كان يعني به أنه عبد اللَّه للثواب من حيث ذاته والعقاب من حيث ذاته دون امتثال للأمر وتوجه للرب، فهذا ليس كلامنا فيه.

وإن كان يعني أنه يعبد للثواب والعقاب من حيث أن العبادة الشرعية موضوعة على رجاء الثواب وخوف العقاب فهو يعبد اللَّه امتثالًا لأمره، فكلامه ممنوع؛ لأن العبادة هي التوجه بالطاعة للَّه امتثالًا لأمره وقيامًا بحقه مع الشعور بالضعف والذل أمام قوة وعز الربوبية، وذلك يبعث على الخوف المأمور به، ومع الشعور بالفقر والحاجة أمام غنى وفضل الربوبية، وذلك

(١) تفسير الفخر الرازي (١/ ١٢٩).

يبعث على الرجاء المأمور به. فالمعبود في الحقيقة والواقع هو المتوجَّهُ إليه بالطاعة وهو اللَّه- تعالى- لا الثواب الذي تعلق به الرجاء، ولا العقاب الذي تعلق به الخوف.

وكيف يكون الثواب هو المعبود، والعقاب هو المعبود، واللَّه هو الذي شرعهما؟ فهل يشرع عبادة غيره؟

وما هذا إلَّا من عدم التأمل في مثل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ [الإسراء: الآية ٥٧]. أي شأنه أن يحذر ومن حقه أن يحذر.

وهل هذا إلَّا من عدم التفقه في قوله تعالى -في أم القرآن والسبع المثاني التي يناجي بها المصلي ربه وهو في أعظم عبادة-: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٥]. فإن المستعين طالبٌ للإعانةِ، والطالب راج قبول طلبه، خائف من عدم قبوله.

وقوله تعالى فيها: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفَاتِحَة: الآية ٦]. طلب كذلك، فليتفقه المتفقهون في كلام رب العالمين.

٤- ونقل كلام الإمام الرازي في باب المحبة قوله: «وأما العارفون فقد قالوا: قد يحب اللَّه- تعالى- لذاته، وأما حب خدمته وحب ثوابه فدرجة نازلة».

ونحن نقول: إنَّ الذات الأقدس: الموصوف بالكمالات، المفيض للإنعامات، تتعلق به قلوب المحبين موصوفًا بكمالاته وإنعاماته التي منها ثوابه وجزاؤه، وتلك المحبة تبعث على خدمته بطاعته والتقرب إليه بأنواع

العبادات.

وأما عبادة الذات مجردًا عن الإنعامات فهو نوع من التعطيل في الاعتقاد والتقصير في الشهود، وإذا كانت المحبة عملًا من أعمال العبد القلبية التي يتقرب بها إلى اللَّه فهي عبادة.

وقد بيَّنا بالأدلة المتقدمة أن العبادة في الإسلام موضوعة على مصاحبة الرجاء والخوف، والمحب للرب ذي الجلال والإكرام والبطش والإنعام لا يغيب عن إجلاله بالخوف والتذلل له بالطمع كحاله في سائر العبادات.

٥- ونقل من كلام النيسابوري قوله: «المحققون نظرهم على المعبود لا على العبادة، وعلى المنعم لا على النعمة»[1].

فإن كان مراده أن نظرهم على المعبود أي: اعتمادهم في القبول على المعبود لا على العبادة، فهذا حق وليس كلامنا فيه.

وإن كان مراده أن نظرهم على المعبود أي توجههم إلى المعبود دون العبادة فهذا أيضًا حقٌّ؛ لأن العبادة متوجه بها لا إليها، وليس كلامنا في هذا.

وإن كان مراده دون تقرب بالعبادة فهذا باطل؛ لأن اللَّه تعالى قال: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المَائدة: الآية ٣٥] . أي: ما يقربكم إليه من طاعته.

وإن كان مراده دون شعور بالعبادة فهذا- أيضًا- باطل؛ لأن العابد ينوي العبادة ويقصد بها القربة ويتوجه بها مخلصًا فيقول: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفَاتِحَة:

---

(١) تفسير الرازي (١/ ١٢٧).

الآية ٥] . فكيف يكون لا شعور له بها؟!

وأما قوله: «وعلى المنعم لا على النعمة». فإن أراد أن المتقرب إليه هو اللَّه المنعم دون النعمة، فهذا حقٌّ، وليس كلامنا فيه.

وإنْ أراد أنَّ رجاء نعمة الثواب حين التوجه للَّه والتقرب إليه بالطاعة ينافي التقرب إلى المنعم ويُعَدُّ تقربًا للنعمة، فهذا هو الذي أبطلناه بالأدلة السابقة، ونقضناه في الموضع الثالث.

وإن أراد أن ذكر العبد لنعم اللَّه عليه مُخِلٌّ بكمال عبادته، فهذا باطل أيضًا؛ لأن عبادة اللَّه شكرًا على ما آتى من النعم وطلبًا للمزيد من أرفع المقامات، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سَبَإ: الآية ١٣]، ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ [النحل: الآيات ١٢٠- ١٢١]، ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ [النَّمل: الآية ١٩]. ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمَان: الآية ١٤]. و﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: الآية ٧].

٦- استدل النيسابوري: «بأنه قيل لبني إسرائيل: اذكروا نعمتي، ولأمة محمد: اذكروني»[1].

وهذا منقوض بقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٠٣]. ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ [الأحزَاب: الآية ٩].

٧- نقل من كلام النيسابوري ما يفيد أن عبادة اللَّه لكونه إلهًا وكون

(١) تفسير الرازي (١/ ١٢٧).

المخلوق عبدًا لا يكون معها رغبة في الثواب ولا رهبة من العقاب، وأنها هي أعلى الرتب[1].

ونحن نقول: من مقتضى شعورك بعبوديتك شعورك بضعفك وفقرك، وأن من مقتضى علمك بالله شهودك لقوته وفضله، وذاك الشعور وهذا الشهود يبعثان فيك الرجاء والخوف، فتكون وأنت تعبده؛ لأنه إله ولأنك عبدٌ، راجيًا خائفًا.

ودعوى تجرد العبادة عنهما قد أبطلناها بالأدلة السابقة.

٨- نقل قول الإمام ابن العربي[2]: «أمر الله عباده بعبادته وهي أداء الطاعة [له] بصفة القربة، وذلك بإخلاص النية بتجريد العمل عن كل شيء إلا لوجهه، وذلك هو الإخلاص الذي تقدم بيانه».

ثم زعم هو من عنده أن من مقتضى تجريد العمل عن كل شيء تجريده من رجاء الثواب وخوف العقاب، وأنَّ الإخلاص هو ما كان لوجه الله لكونه إلهًا لا غير.

وهذا صريح منه في أن رجاء الثواب وخوف العقاب ينافيان الإخلاص، وهو باطل لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: الآية ٩] . . . الآية. وقد تقدمت، فخافوا وعملهم لوجه الله بنص القرآن.

وروى الأئمة في «الصحيح» أن أبا طلحة قال: يا رسول الله، إني أسمع

(١) المصدر نفسه (١/ ١٢٩).

(٢) في «أحكام القرآن» (٤/ ١٩٧٠)، والزيادة منه.

اللَّه تعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٩٢] . وإنَّ أحب أموالي إليَّ بيرحاء، وإنها صدقة للَّه أرجو برها وذخرها عند اللَّه، فضعها حيث أراك اللَّه. فقال رسول اللَّه ﷺ:

«**بخ، ذلك مال رابح، ذلك مال رابح**»[١٤٩].

فأقرَّه على قوله: «أرجو برها وذخرها». ولم يقل له: إن هذا مناف للإخلاص. كما يقول الشيخ، وهو يسمبط ويشنبط(١) في كلام الإمام ابن العربي.

ثم ما لَكَ- يا أخي- ولابن العربي؟

حسبك ابن سينا وأمثاله الذين يحاولون تطبيق العبادة الإسلامية على الفسلفة اليونانية والآراء الأفلاطونية، أما ابن العربي فهو حكيم إسلامي وفقيه قرآني وعالم سُنِّيٌّ- حقيقي- لا يبني أنظاره إلَّا على أصول الإسلام ودلائل الكتاب والسنة.

---

[١٤٩] صحيح:

أخرجه البخاري (١٤٦١و٢٣١٨و٢٧٥٢و٢٧٦٩و٤٥٥٤و٥٦١١) ومسلم (٩٩٨) والنسائي في «الكبرى» (١١٠٦٦) والدارمي (١/ ٣٩٠) وأحمد (٣/ ١٤١) من طرق عن مالك - وهذا أخرجه في «الموطأ» (٤/ ٤١٨-٤٢٠/ ١٩٤٠) - عن إسحاق بن عبد اللَّه بن أبي طلحة أنه سمع أنس بن مالك يقول:

«كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة مالًا من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول اللَّه ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب.

قال أنس: فلما أنزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٩٢] قام أبو طلحة: إلى رسول اللَّه ﷺ فقال: يا رسول اللَّه . . . الحديث.

(١) أي أنه يحاول المحال في كلام ابن العربي حتى يكون له لا عليه.

وهاك كلامه في إرادة المأذون فيه مع العبادة من أمور الدنيا بله الرجاء والخوف، واسمع كلامه الصريح من الدليل الصحيح في الرد على مثل زعمك.

قال على قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٩٨]:

«المسألة الثانية: قال علماؤنا: في هذا دليل على جواز التجارة في الحج للحاج مع أداء العبادة، وأن القصد إلى ذلك لا يكون شركًا ولا يخرج به المكلَّف عن رسم الإخلاص المفترض عليه، خلافًا للفقراء[1] أن الحج دون تجارة أفضل أجرًا»[2].

وقال على قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ [الأحزَاب: الآية ٢٩]:

«وهذا يدل على أن العبد يعمل محبة في اللّه ورسوله لذاتيهما، وفي الدار الآخرة لما فيها من منفعة الثواب»[3].

٩- ونقل كلامًا للإمام الغزَّالي في المحبة، وقد قدمنا في الموضع الثامن الكلام على مثله، وبيّن[4] أن المحبة عبادة وأنها موضوعة كسائر العبادات الشرعية على الرجاء والخوف بالأدلة المتقدمة.

---

(١) يعني: الصوفية.

(٢) أحكام القرآن (١/ ١٣٦).

(٣) أحكام القرآن (٣/ ١٥٣٢).

(٤) كذا الأصل، ولعل الصواب: «وبيّنّا».

١٠- وقال: «وكان من دعائه ﷺ: «**اللَّهم اجعل حبَّك أحبَّ الأشياء إليَّ، واجعل خشيتك أخوف الأشياء عندي، واقطع عني حاجات الدنيا بالشوق إلى لقائك**»[١٥٠].

وقد تقرر أن خوفه خوف إجلال وتعظيم لا خوف النار والعقاب»اهـ.

ونقول: إن خوف الإجلال لا يخرج به العبد عن ضعف وذل العبودية، ومشاهدة قوة وفضل الربوبية، فلا يتجرد خوفه الإجلالي عن خوف المؤاخذة: المؤاخذة التي ليست نارًا ولا عذابًا، ولكنها مؤاخذة مناسبة لذلك المقام العالي، بدليل أن إبراهيم- عليه الصلاة والسلام- وهو مثل نبينا- عليه الصلاة والسلام- في العصمة وعدم النار والعقاب، وقد خاف المؤاخذة فقال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٨٢].

---

[١٥٠] ضعيف جدًّا:

أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٨٢) من طريق عباد الخواص حدثني أبو بكر بن أبي مريم عن الهيثم بن مالك الطائي أن رسول اللَّه ﷺ كان يدعو:

«اللَّهم اجعل حبك أحب الأشياء إلي، واجعل خوفك أخوف الأشياء إلي، واقطع عني حاجات الدنيا بالشوق إلى لقائك، وإذا أقررت أعين أهل الدنيا من دنياهم فأقر عيني من عبادتك».

وهذا إسناد ضعيف جدًّا، فيه ثلاث علل:

الأولى: عباد الخواص متروك كما في «الميزان» للذهبي.

والثانية: ضعف أبي بكر بن أبي مريم كما في «التقريب» للحافظ.

والثالثة: الإرسال فإن الهيثم بن مالك الطائي تابعي، من الخامسة، كما في المصدر نفسه، وفي «الإصابة» (٦/ ٤٦٠/ ٩١٠٤) ترجمهُ الحافظ في القسم الرابع فقال:

«تابعي من أهل الشام، أرسل حديثًا فظنَّه بعضهم صحابيًّا! .... وذكره البخاري وابن أبي حاتم وغيرهما في التابعين».

ولا خطيئة له ولجميع الأنبياء والمرسلين، لا من الكبائر ولا من الصغائر(١) على كل حال، وبدليل أنه هو- عليه الصلاة والسلام- قال: «**والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**»[١٥١]. رواه البخاري، وليس هذه لذنب لا صغير ولا كبير، وإنما هو لعلمه بالله، وعظيم حقه، وشدة تعظيمه لربه، فيخاف المؤاخذة فيطلب المغفرة.

فبان بهذا أن خوف الإجلال لا يتجرد عن خوف المؤاخذة.

وبعد هذا البيان نقول لحضرته: لا تستدل بالحديث دون بيان رتبته ولا ذكرٍ لمخرجه، وما هكذا يكون استدلال الأمناء من العلماء، وأنه برمي الأحاديث هكذا مهملة اختلط الحق بالباطل، وتجرأ على السنة النبوية الغبيُّ

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى- في «مجموع الفتاوى» (٤/ ٣١٩):

«إن القول بأن الأنبياء معصومون عن الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام وجميع الطوائف، حتى إنه قول أكثر أهل الكلام، كما ذكر أبو الحسن الآمدي أن هذا قول أكثر الأشعرية، وهو قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء، بل هو لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول».

قلت: ويدل عليه نصوص صريحة من الكتاب العزيز والسنة الصحيحة، كقوله تعالى عن آدم - عليه الصلاة والسلام-: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: الآية ١٢١]، وعن موسى -عليه الصلاة والسلام- لما وكز القبطي فقضى عليه: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٥-١٦]، وعن داود - عليه الصلاة والسلام- لما تسرع في الحكم قبل سماع قول الخصم الثاني: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ [ص: ٢٤، ٢٥]، وقوله معاتبًا النبي ﷺ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ [عبس: ١- ٤]، في أمثلة أخرى.

وانظر «الرسل والرسالات» (١٠٧- ١١٢) للدكتور عمر الأشقر.

[١٥١] **صحيح**:

رواه البخاري (٦٣٠٧) عن أبي هريرة.

والجاهلُ، حتى بلغ الأمر إلى نسبة الأحاديث إلى كتب الإسلام المتفق عليها ولا وجود لها فيها.

أما نحن فلا نعرف هذا الدعاء في الصحاح المتداولة عندنا، فليتك تبين من أين جئت به حتى نعرف مقدار ما تعتمد في احتجاجك عليه.

١١- وقال: «فللأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- حالتان: حالة مع اللَّه- تعالى- لا يرون فيها غير جلاله وعظمته، وحالة مع الخلق يستغفرون ويستعيذون من النار وسوء المنقلب وفتنة القبر والدجال، ويطلبون الرحمة والثواب والجنان»اهـ.

ونقول: قد بينا أن رؤية جلال اللَّه مما يبعث على الخوف من المؤاخذة كما مضى عن إبراهيم ومحمد- عليهما الصلاة والسلام- فلا يتجردون عن الخوف: خوف الإجلال وخوف المؤاخذة، في حالتهم مع اللَّه.

وقد دل حديث عائشة الذي قدمناه أن النبي ﷺ كان في سجوده في جوف الليل، والناس نيام فيما بينه وبين ربه، استعاذ برضا اللَّه من سخطه وبمعافاته من عقابه، فكانوا يستعيذون ويرجون ويخافون في حالتهم مع اللَّه.

وأما حالتهم مع الناس فإنهم كانوا يعلّمون وكانوا يخبرون عن أنفسهم بخوفهم وطمعهم، كما أخبر إبراهيم عليه السلام بطمعه، وأخبر محمد ﷺ أصحابه بأنه أتقاهم للَّه وأخوفه له[1]. وأخبر عن استغفاره لربه، وإخبارهم حق صدق لا شك فيه.

---

(١) انظر التخريجين (١٧١، ١٧٢) الآتيين قريبًا - إن شاء اللَّه-.

ولا يجوز أن يُقال أنهم قالوه لمجرد التعليم وهو في الواقع لا حقيقة له، إذ الإخبار عن النفس بشيء أنه كان وهو لم يكن هو الكذب الذي عصمهم اللَّه منه ونزههم عنه، ولو تفطن حضرته لهذا لما قال ما قال.

١٢- وذكر حديث الإحسان: **«أن تعبد اللَّه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**[١٥٢].

وهذا الحديث يقتضي دوام المراقبة للَّه عند كل حركة وسكون، حتى لا تكون من العبد مخالفة فيهما، وحتى يأتي بعبادته على غاية الإتقان في صورتها، وأتم الإخلاص بها.

وقد علمت أن من مقتضى العبادة الشرعية الشعور بضعف وذل وفقر العبودية أمام عز وقوة وفضل الربوبية، فينبعث الرجاء والخوف في العابد وهما مما يحملانه على تمام الإحسان في العبادة بإتقانها والإخلاص فيها.

ثم من مقتضى مراقبة اللَّه- تعالى- مشاهدته، أي: مشاهدة جلاله وجماله؛ بصفات القهر والبطش والملك والسلطان، وجماله بصفات الفضل والرحمة والإحسان، وبصدق المشاهدة لصفات الجلال يخاف العبد ويخشى، وبصدق المشاهدة لصفات الجمال يرجو ويطمع، فصدق الشهود لابد معه من الرجاء والخوف.

---

[١٥٢] صحيح:

قطعة من حديث جبريل عليه السلام الطويل العظيم في بيان الدين كله.

أخرجه مسلم (٨) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وأخرجه البخاري (٥٠و٤٧٧٧) ومسلم (٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وإذا غاب العبد عن الشعور بالموجودات فإنه لا يغيب عن مشاهدة جلال وجمال الذات الباعثين للخوف والرجاء، وإذا لم يشهدهما وزعم أنه يشهد الذات مجردًا فإنه لم يكن في الحقيقة مشاهدًا، بل غافلًا معطلًا جامدًا.

وأما غيبوبة العابد عن نفسه- إن كانت- فإنها حالة عارضة غير ثابتة، وليست مشروعة لا بنص من آية ولا من حديث، فضلًا عن أن تكون فاضلة كاملة.

فالحديث دلَّ على المراقبة والمشاهدة الشرعيتين اللتين يكون فيهما العبد عابدًا العبادة الشرعية الموضوعة على الرجاء والخوف حسب الأدلة المتقدمة.

١٣- ونقل كلام ابن سينا في «كتاب الإشارات» وكلام شراحه، وهو مثل ما تقدم لنا إبطاله بأدلة الكتاب والسنة والشرح بهما لمعنى العبادة المشروعة.

وإذ كنا نبحث عن العبادة التي شرعها اللَّه لعباده على لسان رسوله، فإننا لا نعرفها إلّا من الكتاب والسنة، وقد قدمنا من أدلتهما ما جلى المسألة للعيان، وأغنى فيها عن كل كلام.

وتلخَّص وتبيَّن لنا مما تقدم:

أن العبادة المشروعة هي القصد إلى الطاعة مع الشعور بضعف العبد وذله، وحاجته وفقره، ومشاهدته لجلال ربه وقدرته وعزته، وجماله وفضله ورحمته، فيكون بتلك المشاهدة خائفًا من عقابه أو مؤاخذته، راجيًا لثوابه وإنعامه.

وأن هذه العبادة هي عبادة الكُمَّل من عباد اللَّه الذين وصفهم بأفضل صفاتهم في كتابه، وهي عبادة أنبيائه ورسله الذين ذكر عبادتهم القرآن، وهي عبادة محمد ﷺ التي دلت عليه صحاح الآثار، وعبادة أصحابه الثابتة في النقول.

وخلصنا من هذا إلى أن العبادةَ المجردةَ عن الخوف والرجاء منافيةٌ لصدق مشاهدة الجلال والجمال، مخالفةٌ لعبادة الأنبياء والمرسلين وعباد اللَّه الصالحين، وأنه لم يرد فيها نص صريح من كتاب أو سنة مثل واحد من الأدلة المتقدمة المتكاثرة.

وأنها ما دامت كذلك ليس لنا أن نعدَّها مشروعة، فضلًا عن أن نعدَّها كاملة، فضلًا عن أن ندعي أنها أكمل؛ لأن مشروعية الشيء لا تثبت إلَّا بدليل صحيح صريح.

وأنَّى لنا ذلك في العبادة المجردة عن الرجاء والخوف؟

واللَّه يقول الحق وهو يهدي السبيل، والحمد للَّه رب العالمين[1].

* * *

(١) الشهاب (ج١، م٩) غرة رمضان ١٣٥١هـ - جانفي ١٩٣٣م.

الصفة الخامسة

﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفُرقان: الآية ٦٧] .

المناسبة:

مضى وصفهم بأنهم يبيتون لربهم سُجَّدًا وقيامًا، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتربي النفس على استصغار الدنيا وما فيها، وعلى تعظيم الرب والوقوف عند حدوده، فلا يعظم شيء من الدنيا عند أهل الصلاة فيمسكوا عن بذله في الحق، ولا يستهويهم شيء منها فينتهكوا لأجله حدود اللَّه وحرماته.

ولما كان المال هو أعز شيء من هذه الدنيا، وهو أعظم سبب لنيل مبتغياتها، وصفوا بأنهم في تصرفهم فيه على أكمل حال، وهي حالة العدل التي أثمرتها لهم الصلاة، فلا يمسكونه عن حق، ولا يبذلونه في باطل.

المفردات:

«أنفقوا»: بذلوا المال في وجه من الوجوه.

«الإسراف»: مجاوزة الحد المشروع.

«الإقتار»: والتقتير: التضييق.

«القوام»: العدل بين الشيئين، أي المعتدل ما بينهما، وسمي العدل بين

الشيئين قوامًا لاستقامة طرفيه واعتدالهما، فلا إلى هذا ولا إلى ذاك.

التراكيب:

وكان: أي: هو، أي إنفاقهم المفهوم من «أنفقوا».

بين ذلك: خبر كان، وقوامًا: حال مؤكدة، فلو قيل: وكان بين ذلك، لكان كافيًا، ولكن أُكِّد بقوامًا لما فيه من صريح اللفظ المفهم للعدل.

والإنفاق يكون ولا يكون، والشأن أن يكون، ولهذا علِّق، وكان التعليق بإذا.

وقدِّم نفي السرف على نفي التقتير؛ لأن الإسراف شرهما، ففيه مجاوزة الحدود وضياع المال، وفي التقتير مفسدته مع بقاء المال، فينفقه في الخير، وقد يبقى لغيره فينتفع به.

المعنى:

إذا أنفقوا أموالهم لم يتجاوزوا الحد المشروع، ولم يضيقوا فيقصروا في القدر المطلوب، وكان إنفاقهم بين التجاوز والتضييق عدلًا مستويًا لا إفراط فيه ولا تفريط، وصفهم بالقصد الذي هو وسط بين الغلو والتقصير، وهو الحالة بين الحالتين، والحسنة بين السيئتين.

تحديد:

الإسراف مذموم فهو ما كان في منهي عنه: نهي تحريم أو كراهة، أو في مباح قد يؤدي إليهما.

فالأول: كمن أولم وليمة أنفق فيها جميع ماله وأصبح بعدها هو وأهله

للضيعة والحاجة.

والثاني: كمن أولم وليمة دعته إلى الاستدانة وإن كان يظن القدرة على الأداء؛ لأن الدَّيْنَ مُحَذَّرٌ ومستعاذٌ منه[1].

والثالث: كالاستمرار على إيلام الولائم مع القدرة عليها في الحال مما قد يؤدي إلى أحد الأمرين المذكورين في المال.

والتقتير مذموم أيضًا فهو ما كان إمساكًا عن مأمور به: أمر وجوب أو استحباب، أو عن مباح يؤدي إليهما.

فالأول كمن يمسك عن أهله شُحًّا حتى يذيقهم ألم الجوع والبرد.

والثاني: كمن لا يذيقهم بعض الطيبات التي يخص بها نفسه من السوق.

والثالث: كمن يمسك عن تطييب خاطر زوجته ببعض الكماليات مع قدرته عليها، مما قد يفسد قلب زوجته عليه، أو يحملها على ما لا يرضيه.

والقَوام العدل هو الممدوح، فهو أن ينفق في الواجب والمندوب وما يؤدي إليهما، ويمسك عن المحرم والمكروه وما يؤدي إليهما، ويتسع في الحلال دون مداومة في الأوقات واستيفاء لجميع اللذات واستهتار بالمشتهيات.

---

(١) أما التحذير منه فالأحاديث الصحيحة كثيرة وفيرة، أورد الحافظ المنذري جملة طيبة منها في «باب الترهيب من الدَّيْن» في كتاب البيوع وغيرها من كتابه الحافل «الترغيب والترهيب» (الأرقام ١٧٩٧-١٨١٣) من صحيحه للألباني)

وأما الاستعاذة منه، فيراجع «صحيح البخاري» (٨٣٢، ٦٣٦٣).

تطبيق:

حالة وطننا في الأعم الأغلب في الولائم والمآتم لا تخلو من السرف فيها الذي يؤدي إلى التقتير من بعدها، فيكون الإثم قد أصاب صاحبها بنوعيه، وأحاط به من ناحيتيه، والشر يجر إلى الشر، و الإثم يهدي إلى مثله.

وعلى «**جمعية العلماء المسلمين الجزائريين**» علَّق كثير ممن سمعناهم يشكون هذه الحالة آمالهم في معالجتها، خصوصًا في المآتم، حقق اللَّهُ الآمال.

وثَمَّ نوع آخر موجود في غالب القطر ويكثر في بعض الجبال، وهو أن بعض المأمورين من بعض شيوخ الطوائف يأتون بثلة من أتباعهم، فينزلون على المنتمين إليهم من ضعفاء الناس، فيذبح لهم العناق إن كانت، ويستدين لشرائها إن لم تكن، ويفرغ المزاود، ويكنس لهم ما في البيت ويصبح معدمًا فقيرًا مَدينًا، ويصبح من يومه صبيته يتضاغون، ويمسي أهل ذلك المسكين يطحنهم البؤس، ويميتهم الشقاء ميتات متعددة في اليوم.

وشر ما في هذا الشر أنه يرتكب باسم الدين ويحسبه الجهال أنه قربة لرب العالمين.

فأما إذا جاء وقت شد الرحال إلى الأحياء والأموات، وتقديم النذور والزيارات، فحّدث هنالك عن أنواع السرف والتكلفات والتضييع للحقوق والواجبات.

نصيحة:

فياليت الذين تأتيهم تلك الوفود يسألونهم فردًا فردًا عن حالهم، ومن أين جاءوهم بما جاءوهم به من أموالهم، فعساهم أن يطلعوا على بؤس أولئك المساكين فترق لهم قلوبهم، ويرجعوا إليهم مالهم أو يزيدوهم من عندهم، وليقتصروا على من يجدونهم أهل قدرة على ما دفعوه لهم من أموالهم.

فهذه نصيحة إذا عملوا بها خففت من الشر والبؤس عن الزائرين، ومن الإثم واللوم عن المزورين.

فهل بها من عاملين؟.

وفقنا اللّه والمسلمين[1].

* * *

(١) الشهاب (ج١٠، م٨) غرة جمادى الثانية ١٣٥١هـ - أكتوبر ١٩٣٢م.

الصفة السادسة والسابعة والثامنة

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفُرقان: الآية ٦٨] .

سبب النزول:

ثبت في الصحيحين- واللفظ لمسلم- أن عبد اللَّه بن مسعود قال:

قال رجل: يا رسول اللَّه أيّ الذنب أكبر؟ قال: «**أن تدعو للَّه ندًّا وهو خلقك**» قال: ثم أيّ؟ قال: «**أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك**» قال: قلت: ثم أيّ؟ قال: «**أن تزاني حليلة جارك**»[١٥٣].

فأنزل اللَّه تصديقها: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الفُرقان: الآية ٦٨] . . إلى ﴿أَثَامًا﴾ [الفُرقان: الآية ٦٨] .

المطابقة بين الآية وسبب نزولها:

تواردت الآية والحديث في الإثم الأول على شيء واحد.

وتواردا أيضًا في الثاني والثالث، إلا أن في الحديث ذكر فرد من العام، وهو شر أفراده وأكبرها إثمًا، وفي الآية ذكر العام.

ولا شك أن شر قتل النفس هو قتل الولد لما في ذلك- زيادة على قتل

---

[١٥٣] صحيح:
تقدم برقم (٧٧) .

النفس- من الخروج عن حنان الفطرة، وارتكاب ضد ما توجبه الرعاية والكفالة، وسوء الظن بالله المتكفل برزق الخليقة.

كما أن الزنى بحليلة الجار هو شر أفراد الزنى لما فيه زيادة على الزنى من انتهاك حرمة الجار وخيانة الأمانة- فإنهم ما تجاوروا حتى أمن بعضُهم بعضًا- وإدخال الفساد على أساس التكوين الاجتماعي في الناس، وهو التجاور والتقارب.

المناسبة:

لما أثبت لهم أصول الطاعات في الآيات المتقدمة نفى عنهم أمهات المعاصي في هذه الآية، تنبيهًا على أن الإيمان الكامل هو ما تثبت معه الطاعات وتنتفي المعاصي، وذلك هو غاية الامتثال للأوامر والنواهي، وفيه تعريض بما كان عليه المشركون من الاتصاف بهذه المعاصي من دعائهم آلهتهم مع الله، وقتلهم النفس، وارتكابهم فاحشة الزنى.

وقدّم إثبات الطاعات على انتفاء المعاصي تنبيهًا على أن من راض نفسه على الطاعة ودانت نفسه بالإخبات والانقياد للأوامر الشرعية، ضعفت منه أو زالت دواعي الشر والفساد، فانكف عن المعصية.

نكتة استطرادية:

فمن هنا نعلم أن على المسلم الذي يعمل لتزكية نفسه أن يواظب على الطاعات بأنواعها، وأن يجتهد في حصول الأنس بها والخشوع فيها، فإن ذلك زيادة على ما يثبت فيه من أصول الخير، يقلع منه أصول الشر ويميت منه بواعثه.

وجه ترتيب هذه الصفات المنفيات:

قامت الشريعة على المحافظة على حقوق اللَّه وحقوق عباده.

وحق اللَّه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، فمن دعا مع اللَّه غيره، وأشرك به سواه؛ فقد أبطل حق اللَّه وأعدم عبادته.

ومن قتل النفس؛ فقد تعدى على أول حق جعله اللَّه لعباده بفضله، وهو حق الوجود، وعمل على إبطال وجودهم وفناء نوعهم وزوال عبادتهم، فلهذا قرن قتل النفس بدعاء غير اللَّه معه.

ولما كان الزنى فيه بطلان النسب وفساد الخلق والجسد، وذلك مؤدٍّ إلى الاضمحلال والزوال والشرور والأهوال؛ قرن بقتل النفس، فذلك قتل حقيقي، وهذا قتل معنوي.

المفردات:

«الدعاء»: هو النداء لطلب أمر أو تنبيه عليه.

«الإله»: هو المعبود.

«حرم اللَّه النفس»: جعل لها حرمة ومنعة، فلا يجوز التعدي عليها. ومادة (ح ر م) تفيد المنع في جميع تصاريفها.

«الحق»: هو الثابت من مقتضيات القتل في الشرع.

التراكيب:

وصف النفس بالاسم الموصول المعروف الصلةِ، لأن تحريم اللَّه لها أمر

مركوز في النفوس، معروف للبشر بما جاءهم من جميع الشرائع، وكان النفي للفعل بصيغة المضارع للإشارة إلى استمرار ذلك النفي.

المعنى:

والذين لا يدعون ولا يعبدون مع اللَّه إلهًا آخر، فيشركون به سِواه في عبادتهم إياه، ولكنهم يخلصون له العبادة، ويفردونه بالطاعة، ويوحدونه في ربوبيته وألوهيته، ولا يقتلون النفس التي جعل اللَّه لها حرمة، وحرم قتلها بالسبب إلا الحق الثابت في دين اللَّه، المعارض لحرمتها، المقتضي لقتلها بالزنى بعد الإحصان، أو الكفر بعد الإيمان، أو القتل للنفس العمد العدوان[1]، ولا يزنون فيأتون ما حرم اللَّه عليهم إتيانه من الفروج.

مزيد بيان لتوحيد الرحمن:

من دعا غير اللَّه فقد عبده:

ما يزال الذكرُ الحكيمُ يسمّي العبادة دعاءً ويعبّر به عنها. ذلك لأنه عبادة، فعبر عن النوع ببعض أفراده، وإنما اختير هذا الفرد ليعبر به عن النوع، لأن الدعاء مخ العبادة وخلاصتها، فإن العابدَ يظهر ذُلَّه أمامَ عزّ المعبود، وفقرَه أمام غِناه، وعجزَه أمام قُدرتِه، وتمام تعظيمه له وخضوعه بين يديه، ويعرب عن ذلك بلسانه، بدعائه وندائه وطلبه منه حوائجه.

فالدعاء هو المظهر الدال على ذلك كله، ولهذا كان مخ عبادته.

---

(١) كما في حديث ابن مسعود مرفوعًا: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأني رسول اللَّه؛ إلا بإحدى ثلاث: الثيبُ الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه؛ المفارق للجماعة». أخرجه البخاري (٦٨٧٨) ومسلم (١٦٧٦). وقد تقدم برقم (٧٩) مع الإشارة إلى شواهده.

وقد جاء التنبيه على هذا في السنة المطهرة.

فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«**الدعاء هو العبادة**»، **ثم قرأ**: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: الآية ٦٠][١٥٤].

رواه أحمد والترمذي وأبو داود- رحمهم الله- والنسائي وابن ماجه.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«**الدعاء مخ العبادة**»[١٥٥]. رواه الترمذي رحمه الله.

فتطابق الأثر والنظر على أن الدعاء عبادة، فمن دعا غير الله فقد عبده، وإذا كان هو لا يسمي دعاءه لغير الله عبادة، فالحقيقة لا ترتفع بعدم تسميته لها باسمها وتسميته لها بغير اسمها، والعبرة بتسمية الشرع التي عرفناها من الحديثين المتقدمين لا بتسميته.

من دعا شيئًا فقد اتخذه إلهًا:

لما ثبت أن الدعاء عبادة، فالداعي عابد، والمدعو معبود، والمعبود إله، فمن دعا شيئًا فقد اتخذه إلهه، لأنه فعل له ما لا يفعل إلا للإله، فهو وإن لم يسمه إلهًا بقوله فقد سمّاه بفعله.

---

[١٥٤] صحيح:

تقدم برقم (٥٥).

[١٥٥] ضعيف بهذا اللفظ:

تقدم برقم (٥٦).

ألا ترى إلى أهل الكتاب لما اتبعوا أحبارهم ورهبانهم في التحليل والتحريم- وهما لا يكونان إلا من الرب العالم بالمصالح- قال اللَّه تعالى فيهم: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: الآية ٣١].

وإن كانوا لا يسمونهم أربابًا فحكم عليهم بفعلهم، ولم يعتبر منهم عدم التسمية لهم أربابًا بألسنتهم.

فكذلك يقال فيمن دعا شيئًا أنه اتخذه إلهًا نظرًا لفعله وهو دعاؤه.

ولا عبرة لعدم تسميته له إلهًا بلسانه.

وفي حديث عديّ بن حاتم الذي رواه الترمذي وغيره أنه قال للنبي ﷺ لما سمعه يقرأ هذه الآية: إنهم لم يكونوا يعبدونهم! فقال رسول اللَّه ﷺ:

«أليس كانوا إذا حرّموا عليهم شيئًا حرّموه. وإذا أحلّوا لهم شيئًا أحلوه؟» قال: قلتُ: نعم- قال:

«فتلك عبادتهم إياهم»[١٥٦].

قال الإمام الجصاص[١]: «ولما كان التحليل والتحريم لا يجوز إلّا من جهة العالم بالمصالح ثم قلد هؤلاء أحبارهم ورهبانهم في التحليل والتحريم، وقبلوه منهم، وتركوا أمر اللَّه تعالى فيما حرم وحلل؛ صاروا متخذين لهم أربابًا إذ نزّلوهم في قبول ذلك منهم منزلة الأرباب» اهـ.

---

[١٥٦] حسن لغيره:

تقدم برقم (٥٣).

(١) في «أحكام القرآن» (٣/ ١٠٤).

وعلى وزانه نقول: لما كان الدعاء عبادة، والعبادة لا تكون إلا للإله، كان الداعي لشيء من المخلوقات متخذًا إياه إلهًا لما نزّله بدعائه إياه منزلة الإله، سواء دعاه وحده دون اللَّه، أو دعاه مع اللَّه، والعياذ باللَّه.

تحذير وإرشاد:

ما أكثر ما تسمع في دعاء الناس: «يا رب والشيخ»! «يا رب وناس ربي»! «يا رب والناس الملاح».

وهذا من دعاء غير اللَّه مع اللَّه، فإياك أيها المسلم وإياه، وادع اللَّه ربك وخالقك وحده وحده وحده، وأنف الشرك راغم.

* * *

الوعيد بالعذاب الشديد

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ [الفرقان: الآية ٦٨- ٦٩]

المناسبة:

إذا أمر القرآنُ بشيء ذكر فائدته وثمرته للعباد في الدارين، وكذلك إذا نهى عن شيء ذكر مضرته وسوء عاقبته عليهم فيهما.

فلما ذكر في صدر الآية نفي تلك المعاصي عن عباد الرحمن الذي يفيد النهي عنها؛ ذكر هذا الوعيد لبيان سوء عاقبتها وقبح أثرها.

نكتة استطرادية:

هذه هي سنة القرآن في التربية، وهي أنجع الطرق في جعل المأمور والمنهي يمتثل للأمر والنهي من كل نفسه، ويعمل لتنفيذهما بعقله وإرادته.

فالتربية التي تنبني على امتثال الأمر والنهي من غير المعصوم والانقياد لهما انقيادًا أعمى[1]- مخالفة لتربية القرآن، والخير كله في اتباع القرآن في جميع ما يفيده القرآن.

(١) يشير شيخنا الإمام إلى التربية الصوفية المخالفة للكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح، القائمة على تلقين المريد: (اعتقد ولا تنتقد)! و(من قال لِشيخه: لِمَ؟ لَمْ يفلح أبدًا)! و(المريد بين يدي شيخه كالميت بين يدي مغسِّله)!.

المفردات:

اسم الإشارة راجع للثلاثة المذكورة من قبل.

يلق: يقابل ويصادف وينل.

أثامًا: عقابًا جزاء على إثمه، فالآثام جزاء الإثم.

يضاعف: يُزاد له على الأصل فيعذب عذابين أو أنواعًا من العذاب.

ويخلد: يبقى، وطول البقاء يُسمّى خلودًا، كما قالت العرب في أثافي الصخور خوالد، لطول بقائها بعد دروس الأطلال، لا لدوام بقائها إذ لا دوام لها، وعلى هذا قول المخبّل السعدي[1]:

إلا رمادًا هامدًا دفعتْ عنه الرياحَ خَوالدٌ سُحْمُ

«المُهان»: الذليل المحتقر الذي يفعل به ما يذله ويحقره.

التراكيب:

يضاعف: بدل من يلق بدل كُلٍّ من كلٍّ، قال الخليل: لأن مضاعفة العذاب هي لقي الآثام.

وعندي أنه بدلُ بعضٍ مِنْ كُلٍّ، لأن لقي العذاب جزاء على تلك الآثام يكون في الدنيا والآخرة، ومضاعفة العذاب والخلود فيه تكون في الآخرة.

وبهذا تكون الآية قد أفادت أن المرتكب لما تقدم من المعاصي: الشرك

---

(١) هو ربيع بن مالك بن ربيعة، أبو يزيد السعدي، من تميم، شاعر فحل، من مخضرمي الجاهلية والإسلام، مات في خلافة عمر أو عثمان. الأعلام (٣/ ١٥).

وقتل النفس والزنى، ينال جزاءه دنيا وأخرى، وعذاب الآخرة المضاعف المستمر أشد وأبقى، وهذا هو الجاري على سنة القرآن في التخويف بسوء عاقبة المعصية عاجلًا وآجلًا، والتنبيه على أن الآجل أشد وأفدح من العاجل.

المعنى:

ومن يأت هذه الأفعال: فدعا مع اللَّه إلهًا آخر، أو قتل النفس التي حرم اللَّه بغير حق، أو زنى، فإنه يلقى وينال جزاء معصيته في دنياه وجزاءها في أخراه، ويكون عذابه عليها في الآخرة مضاعفًا مزيدًا عليه أنواع، ويستمر فيه باقيًا مذللًا محقرًا.

توجيه:

إنما ضُعِّف لأهل هذه الكبائر العذاب، لأن كل كبيرة منها مضاعفة المفاسد والشرور.

ففي دعاء غير اللَّه الجهل باللَّه، والكفر بنعمة اللَّه، والإبطال لحق اللَّه.

وفي قتل النفس تأييمٌ وتيتيمٌ وتأليمٌ لغير من قتل، وفتحٌ لبابِ شَرٍّ بين أولياء القاتل والمقتول، وتعدٍّ على جميع النوع، وتهوينٌ لهذا الجرم الكبير.

وفي الزنى جناية على النسل المقطوع، وعلى من أدخل عليهم من الزنى من ليس منهم، وعلى أصحاب الإرث في خروج حقهم لغيرهم.

وغير ما ذكرنا في جميعها كثير، فكانت المضاعفة من باب جعل الجزاء من جنس العمل، وهو من مقتضى الحكمة والعدل.

تذكير:

يذكّرنا القرآن بمضاعفة العذاب على كبائر الآثام، لنذكر عندما تحدَّثنا أنفسنا بالمعصية سوء عاقبتها، وتعدد شرورها، وتشعب مفاسدها، ومضاعفة العذاب بحسب ذلك عليها، لنزدجر وننكف، فنسلم من الشر المتراكم، والعذاب المضاعف، ونفوز بأجر التذكر وثمرة التذكير.

جعلنا اللَّه والمسلمين ممن انتفع بالذكرى، وسلم من فتن الدنيا والأخرى، بمنِّه وكرمه. آمين[1].

* * *

---

(١) الشهاب (ج١١، م٨) رجب ١٣٥١هـ - نوفمبر ١٩٣٢م.

استثناء التائبين من المذنبين

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفُرقان: الآية ٧٠]

سبب النزول:

أخرج الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما - واللفظ لمسلم - قال ابن عباس:

«نزلت هذه الآية بمكة ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الفُرقان: الآية ٦٨] إلى ﴿مُهَانًا﴾ [الفُرقان: الآية ٦٩] فقال المشركون: وما يغني عنا الإسلام وقد عدلنا بالله؟ وقد قتلنا النفس التي حرم الله وأتينا الفواحش؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ إلى آخر الآية»[١٥٧].

المناسبة:

لما ذكر تعالى عظائم الذنوب وأكبر كبائرها، وتوعَّد بالوعيد الشديد عليها، عقبها بذكر التوبة منها ورغب فيها، لينبِّه عباده على طريق الرجوع إليه، وأن من تاب منهم إلى اللَّه تاب اللَّه عليه.

المفردات:

«التوبة»: الرجوع إلى اللَّه أي: الرجوع من معصية اللَّه إلى طاعته، وذلك

---

[١٥٧] صحيح:
رواه البخاري (٤٧٦٥) ومسلم (٣٠٢٣)(١٩) عن ابن عباس.

بالندم على ما فات، والعزم على عدم العود إليه، وهذان من عمل القلب، وبالإقلاع عما هو متلبس به، وهذا من عمل الجوارح.

«الإيمان»: عند ما يُذكَر مع الأعمال يُراد به تصديق القلب ويقينه واطمئنانه بعقائد الحق.

و«العمل الصالح»: هو العمل الطيب المشروع من طاعة اللَّه على العباد، سواء كان من عمل الباطن وهو عمل القلب، أو من عمل الظاهر وهو عمل الجوارح.

والعمل الصالح من ثمرات الإيمان الدال وجودها على وجوده، وكمالها على كماله، ونقصها على نقصه، وعدمها على اضطرابه ووشك انحلاله واضمحلاله.

«التبديل»: التحويل فتجعل الحسنة مكان السيئة.

«الغفور»: الستار للذنوب المتجاوز عنها.

«الرحيم»: المنعم الدائم الإنعام[1].

التراكيب:

إلا من تاب: استثناء مِن (مَن يفعل) استثناء متصلًا لأن الذي يتوب من جملة من فعل.

والفاء في ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ تفريعية لتفرع التبديل على التوبة، وعاطفة لجملة

---

(١) انظر لزامًا ما علقناه (ص١٥-١٦ و٨٢).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ على جملة استثني التي قامت مقامها إلا . كما عطفت عليها الجملة الأخيرة ﴿وَكَانَ﴾ ، ونظير هذا : من يقم منكم فله درهم إلا زيدًا فله درهمان .

المعنى:

يُستثنى من ذلك الوعيد الشديد بمضاعفة العذاب والخلود فيه مهانا من رجع إلى اللَّه من الشرك وقتل النفس والزنى بالتوبة الصادقة، وشفع توبته بالعمل الصالح الدال على صدق تلك التوبة .

فهؤلاء بتوبتهم وعملهم الصالح يقبلهم اللَّه، ويجعل مكان سيئاتهم حسنات، وكان اللَّه غفورًا يتجاوز عن ذنوب عباده، فقد تجاوز عما كان منهم من شرك أو قتل أو زنا ، رحيمًا منعمًا على عباده، فقد أنعم عليهم بالحسنات مكان ما تقدم من سيئاتهم .

ترتيب وتوجيهه:

يكون العاصي في غمرات معصيته، فإذا ذكر اللَّه ووفقه اللَّه أسف على حاله ورجع إلى ربه، وهذه أول الدرجات في توبته .

فإذا استشعر قلبُه اليقينَ واطمأن قلبُه بذكر اللَّه صمَّم على الإعراض عن المعصية والإقبال على الطاعة .

فإذا كان صادقًا في هذا العزم فلابد أن يظهر أثر ذلك على عمله .

فلهذا روعيت الحالة الأولى فذُكرت التوبة، والثانية فذُكر الإيمان، والثالثة فذكر عملُ عملٍ صالح .

تأييد واقتداء:

روى الأئمة عن كعب بن مالك ﵁ أحد الثلاثة الذين خُلِّفوا أنه لما جلس بين يدي النبي ﷺ بعدما تاب اللَّه عليه قال: يا رسول اللَّه، إن من توبتي أن أنخلع من مالي إلى اللَّه، وإلى رسول اللَّه ﷺ. فقال رسول اللَّه ﷺ: «**أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك**». قال: قلتُ: فإنني أمسك سهمي الذي بخيبر[١٥٨].

فهذا الصحابي الجليل رأى أن من توبته أن يعمل هذا العمل الصالح ليكون دليلًا على صدق توبته كما اقتضته الآية، فتأيد بفهمه ما قدمنا، وكان خير قدوة للتائبين.

وجوه التبديل:

لما كانت السيئة لا تنقلب حسنة، كان معنى التبديل هو جعل الحسنة مكان السيئة وهذا على وجوه:

أولها: محو السيئات الماضية بالتوبة، وكتابة حسنة التوبة وما فيها من عمل باطن وظاهر كما تقدم.

وثانيها: تركه المعصية وإتيانه بالعمل الصالح، فصار يعمل الصالحات بعد ما كان يعمل السيئات.

---

[١٥٨] صحيح:

قطعة من حديث رواه البخاري (٤٤١٨) ومسلم (٢٧٦٩) مطولًا عن كعب بن مالك.

وثالثها: أن نفسه كانت بالمعصية مظلمة شريرة، فتصير بالتوبة والعمل الصالح منيرة خيرة.

فالتبديل في الكتب والعمل وحالة النفس.

مسألتان أصوليتان:

الأولى: هل يخرج غير التائب من النار؟

استثنى اللَّه التائب من مضاعفة العذاب والخلود فيه مهانًا، فبقي غير التائب للخلود.

والخلود كما قدمنا في الآية السابقة طول البقاء ولا يقتضي التأبيد، فقد يكون معه التأبيد وقد لا يكون، فمع التأبيد لا خروج، ومع عدمه الخروج.

وغير التائب الذي بقي للخلود المطلق في الآية هو المشرك والقاتل والزاني.

فأما المشرك فلا خروج له من النار لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النِّساء: الآية ٤٨ والآية ١١٦].

وأما القاتل والزاني إذا كانا من أهل الإيمان، فإنهما يخرجان بعد شديد العذاب بما معهما من الإيمان لأحاديث صحيحة، منها:

ما رواه الشيخان: البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه:

«**يخرج من النار من قال لا إله إلا اللَّه وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا اللَّه، وكان في قلبه من الخير ما يزن بُرّة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا اللَّه وكان في قلبه من الخير**

ما يزن ذرة»[١٥٩].

زاد البخاري في رواية قتادة عن أنس: «من إيمان» مكان «خير».

وهذا من عدل اللَّه ورحمته، فإنه أذاقهم من العذاب الشديد والهوان المخزي جزاءهم، ثم أخرجهم من النار وما أضاع عليهم إيمانهم، إنّ اللَّه بالناس لرؤوف رحيم.

الثانية: هل لقاتل النفس ظلمًا وعدوانًا من توبة؟

ذهب ابن عباس في المشهور عنه الذي رواه الشيخان وغيرهما أنه لا توبة له[١٦٠].

---

[١٥٩] صحيح:

رواه البخاري (٤٤و٧٤١٠) ومسلم (١٩٣) - (٣٢٥) من طريق هشام عن قتادة عن أنس.

وأما الرواية الأخرى فعلَّقها البخاري إثر الرواية الموصولة في الموضع الأوَّل فقال: قال أبان: حدثنا قتادة حدثنا أنس عن النبي ﷺ: «من إيمان» مكان «من خير».

قال الحافظ في «الفتح» (١/ ١٤٠-١٤١):

«وهذا التعليق وصله الحاكم في «كتاب الأربعين» له من طريق أبي سلمة قال: حدثنا أبان بن يزيد.. فذكر الحديث.

وفائدة إيراد المصنف له من جهتين:

إحداهما: تصريح قتادة فيه بالتحديث عن أنس.

ثانيتهما: تعبيره في المتن بقوله: «من إيمان» بدل قوله «من خير» فبين أن المراد بالخير هنا الإيمان.

فإن قيل: على الأولى لِمَ لَمْ يكتف بطريق أبان السالمة من التدليس ويسوقها موصولة؟

فالجواب: أن أبان وإن كان مقبولًا لكن هشام أتقن منه وأضبط، فجمع المصنف بين المصلحتين واللَّه الموفق».

وانظر - غير مأمور - «تغليق التعليق» (٢/ ٤٩-٥٠) له أيضًا.

[١٦٠] صحيح:

رواه البخاري (٤٧٦٤) ومسلم (٣٠٢٣) (١٩) و (٢٠) من طريقين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.

وقال في هذه الآية أنها نزلت في المشركين[١٦١]، وذكر سبب نزولها كما تقدم، وقال- إثره-: فأما من دخل في الإسلام وعقله ثم قتل فلا توبة له.

وقال في هذه الآية: إنها آية مكية نسختها آية مدنية[١٦٢]، وهي آية الفرقان[(١)]: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النِّساء: الآية ٩٣].

ومراده بالنسخ التخصيص، يعني أن لفظة «مَن» في ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ عامة تشمل القاتل فتقتضي بعمومها أن له توبة، وأن آية الفرقان[(٢)] التي جاءت في القاتل خصصتها وأخرجته من عمومها.

قال ابن رشد- بنقل الأُبِّي-: «وإلى هذا ذهب مالك لأنه قال: (لا يؤم القاتل وإن تاب)[(٣)] قال ابن رشد: وهذا لأن القتلَ فيه حقٌّ للَّه وحق للمقتول، وشرط التوبة من مظالم العباد ردُّ التبعات أو التحلل، وهذا لا سبيل للقاتل إليه إلا بأن يعفو عنه المقتول قبل القتل»[(٤)] اهـ.

وذهب جمهور السلف وأهل السنة إلى أن للقاتل توبة، ونظروا في هذه الآية إلى عموم لفظها لا إلى خصوص سبب نزولها، وجعلوا عموم ﴿وَمَن

---

[١٦١] صحيح:

رواه البخاري (٤٧٦٦) ومسلم (٣٠٢٣)- (١٨) و(١٩) عنه.

[١٦٢] صحيح:

رواه البخاري (٤٧٦٢) ومسلم (٣٠٢٣) (٢٠) عنه.

(١) كذا في الأصل!

(٢) كذا في الأصل!

(٣) شرح الأُبيّ على صحيح مسلم (٩/ ١٨١).

(٤) شرح الأُبيّ على صحيح مسلم (٩/ ١٨١).

﴿يَقْتُلْ﴾ في آية الفرقان[١] مخصصًا بمن تاب المستثنى في هذه الآية.

فابن عباس خصص «من تاب» بـ«من يقتل»، وهم عكسوا فخصصوا «من يقتل» بـ«من تاب».

ورجّح تخصيصَهم العموماتُ الدالةُ على قبول التوبة من كل مذنب مثل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النِّساء: الآية ١١٠]. وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ[٢] ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشّورى: الآية ٢٥]. وقوله: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غافر: الآية ٣]. وحديث **«التائب من الذنب كمن لا ذنب له»**[١٦٣] في عمومات كثيرة، والظواهر إذا كثرت تفيد القطع.

قدوة في الفتوى:

قال ابن رشد: «كان ابن شهاب إذا سئل يستفهم السائل ويطاوله، فإن ظهر له أنه لم يقتل يفتيه بأنه لا توبة له، وإن تعرف بأنه قتل أفتاه بأن التوبة تصح»[٣].

---

(١) كذا في الأصل!

(٢) في الأصل: «إن اللّه يقبل»!

[١٦٣] حسن لغيره:

رواه ابن ماجه (٤٢٥٠) والطبراني في «الكبير» (١٠/ ١٨٥/ ١٠٢٨١) كلاهما من رواية أبي عبيدة بن عبد اللّه بن مسعود عن أبيه، ولم يسمع منه، ورُواة الطبراني رُواة «الصحيح».

كذا في «الترغيب و الترهيب» للمنذري.

وقال الحافظ السخاوي في «المقاصد الحسنة» (٣١٣):

«ورجاله ثقات، بل حسَّنه شيخنا - يعني الحافظ ابن حجر - يعني لشواهده».

ثم ساق بعضها فلتراجع ثمة، واللّه ولي التوفيق.

(٣) شرح الأُبيّ على صحيح مسلم (٩/ ١٨١).

قال ابن رشد: «وإنه لحسن من الفتوى»[١].

فهكذا ينبغي مراعاة الأحوال في تنزيل الأقوال، فإن من لم يقتل يجب التشديد عليه وسدُّ الباب في وجهه، ومن قتل ينبغي ترغيبه في الرجوع إلى اللَّه.

وفي مراعاة هذا الأصل والاقتداء بهذا الإمام فوائد كثيرة في الحث على الخير والكف عن الشر، والحكيم من ينزّل الأشياء في منازلها، كانت أعمالًا أو كانت أقوالًا.

ترهيب:

ما أعظم هذا الذنب وما أكبره! ونعوذ باللَّه من ذنب اختلف أئمة السلف في قبول توبة مرتكبه، وقد أجمعوا على قبول توبة الكافر.

ولعظم شأن الدماء كانت أوّل ما يُقضَى فيه يوم القيامة بين الخلق[٢].

فإيَّاك أيها الأخ أن تلقى اللَّه تعالى بمشاركة في سفك قطرة من دم ظلمًا ولو بكلمة فإن الأمر صعب والموقف خطير!!

* * *

(١) شرح الأُبيّ على صحيح مسلم (٩/ ١٨١).

(٢) كما في الحديث الصحيح: «أول ما يقضى بين الناس [يوم القيامة] في الدماء».

أخرجه البخاري (٦٥٣٣ و٦٨٦٤)، ومسلم (١٦٧٨) والزيادة له، عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه.

بشارة التائبين إلى رب العالمين

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفُرقان: الآية ٧١] .

المناسبة:

لما أفادت الآية السابقة أن التوبة تمحو السيئات؛ جاءت هذه الآية إثرها تبين ما لأهلها من جزيل الإنعامات وعظيم الدرجات.

المفردات:

«المتاب»: مصدر كالمرجع.

التراكيب:

خالف جواب الشرط وهو ﴿يَتُوبَ﴾ فعل الشرط وهو ﴿تَابَ﴾ بمتعلقه وهو ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ ومعموله وهو ﴿مَتَابًا﴾، وعبر بالمضارع في الجواب ليفيد التجدد باعتبار تجدد المثوبات للراجعين إلى الله، ونوّن ﴿مَتَابًا﴾ تنوين تفخيم وتعظيم.

المعنى:

ومن تاب التوبة الصادقة وعمل عملًا صالحًا دليلًا على صدق توبته، فإنه يرجع إلى اللَّه الذي يحب التوابين، ويحب المتطهرين، ويحسن لقاءهم، ويجزل ثوابهم- رجوعًا وأيّ رجوع: رجوع العز والتكريم إلى الحليم الكريم.

ترغيب:

دعا اللَّه بهذا عباده المذنبين حتى لا يتسرب القنوط إلى قلوبهم، وهو محرم عليهم، ولا يحول بينهم وبين خالقهم ذنب وإن عظم، ورغبهم في التوبة بأنها رجوع إليه وكفى، وأن الرجوع إليه فيه من الخير والشرف فوق ما تصوره الألفاظ.

فما أحلمه من رب كريم، وما أرحمه بعباده المذنبين!

فهذا داعي اللَّه فأجيبوه، وهذا باب اللَّه فَلِجُوه، فإنكم مهما رجعتم إليه لا تُطردوا، ومهما قصدتم إليه تُقبلوا وتُكرَموا.

اللَّهم فكما فتحتَ لنا بابك؛ فوفقنا إليه، وتب علينا لنتوب، إنك أنت التواب الرحيم[1].

* * *

(١) الشهاب (ج١٢، م٨) شعبان ١٣٥١هـ - ديسمبر ١٩٣٢م.

الصفة التاسعة

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفُرقان: الآية ٧٢] .

المناسبة:

لما وصفهم بالصفات المتقدمة الدالة على كمال أخلاقهم، واستقامة أعمالهم، في ظواهرهم وبواطنهم، بانبنائها على قوة إيمانهم، وصحة علمهم، فكانوا أهل الحق المتصفين به في علمهم وعملهم، القائمين عليه في جميع أحوالهم؛ وصفهم هنا ببعدهم عن الباطل ومشاهده، ومجانبتهم لأهله.

المفردات:

«الشهود»: هو الحضور الذي يكون فيه إدراك بالحواس أو البصيرة.

و«الشهادة» هي الإخبار عن علم حصل عن شهود.

و(لا يشهدون): يحتمل أن يكون من الشهود وأن يكون من الشهادة.

والزور: أصله الميل، ويطلق على الكذب، لأنه ميل عن الحقيقة، وعلى كل باطل من الأقوال والأعمال لأنه ميل عن الحق.

التراكيب:

إذا كان ﴿لَا يَشۡهَدُونَ﴾ بمعنى لا يحضرون، فالزور مفعول به، وإذا كان بمعنى لا يخبرون فالزور مفعول مطلق بعد حذف المضاف، والأصل:

ولا يشهدون شهادة الزور.

المعنى:

على الاحتمال الأول- والذين لا يحضرون مشاهدة الباطل والإثم من كل مجلس تُتعدى فيه الحدود، أو تُنتهك فيه الحرمات، أو يُحكم فيه بالجور، أو تُعظّم فيه الطواغيت، أو يُدعى فيه بدعوى الجاهلية، أو تحيا فيه معالم الوثنية، أو تُطمس فيه السنة النبوية، أو يُدعى فيه أحدٌ مع اللَّه، أو يُضرع إلى سواه.

وعلى الاحتمال الثاني- والذين لا يشهدون شهادة الزور ولا يخبرون إلا بالحق الواقع.

ترجيع وترجيح:

يلزم من أنهم لا يشهدون مشاهدة الباطل أنهم لا يشهدون بالزور لوجهين:

الأول: لأنهم إذا كانوا لا يحضرون مجالس الباطل، فبالأحرى أنهم لا يقولونه.

والثاني: أن مشهد شهادة الزور من مشاهد الباطل التي لا يحضرونها، فيكون الوجه الأول أولى لأنه أشمل.

توسع في البيان:

على أنه من بلاغة القرآن أن تأتي مثل هذه الآيات بوجوه من الاحتمالات متناسبات غير متناقضات، فتكون الآية الواحدة بتلك الاحتمالات كأنها آيات، نظير مجيء الآية بقراءتين: فتكون كآيتين.

مثل قوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحُجرات: الآية ٦] - فتثبتوا[١].

وقوله تعالى في آية الوضوء: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ [المَائدة: الآية ٦] بالنصب[٢] عطفًا على الوجه، فيفيد غسل الأرجل، وتلك هي الحالة الأصلية العامة.

وبالخفض عطفًا على الرؤوس، فيفيد مسح الأرجل، وتلك هي حالة الرخصة عند لبس الخفاف.

فتكون هذه الآية باحتمالها مفيدة تنزههم عن شهود الباطل وعن شهادته.

موعظة:

قال جار اللَّه في «الكشاف»[٣] عن هؤلاء الموصوفين من عباد الرحمن:

«إنهم ينفرون عن محاضر الكذابين ومجالس الخطائين، فلا يحضرونها، ولا يقربونها، تنزهًا عن مخالطة الشر وأهله، وصيانةً لدينهم عما يثلمه، لأن مشاهدة الباطل شركة فيه، ولذلك قيل في النظارة إلى كل ما لم تسوغه الشريعة: هم شركاء فاعليه في الإثم، لأن حضورهم [ونظرهم] دليل الرضا به وسبب وجوده والزيادة فيه، لأن الذي سلط على فعله هو استحسان النظارة

---

(١) وهي قراءة حمزة والكسائي، من التثبت؛ وقرأ الباقون: (فتبينوا) من التبيين. كذا في «تفسير القرطبي» (١٦/ ٣١٢).

(٢) وهي قراءة نافع وابن عامر والكسائي وحفص عن عاصم، ويعقوب. وبكسر اللام قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، وأبو بكر عن عاصم.
كذا في «زاد المسير» (٢/ ٣٠١) لابن الجوزي. وانظر «أضواء البيان» (٢/ ٦) للشنقيطي.

(٣) في (٣/ ١٠٥)، والزيادة بين المعقوفين استدركت منه.

ورغبتهم في النظر إليه». اهـ.

وهذا كما قال، فإن حضور مشاهد الباطل إقرار لأهلها عليها، وترك للنهي عن المنكر، وقد قال الله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ﴾ [المائدة: الآية ٧٨- ٧٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: الآية ٦٨].

فتعم الآية كل ظالم. فلا تجوز لأحد مجالستهم مع ترك النكير عليهم، ولا يكفي أن ينكر ويجلس لأنه يكون ببقائه معهم قد أظهر ما يدل على الرضا بفعلهم، ونقض بالفعل إنكاره عليهم بالقول.

وروى الطبراني والبيهقي بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«لا يقفن أحدكم موقفًا يُقتَل فيه رجلٌ ظلمًا فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه، ولا يقفن أحدكم موقفًا يُضرب فيه رجلٌ ظلمًا، فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه»[١٦٤].

---

[١٦٤] ضعيف:

رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١/ ٢٦٠) من طريق مندل بن علي عن أسد بن عطاء عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعًا.

وهذا إسناد ضعيف، وفيه علتان:

الأولى: أسد بن عطاء، قال الأزدي: مجهول، وقال العقيلي: «لا يتابع على حديثه» كذا في «الميزان» (١/ ٢٠٦) للذهبي. =

فأخبر أن اللعنة تنزل على الحاضرين لعدم دفعهم، واقتضى أنهم غير راضين بقلوبهم، وأحرى إذا رضوا.

فلا يجوز من هذا الحديث وغيره حضور الظلم والقبائح مع عدم دفعها ولو مع عدم الرضا بها.

وروى الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لأصحابه- لما وصلوا الحجر ديار ثمود-:

«لا تدخلوا على هؤلاء المعذَّبين إلَّا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، لا يصيبكم ما أصابهم»[١٦٥].

فإذا كان هذا فيمن ماتوا من أهل العذاب، فمثلهم مجالس أهل السوء والفساد، فإذا نزلت اللعنة والعذاب عمتهم ومن كان معهم.

وشهادة الزور المرادة بالنص على الوجه الثاني أو اللزوم على الوجه الأول من أكبر الذنوب إثمًا، وشر الكبائر مفسدةً، تنقلب بها الحقائق، وتضيع بها الحقوق، وتبطل المعاملات، وتزول الثقة بين الناس، وتتعرض النفوس

= والأخرى: مندل بن علي، ضعيف كما في «التقريب» للحافظ.

وقال الهيمثي في «المجمع» (٨/ ٢٨٤):

«رواه الطبراني، وفيه أسد بن عطاء، قال الأزدي: مجهول، ومندل وثقه أبو حاتم وغيره، وضعفه أحمد وغيره، وبقية رجاله ثقات».

ومنه تعلم أن قول المصنف: «إسناد حسن» تبعًا للمنذري في «الترغيب»، ليس بحسن، والعلم عند الله تعالى.

[١٦٥] صحيح:

رواه البخاري (٤٣٣) ومسلم (٢٩٨٠) عن ابن عمر.

والأموال والأعراض للأذى والشر، وتنعدم طمأنينة الناس على ما يعلمون من أنفسهم.

وصح عنه- عليه وآله الصلاة والسلام- أنه قال:

«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ الإشراك باللّه وعقوق الوالدين، ألا وشهادة الزور وقول الزور».

وكان متكئًا فجلس، فما زال يكررها حتى قلنا (شفقة عليه): ليته سكت[١٦٦].

فجلس لها، وبقي يكررها لعظم شرها، وكبر مفسدتها، وعظم الإثم فيها على حسب ذلك منها.

أعاذنا اللّه والمسلمين منها، ومن كل زور وذي زور.

* * *

---

[١٦٦] صحيح:

رواه البخاري (٢٦٥٤) ومسلم (٨٧) عن أبي بكرة رضي الله عنه.

وقد تقدم برقم (٥٧) مختصرًا.

الصفة العاشرة

﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان: الآية ٧٢]

المناسبة:

نفى عنهم فيما تقدم حضور مشاهد الزور، وأخبر هنا أنهم لا يقفون عند اللغو عندما يمرون عليه، ترقيًا في وصفهم بالبعد عن الباطل والإثم والعبث ومجانبة أهله.

المفردات:

اللَّغْو: مصدر لغا يلغو، أي قال باطلًا فهو القول الباطل، ومثله الفعل الباطل من كل ما لا فائدة فيه ولا نتيجة له، مما شأنه أن يُلغى ويُطرح.

والكريم: الخالص العنصر فهو الزكي غير المتدنس، ومن مقتضى ذلك حسن أخلاقه، واستقامة أعماله، وسلامته من الرذائل.

التراكيب:

كرامًا: حال من فاعل مَرُّوا الثاني ليبين وصفهم عند المرور.

المعنى:

وإذا مروا في طريقهم بقول يُقال، أو فعل يُفعَل، مما لا فائدة فيه جاوزوه معرضين عنه، أزكياء غير متدنسين بشيء منه، ولا ملتفتين لأهله.

موعظة:

في الإقبال على اللغو شغل للبال به، وتكدير للخاطر بظلمته، وتضييع للوقت فيه.

ولكل كلمة تسمعها أو فعلة تشهدها أثرٌ في حياتك وإن قلّ، وقد يعقبها ضدها، فتزول بعد ما شغلت وعطلت، وقد يردفها مثلها، فتثبت وتنمو وتسوء عاقبتها ولو بعد حين.

وبقدر ما تلتفت إلى اللغو تلتفت عن كرمك، وبقدر ما يعلق بك منه ينقص من زكائك، وبقدر ما تتساهل بالوقوف عليه تقرب من الدخول فيه، وإذا دخلت فيه واستأنست بأهله جرّك إلى الزور وعظائم الأمور.

وللشر أسباب متواصلة، وأنساب متصلة، يؤدي بعضها إلى بعض، فينتقل المغرور الغافل من خفيِّها إلى جليِّها، ومن صغيرها إلى كبيرها، فالحازم من لم يسامح نفسه في قليلها، وتباعد كل البعد عنها وعن أهلها.

وقد هدتنا الآيات هذه لنهتدي، وذكرت عباد الرحمن لنقتدي، والله المستعان، ولا توفيق إلا به[1].

* * *

(١) الشهاب (ج٢، م٩) غرة شوال ١٣٥١هـ - فيفري ١٩٣٣م.

الصفة الحادية عشرة

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: الآية ٧٣] .

المناسبة:

لما وصفهم فيما تقدم بإعراضهم عن الباطل ومجانبتهم لأهله وبعدهم عنه؛ وصفهم هنا بإقبالهم على الحق وإكبابهم عليه، متفهمين مستبصرين .

الألفاظ:

ذُكِّروا : وُعِظوا ونُبِّهُوا .

بآيات ربهم : هي آيات القرآن . وفيها التذكير بآيات الأكوان التي تُرى بالعيان .

«الخرور» : هو السقوط كسقوط الساجد .

«الأصم» : فاقد حاسة السمع ، أو الذي لا يتدبر ما يسمع فلا ينتفع به ، وهو المراد هنا .

و«الأعمى» : فاقد حاسة البصر ، أي الذي لا يعتبر فيما يبصر فلا ينتفع به ، ويكون الأعمى بمعنى فاقد الإدراك القلبي ، وهو عمى البصيرة ، وما هنا يحتمل الوجهين الأخيرين .

التراكيب:

عبّر بإذا لأن التذكير مما هو واقع محقق، كالذي يُسمَعُ من القرآن في الصلاة ومن الخُطَب في الجمع.

وبنى الفعل للنائب لأن التذكير بالآيات يجب قبوله من أي مذكِّر كان.

وصمًّا وعميانًا: حال من الواو ضمير الجماعة في ﴿لَمْ يَخِرُّوا﴾، والنفي منصب على الحال التي هي قيد في الكلام.

وإذا كان الكلامُ مقيدًا بقيد كما هنا فإن النفي ينصب على ذلك القيد في غالب الاستعمال العربي.

ونظيره ما رأيتُ زيدًا راكبًا. نفيًا للركوب لا للرؤية؛ ولا يلقاني مُسَلِّمًا، نفيًا للسلام لا للقاء.

فلم ينف عنهم الخرور، وإنما نفى عنهم الصمم والعمى عند الخرور.

المعنى:

ومن صفات عباد الرحمن أنهم إذا ذَكَّرهم مُذَكِّرٌ بآيات ربهم التي أنزلها على نبيهم ﷺ بما فيها من ذكر مخلوقاته وإنعاماته، وأيامه في أوليائه وأعدائه، ووعده ووعيده، وترغيبه وترهيبه، أقبلوا عليه وأكبوا على سماعها بآذان واعية، وأبصار راعية، وقلوب حاضرة، وعقول متدبرة، لا كمن يقبلون عليها ويكبون على سماعها، ولكنهم لا يسمعون ولا يبصرون، لأنهم لا يعقلون ولا يتدبرون.

عموم الحاجة للتذكير:

بعدما ذكر تعالى من صفات عباد الرحمن ما ذكر، ذكر استماعهم للتذكير تنبيهًا على أن التذكير محتاج إليه في كلِّ حالٍ، فإذا كان الموصوفون بتلك الصفات يحتاجون إليه فغيرهم أولى، وذلك لأن الغفلة من طبع الإنسان، ودوام الغفلة صدأ القلوب، وصقالها هو التذكير.

قبول التذكير من كُلِّ مُذَكِّر:

كما تُقبل كلمةُ الحقِّ من كلِّ قائل، كذلك يُقبل التذكير من كلِّ مذكِّرٍ، ولو كان المذكَّر من كمَّل العباد والمذكِّر من أوساطهم أو أدناهم، وفي عباد الرحمن المذكورين في استماعهم إذا ذُكِّروا من أيِّ مذكِّرٍ، القدوةُ الحسنةُ.

ما يكون به التذكير:

قال اللّٰه تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: الآية ٤٥]، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: الآية ١٧]، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: الآية ٧].

فالتذكير بآيات القرآن والأحاديث النبوية، هذا هو التذكير المشروع المتبوع، والدواء الناجع المجرَّب، ولذلك تجد مواعظ السلف كلها مبنية عليه راجعة إليه، والنصح للّٰه ولرسوله وللمسلمين في لزوم ذلك والسير عليه.

أقسام الناس عند التذكير:

الناس عند تلاوة آيات القرآن على قسمين: معرضين ومقبلين.

فالمعرضون غير المؤمنين.

والمقبلون على قسمين:

مقبلين بظاهرهم دون باطنهم، ومقبلين بظاهرهم وباطنهم.

فالمقبلون بظاهرهم دون باطنهم هم المنافقون، والمقبلون بظاهرهم وباطنهم على قسمين: مستمعين مستبصرين حاضرين متدبرين، وغافلين غير متدبرين غير سامعين ولا مبصرين.

والأقسام كلها مذمومة إلا قسم المقبلين بظواهرهم وبواطنهم المستمعين المستبصرين، وهذا القسم هو الذي وصف به عباد الرحمن، فكانوا مباينين لأهل الإعراض من الكافرين والمنافقين، ولأهل الغفلة وعدم التدبر من المؤمنين.

تحذير وتنبيه:

قد صوّرت الآية حالة المؤمن بالقرآن الذي ينكب عليه ويتلقاه بالقبول، ثم لا يتفهمه ولا يتدبره، بحالة الأصم الأعمى في عدم انتفاعه بما انكب عليه تقبيحًا لعدم التفهم والتدبر من المؤمن للآيات، وتحذيرًا منه وتنبيهًا على أن الانتفاع بالقرآن الذي تتفتح به البصائر، وتتسع به المدارك، وتتهذب به الأخلاق، وتتزكى به النفوس، وتتقوم به الأعمال، وتستقيم به الأحوال، إنما يكون بتفهمه وتدبره دون مجرد الانكباب عليه بلا تفهم ولا تدبر.

أمر وإرشاد:

الآيات الدالة على طلب التدبر والتفهم لآيات القرآن العظيم كثيرة، منها هذه الآية، ومنها قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ

ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: الآية ٢٩].

فعلينا أن نحضر قلوبنا عند سماعها، ونستعمل عقولنا في فهمها، ونحمل أنفسنا على الاتعاظ بها، فإذا صدقت النية وأخلص التوجه فتح على العبد من وجوه العلم والعمل - بإذن اللَّه - بما لم يكن له في بال.

وإن اللَّه وصف هذا الكتاب بأنه مبارك لزيادة خيراته وتيسيره للذاكرين، ترغيبًا لنا في فهمه وتدبّره، واستنزال الخيرات واستزادة البركات منه.

فأقبل - يا أخي - على القرآن: على استماعه وعلى تفهمه، والزم ذلك حتى يصير عادة لك وملكة فيك - تر من فضل اللَّه وإقباله عليك ما يدنيك - إن شاء اللَّه - ويعليك، ويعود بالخير الجزيل عليك.

واللَّه نسأل لنا ولكم الإقبال على اللَّه بتلاوة وتدبر كتابه، والتأدب بجميع آدابه، حتى نحشر في زمرة أحبابه، بمنِّه وكرمه. آمين[1].

* * *

---

(١) الشهاب (ج٣، م٩) غرة ذي القعدة ١٣٥١هـ - مارس ١٩٣٣م.

الصفة الثانية عشرة

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفُرقان: الآية ٧٤] .

المناسبة:

لما وصفهم في الآيات المتقدمة بما دل على أنهم أهل خير وكمال في أنفسهم، وصفهم في هذه بما دل على محبتهم الخير والكمال لغيرهم من قرابتهم: أزواجهم وذريتهم ومن سواهم، وقدم الأزواج على الذرية لأنهم ألصق ولأنهم الأصل.

فقه هذه المناسبة:

فُطِر الإنسانُ على محبته لنفسه لتحمله هذه الفطرة على المحافظة عليها، والدفاع عنها، وتكميلها بكل وجوه الكمال، وكان من مقتضى هذه المحبة رغبته في الوجود والبقاء.

ومما هو قوة في وجوده ومظهر لبقائه أن يرى الناس على فكره وصفاته وأحواله، فيرى نفسه ممثلة في غيره، وأفكاره، وصفاته، وأحواله، باقية ببقاء الناس.

فالخيِّرُ الكاملُ من طبعه ومن مقتضى فطرته أنه يحبّ انتشار الخير والكمال في الناس.

والشرير الناقص من طبعه ومن مقتضى فطرته أنه يحب انتشار الشر والنقص فيهم، فلذا كان لازمًا لتتميم وصف عباد الرحمن ذكر محبتهم الخير والكمال لغيرهم.

ميزان مِن هذه المناسبة:

قد تخفى عليك دخيلة نفس الإنسان فيمكنك أن تعرفها بما يجري به لسانه، فإذا جرت كلماته بمحبّة انتشار الخير والكمال فهو من أهلهما، وإذا جرت بالضد فهو على الضد.

فما يحب الإنسان انتشاره هو الدليل على صفات نفسه، وهو ميزان تزنه به في الشر والخير، والنقص والكمال.

المفردات:

«الهبة»: العطاء من غير عوض، ولا تكون على الحقيقة التامة إلا من اللَّه، فهو الغني الوهاب.

«من»: ابتدائية، فمن ناحية الأزواج والذرية تكون قرة الأعين.

«الأزواج»: جمع زوج، وهو يصدق على الرجل والمرأة، والنساء شقائق الرجال.

وهذا الدعاء كما يكون من المؤمنين يكون من المؤمنات، كما تصدق الآيات المتقدمة على الموصوفين من الصنفين بتلك الصفات.

«الذرية»: ما تناسل منهم من أبنائهم وبناتهم، وقرئت بالإفراد لاتحادها في أصل النسل، وبالجمع لاختلافها في الفروع والأنساب.

«قرة الأَعْيُن» : بردها إن كانت من القر وهو البرد. وسكونها إن كانت من القرور بمعنى الاستقرار.

«الإمام» هو المتبع المقتدى به، وأُفرد لأن المراد به الجنس، وحسن الإفراد من جهة اللفظ لوقوعه فاصلة على وزان ما قبلها وما بعدها، ومن جهة المعنى أن أئمة الهدى كنفس واحدة لاتحاد طريقتهم بالسير على الصراط المستقيم، واتحاد وجهتهم بالقصد إلى اللَّه تعالى وحده.

التراكيب:

قرة أعين : تركيب كنائي.

فإذا كانت القرة من القر فهو كناية عن السرور لأن العين في حالة السرور باردة، وإذا سالت منها دموع في حالة الفرح كانت باردة.

وإذا كان الإنسان في حالة حزن، فالعين تكون سخنة بسبب ثورة النفس وآلامها التي تثير الحرارة، فإذا سالت منها دموع الحزن كانت سخنة.

ومما يقال على هذا : أقر اللَّه عين المُحِقّ وأسخن عين المبطل، وجاء عليه قول أبي تمام:

فأمّا عيونُ العاشقينَ فأُسخنتْ وأما عيونُ الشامتينَ فَقَرَّتِ

فقرة أعينهم على هذا كناية عن سرورهم بأزواجهم وذريتهم بما يرونهم عليه من الخير والكمال، وإعانتهم لهم عليهما.

وإذا كانت القرة من القرور، فهي كناية عن سكون النفس بحصولها على ما يرضيها من الأزواج والذرية، ومعنى هذا أن النفس إذا لم تحصل على ما يرضيها تعلقت بما عند غيرها، وتشوَّفت إليه فتمتد إليه العين، ويطمح إليه

البصر، وإذا حصلت على ما يرضيها زالت عن ذلك التعلقِ، وانكفت عن التشوُّف، فسكنت العين فلم تمتد إلى غير ما عندها، ولم يطمح البصر إليه.

ولهذا كما كان قرور العين كناية عن رضى النفس وسكونها، كان امتداد العين كناية عن اضطراب النفس وتشوُّفها وتعلُّقها، وعليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: الآية ١٣١].

فقرة أعينهم على هذا كناية عن رضى أنفسهم بما يكون لهم من أزواج وذرية، موصوفين بالصفات المرضية، من طاعة اللَّه في القيام بوظائف الدين والدنيا، وإعانتهم لهم على القيام بها.

المعنى:

ومن صفات عباد الرحمن أنهم يدعون ربهم يسألونه أن يهب لهم أزواجًا وذرية تقر بها أعينهم، بأن يكونوا موصوفين بمثل صفاتهم، سائرين على منهاجهم، معينين لهم على ما هم عليه، ويسألونه أن يكونوا على أكمل حال في العلم والعمل والاستقامة، يقتدي بهم فيها المتقون.

الأحكام:

الأول: التزوج وطلب النسل هو السنة، سنة النبي ﷺ، وسنة أصحابه عليهم الرضوان، وسنة عباد الرحمن، وليس من شريعته الحنيفية السمحة، الرهبانيةُ والتبتلُ[1].

---

(١) الرهبانية: منسوبة إلى رهبنة النصارى، وأصلها من الرهبة: الخوف، كانوا يترهبون بالتخلي من=

وقد رأى قوم من الزهاد رجحان الانقطاع إلى العبادة على التزوج والاشتغال بالسعي على الزوج والذرية.

فردَّ عليهم أئمة الدين والفتوى بأن في التزوج اتباعًا للسنة، وفي السعي على الأهل ما هو من أعظم العبادة.

وفي التزوج تكثير سواد الأمة، والمدافعين عن الملة، والقائمين بمصالح الدين والدنيا، وفي هذا ما فيه من الأجر والمثوبة.

وفي التبتل مخالفة السنة، وانقطاع النسل، وضعف الأمة، وتعطيل المصالح، وخراب العمرانِ، وكفى بهذا كله شرًّا وفسادًا.

الثاني: سؤال العبد من ربه أن يهب له من الزوج والذرية ما تقر به عينه، يقتضي سعيه بقدر استطاعته لتحصيل ذلك فيهما ليقوم بالسببين المشروعين من السعي والدعاء.

فعليه أن يختار ويجتهد عندما يريد التزوج،، وأن يقصد إلى ذات

= أشغال الدنيا، وترك ملاذها، والزهد فيها، والعزلة عن أهلها، وتعمد مشاقها. كما في «النهاية».
والرهبانية ليست من الإسلام في شيء، وإنما هي من ابتداع النصارى كما نص على ذلك القرآن وسنة سيّد الأنام - عليه الصلاة والسلام-.
وانظر تخريجي لأحاديث «رسالة الشرك ومظاهره» (٤) للشيخ مبارك الميلي.
والتبتل: الانقطاع عن النساء وترك النكاح. وامرأة بتول منقطعة عن الرجال لا شهوة لها فيهم. وبها سُميت مريم أم المسيح عليهما السلام. وسميت فاطمةُ البتولَ لانقطاعها عن نساء زمانها فضلًا ودينًا وحسبًا، وقيل: لانقطاعها عن الدنيا إلى اللّه تعالى. كذا في «النهاية».
وقد ثبت النهي عن التبتل في حديث سعد بن أبي وقاص. أخرجه البخاري (٥٠٧٣ و٥٠٧٤)، ومسلم (١٤٠٢).

الدين[1].

وفي اختياره واجتهاده في جانب الزوجة سعي في اختيار الولد[2]، فإن الزوجة الصالحة شأنها أن تربي أولادها على الخير والصلاح.

ثم عليه أن يقوم بتعليم زوجه وأولاده وتهذيبهم وإرشادهم، فيكون قد قام بما عليه في الابتداء والاستمرار مع دوام التضرع إلى اللَّه تعالى والابتهال.

الثالث: ما تقرُّ به الأعينُ يحصل به الفرح والسرور، فالفرح والسرور بما هو خيرٌ وطاعةٌ من حيث إنه نعمةٌ من اللَّه وفضلٌ؛ محمودٌ ومشروعٌ.

الرابع: طلب الرتب العليا في الخير والكمال والسبق إليها والتقدم فيها مما يدعونا إليه اللَّهُ ويرغبنا بمثل هذه الآية فيه، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٤٨] و[المائدة: الآية ٤٨] لأن طلب الكمال كمالٌ، ولأنّ من كانت غايته الرتب العليا إنْ لم يصل إلى أعلاها لم ينحط عن أدناها، وإن لم يُساوِ أهلها لم يبعد عنهم.

ومن لم يطلب الكمال بقي في النقص، ومن لم تكن له غاية سامية، قصر في السعي، وتوانى في العمل.

فالمؤمن يطلب أسمى الغايات حتى إذا لم يصل لم يبعد، وحتى يكون في مظنة الوصول بصحة القصد وصدق النية.

---

(١) لحديث أبي هريرة مرفوعًا: «تُنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تَربت يداك». أخرجه البخاري (٥٠٩٠) ومسلم (١٤٦٦).

(٢) كما في قوله ﷺ: «تخيَّروا لنطفكم». انظر «الصحيحةِ» (١٠٦٧) للألباني.

الخامس: مِنَ الدِّين الاقتداءُ بأهل العلم والعمل والاستقامة في الهدي والسّمت.

السادس: لا يكون الإمامُ إلا تقيًّا فاق غيره في التقوى.

السابع: أنّ اقتداء المتقين بأئمتهم إنما هو في التقوى لأنهم ما كانوا أئمة إلَّا بها.

فالآية أفادت أن المتقين يقتدون بأئمتهم، وأن أئمتهم متقون مثلهم وأكمل منهم في التقوى، وأن اقتداءهم بهم في التقوى لا في غيرها، فمن حاد عنها فلا إمامة له.

تمييز:

الخَيِّرُ الكامل المقدَّم في الخير والكمال، المقتدى به فيهما، إذا طلب الإمامة من حيث الخير والكمال نفسهما ومن حيث حمل الناس عليهما بالقدوة الصالحة له فيهما، لأن فعل الخير والاتصاف بالكمال دعوة إليهما بالعمل، وهي أبلغ من الدعوة بالقول، ومن حيث انتشارهما في الناس وسعادة الناس بهما، إذا طلب الإمامة من هذه الحيثيات فطلبه مشروع محمود وهو طلب عباد الرحمن المذكور في الآية.

وإذا طلب الإمامة والتقدم لأجل الترأس والتقدم، فهذا طلب مذموم، من عمل المتكبرين لا من عمل المتقين.

فعلى الداعي أن يميز هذا التمييز ليخلص القصد في دعائه ويكون على صواب فيه.

كلمة عظيمة من إمام عظيم:

قال مجاهد التابعي الجليل الثقة الثبت المفسر الكبير: «أئمة نقتدي بمن قبلنا، ويقتدي بنا مَن بعدنا»[١٦٧].

ذكره البخاري، ورواه ابن جرير بسند صحيح.

يعني أن الذين يقتدي بهم الناس من بعدهم هم الذين كانوا يقتدون بسلفهم الصالح من قبلهم، فالذين أحدثوا في الدين ما لم يعرفه السلف الصالح لم يقتدوا بمن قبلهم، فليسوا أهلًا لأنْ يقتدي بهم مَن بعدهم.

فكل من اخترع وابتدع في الدين ما لم يعرفه السلف الصالح فهو ساقط عن رتبة الإمامة فيه.

سلوك واقتداء:

كان الأعرابي الجاهل المشرك يأتي للنبي ﷺ فيؤمن به ويصحبه، يتعلم منه الدين، ويأخذ عنه الهدى، فيستنير عقله بعقائد الحق، وتتزكى نفسه بصفات الفضل، وتستقيم أعماله على طريق الهدى، فيرجع إلى قومه هاديًا مهديًّا، إمامًا يُقتدى به ويُؤخذ عنه، كما اقتدى هو بالنبي ﷺ وأخذ عنه.

فعلى كل مؤمن أن يسلك هذا السلوك فيحضر مجالس العلم التي تذكِّره

---

[١٦٧] صحيح كما قال المصنف:

ذكره البخاري في «صحيحه» (١٣/ ٣٠٨) معلقًا بإبهام القائل.

قال الحافظ: «وقد ثبت ذلك من قول مجاهد أخرجه الفريابي والطبري وغيرهما من طريقه بهذا اللفظ بسند صحيح، وأخرجه ابن أبي حاتم من طريقه بسند صحيح أيضًا».

بآيات اللَّه وأحاديث رسوله ما يصحح عقده، ويزكي نفسه، ويقوِّم عمله، وليطبق ما يسمعه على نفسه، وليجاهد في تنفيذه على ظاهره وباطنه، وليداوم على هذا حتى يبلغ إلى ما قدّر له من كمال فيه، فيرجع وهو قد صار قدوة لغيره في حاله وسلوكه.

وطلبة العلم الذين وهبوا نفوسهم للَّه، وقصروا أعمارهم على طلب العلم، لدعوة الخلق إلى اللَّه، هم المطالَبون على الأخص بهذا السلوك، ليصلوا إلى إمامة الحق وهداية الخلق، على أكمل حالة ومِن أقرب طريق.

فاللَّهم وفقنا واهدنا إلى سنة نبينا إذا اقتدينا وإذا اقتُدِيَ بنا. آمين يا رب العالمين[1].

* * *

(١) الشهاب (ج٦، م٩) غرة محرم ١٣٥٢هـ - ماي ١٩٣٣م.

جزاء عباد الرحمن

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ [الفرقان: الآية ٧٥- ٧٦].

المناسبة وفقهها:

لما ذكر في الآيات المتقدمة صفاتهم وأعمالهم؛ ذكر ما أعدّ لهم من عظيم الجزاء على تلك الأعمال تنبيهًا على ما وضعه تعالى بمشيئته وحكمته ورحمته من الارتباط بين هذه الأعمال وهذا الجزاء، وإفضائها إليه إفضاء السبب لمسببه، ليسعى الراجون لهذا الجزاء من طريق هذه الصفات وهذه الأعمال، كما يسعى لسائر المسببات من طريق أسبابها، وتُؤتَى جميعُ الأمور من أبوابها.

وفي هذا حثٌّ لأهل هذه الأعمال على التمسك بما هم به عاملون، وتنبيهٌ لأهل الغرور على بطلان ما هم به مغترون، و«الكيس من دان نفسه (قهرها على الطاعة وحاسبها)، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»[١٦٨].

---

[١٦٨] ضعيف:

أخرجه الترمذي (٢٤٦٤) وابن ماجه (٤٢٦٠) وأحمد (٤/ ١٢٤) والحاكم (١/ ٥٧و٤/ ٢٥١) من طرق عن أبي بكر بن أبي مريم عن ضمرة بن حبيب عن شداد بن أوس ﷺ مرفوعًا.

وقال الترمذي: «حديث حسن»!

وقال الحاكم في الموضع الثاني: «صحيح الإسناد»! ووافقه الذهبي!. =

المفردات:

يجزون : يُعطون في مقابلة أعمالهم .

الغرفة : البيت الأعلى فوق بيت ، و«ال» فيه للجنس ، فيصدق بالمتعدد .

صبروا : حبسوا نفوسهم . والباء فيه سببية .

يُلَقَّون : من لقي بمعنى يجدون و«يُلَقَّوْنَ» من لُقِّي بمعنى تلقيهم الملائكة أي تقابلهم وتتلقاهم .

تحية : دعاء بالحياة .

سلامًا : دعاء بالسلامة .

خالدين : باقين .

مستقرًّا : هو المكان الذي ينتهي إليه من غيره ويثبت فيه .

مقامًا : هو المكان الذي يقام ويمكث فيه .

= وقال في الموضع الأول : «صحيح على شرط البخاري» !
فتعقبه الذهبي في «التلخيص» بقوله :
«قلت : لا واللَّه ، أبو بكر واهٍ» .
وفي «التقريب» :
«ضعيف ، وكان قد سُرق بيتُه . فاختلط» .
وله طريق آخر : أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧١٤١) و «الصغير» (٢/ ٣٦) من طريق إبراهيم بن عمرو بن بكر السكسكي قال سمعت أبي يحدث عن ثور بن يزيد وغالب بن عبد اللَّه عن مكحول عن ابن غنم عن شداد بن أوس مرفوعًا .
وإبراهيم السكسكي : قال الدارقطني : متروك ، وقال ابن حبان :
«يروي عن أبيه الأشياء الموضوعة ، وأبوه أيضًا لا شيء» كما في «الميزان» للذهبي .

التراكيب:

جملة أولئك مستأنفةٌ بيانيًّا، فإنَّ تلك الصفات والأعمال تشوِّق السامعَ إلى معرفة مآلهم وثمرة أعمالهم فيسأل عنهما، فكانت الجملة جوابًا لذلك السؤال المقدَّر، وعرف المسند إليه بالإشارة تنبيهًا على أن استحقاقه للمسند كان بما تقدّم من صفات.

وجملة حسنت مستأنفة بيانيًّا، لأنّ من عرف حالتهم من الحياة والسلامة والبقاء يتشوف لمعرفة حال مكان هذه الحياة السالمة الباقية فيسأل عنه، فوقعت جملة حسنت موقع الجواب عن هذا السؤال المقدر، وهي إنشائية أفادت إنشاء مدح الغرف بالحسن وتعظيم ذلك الحسن.

وقدم المستقر لأن أول الحلول استقرار، والمقام ببقاء الاستقرار واستمرار المكث.

المعنى:

أولئك الذين ذُكرت صفاتُهم وأفعالُهم يُعطَون جزاء أعمالهم البيوت العلالي في الجنة بسبب صبرهم وحبسهم لأنفسهم على الطاعات والمجاهدات، وكفِّهم لها عن المعاصي والشهوات، وتتلقاهم الملائكة بالتحية والسلام، باقين في هذا النعيم المقيم، وسكنى علالي الجنة التي هي أحسن مستقرٍّ ينتهي إليه الإنسان ومقامٍ يمكث فيه.

تطبيق حديث وفقهه:

روى الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله وسلم قال:

«إنّ أهل الجنة ليتراءون أهل الغُرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق والمغرب لتفاضل ما بينهم». قالوا: يا رسول اللّٰه، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال:

«بلى- والذي نفسي بيده- رجال آمنوا باللّٰه وصدقوا المرسلين»[١٦٩].

فهذا الحديث بيّن أن أهل الغُرف هم أكملُ المؤمنين وأعلاهم درجةً في الجنة بهذا المقدار من البعد، فهم الموصوفون بالصفات المذكورة في الآيات المتقدمة على أتمها، ومن لم يكن مثلهم فيها لم يكن في منازلهم التي جُوزُوا بها عليها، وكان على حسب حظه من الإيمان في منزلة من منازل أهل الجنة الذين يتراءون أهل الغُرف.

فدرجات أهل الجنة في منازلهم على حسب سلوكهم في أعمالهم.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: الآية ٢١- ٢٢].

دلالة:

دلت الآية على السبب الذي أفضى بهم إلى هذا الجزاء العظيم وهو

---

[١٦٩] صحيح:

تقدم بتخريجه برقم (٥١).

أعمالهم، ودلت على السبب الذي تمكنوا به من القيام بهذه الأعمال وهو الصبر لقوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾.

ومن أعظم الحكمة معرفة الأسباب والمسببات وارتباط بعضها ببعض، فلا ينهض بامتثال المأمورات وترك المنهيات إلا من صبر، والصبر خلق من الأخلاق التي تتربى وتنمو بالمران والدوام.

فواجب على المكلف أن يجعل تربية نفسه عليه وتعويدها به من أكبر همه إذ لا يقوم بالتكاليف الشرعية إلا به، بل ولا يستطيع الحياة في هذه الدار الدنيا الموضوعة على المحنة والابتلاء إلا إذا تمسك بسببه.

بيان القرآن للقرآن:

في هذه الآية أنهم يُلَقَّوْنَ تحيةً وسلامًا، وقد بيّن من يتلقّاهم بذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٧٣]

فالملائكة هم الذين يتلقونهم بالسلام والدعاء لهم بالطيب، وهو مما يدخل في التحية، لأن من طيبهم طيب حياتهم.

وما أكثر ما تجد في القرآن بيان القرآن، فاجعله من بالك تهتد- إن شاء اللَّه- إليه.

اقتداء ورجاء:

هؤلاء هم السالكون وما ذكر من أعمالهم وأحوالهم هو سلوكهم، ولما سلكوا الصراط المستقيم بالعمل المستقيم انتهى بهم السير إلى أحسن قرار

ومقام، إلى دار النعيم المقيم في جوار الرحمن الرحيم.

فإذا اشْتَقْتَ إلى نهايتهم فتمسك ببدايتهم، وزن أعمالك بأعمالهم وأحوالك بأحوالهم، فإذا جعلت ذلك من همّك، وحملت عليه نفسك بصادق عزمك، وصبرت كما صبروا رجوت أن تظفر بما ظفروا.

فاللَّه نسأل لنا ولك وللمسلمين صحة الاقتداء. وصدق الرجاء، وحسن الجزاء.

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النّحل: الآية ٩٧] [1].

* * *

(١) الشهاب (ج٧، م٩) غرة صفر ١٣٥٢هـ - جوان ١٩٣٣م.

قيمة العباد عند ربهم بقدر عبادتهم

﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: الآية ٧٧] .

المناسبة:

قد أفادت الآيات السابقة كمال حال عباد الرحمن في نفوسهم وعقولهم وأخلاقهم وأعمالهم، وأفادت عظيم منزلتهم عند ربهم، ورفيع ما أُعِدَّ لهم من درجاتهم جزاءً على صالحاتهم وحسناتهم.

وجاءت هذه الآية تفيد أنّ ذلك المقام العظيم الذي كان لهم عند ربهم إنما هو بسبب عبادتهم وتعلن للناس أن عبادتهم هي الشيء الوحيد الذي يكون لهم به قدرٌ وقيمةٌ عند ربهم، وبدونها لا يكون لهم وزن عند خالقهم، ولا يكونون شيئًا يُبالى به، وأن من كذب وخلع بتكذيبه ربقة العبادة فقد حقّت عليه كلمة العذاب، وهو واقع به لا محالة.

المفردات:

ما يعبأ بكم: ما يبالي بكم.

«العبء» هو الثقل، فما عبأت به: بمعنى ما كان له عندي وزن ولا مقدار، وعبأت به: كان له عندي وزن ومقدار، وعُدِّي بالباء لأنه بمعنى ما باليتُ.

دعاؤكم: عبادتكم، من إطلاق الجزء على الكل.

كذبتم: كفرتم فلم تعبدوا.

لزامًا: ملازمًا، وأصل اللزام مصدر لازم، واختير هنا للتنبيه على أن بين المكذبين والعذاب ملازمة من الطرفين، فهم بتكذيبهم قد ألزموا أنفسهم العذاب فلازمهم العذاب.

التراكيب:

جواب (لولا) محذوف لدلالة ما تقدم، وتقدير الكلام: لولا دعاؤكم ما عبأ بكم.

وجملة ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾واقعة موقع التعليل لكلام مقدر تقديره- والله أعلم- لا يعبأ بكم فقد كذبتم، أي لأنكم قد كذبتم، فالفاء تعليلية.

وأما جملة ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ﴾ فمتسببة.

وضمير ﴿يَكُونَ﴾ عائد على العذاب المفهوم من المقام.

المعنى:

قل للذين أُرسلتَ إليهم ما يبالي بكم ربي ولا يعبأ بكم، ولا يكون لكم عنده وزن لولا إيمانكم وعبادتكم، فإذا كذبتم وكفرتم فهو لا يعبأ بكم وسوف يكون العذاب ملازمًا لكم بسبب تكذيبكم.

تحريرٌ في المخاطَب:

المخاطَبون هم الذين كذّبوا، ثم إنّ ما لحقهم بسبب التكذيب من العذاب الملازم، فهو خاص بهم وبالمكذبين أمثالهم.

وما كان موجَّهًا لهم من جهة أنهم عباد- وهو أن الله لا يعبأ بهم لولا

دعاؤهم- فهو عام لجميع العباد لمماثلتهم لهم في العبودية للّه، واستغناء اللّه عنهم، وفرض العبادة عليهم، وعدم التقدير لهم إلا بها.

تفسير أثري:

أخرج البخاري في كتاب التفسير، عن عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه قال: خمس قد مضين: الدخان والقمر والروم والبطشة واللزام[١٧٠].

ورواه في مواضع أخرى من «صحيحه».

وعنى بالدخان المذكور في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدّخَان: الآية ١٠]، وبالقمر المذكور في ﴿وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القَمَر: الآية ١]، وبالبطشة المذكورة في ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾ [الدّخَان: الآية ١٦]، وباللزام المذكور في هذه الآية.

وفسّر ابن مسعود البطشة الكبرى بيوم بدر، وفسّر اللزام به أيضًا، فهي في الحقيقة أربع، وعدّها خمسًا باعتبار الوصفين: البطش والملازمة.

وفسّر الحسن(١) اللِّزام بعذاب يوم القيامة.

---

[١٧٠] صحيح:

رواه البخاري (٤٧٦٧) ومسلم (٢٧٩٨)(٤١) بهذا اللفظ عن ابن مسعود، ورواه البخاري أيضًا - كما قال المصنف - في مواضع أخرى من «صحيحه» بالأرقام (٤٨٢٠و٤٨٢٥) مختصرًا، و(٤٨٠٩و٤٨٢١و٤٨٢٢) مطولًا بنحوه، ومسلم (٢٧٩٨) (٣٩و٤٠) أيضًا.

(١) هو الحسن البصري التابعي الجليل المتوفى سنة (١١٠هـ).

مترجم في «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٦٣- ٥٨٨) للذهبي، و«تهذيب التهذيب» (٢/ ٢٤٣- ٢٤٨) للعسقلاني.

ومن عادة السلف أنهم يفسرون اللفظ بما يدخل في عمومه دون قصدٍ للقصر عليه، ولا منافاة حينئذ بين التفسيرين فيكونون قد تُوُعِّدوا على تكذيبهم بلزوم عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

ترهيب:

رتب لزوم العذاب على التكذيب، فأعظم العذاب لأكمل التكذيب، وهو تكذيب الكفر، ثم أصناف العذاب لازمة لتكذيب العصيان بالعدل والحكمة في التقسيم والترتيب.

استنباط:

لما كانت مقادير العباد عند ربهم بحسب عبادتهم، فالأنبياء عليهم السلام أعلى الناس منزلة عند اللَّه هم أعظمهم عبادة للَّه، وهم أتقاهم له وأشدهم خشية منه.

وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه مالك وغيره: «**واللَّهِ إني أرجو أن أكون أخشاكم للَّه وأعلمكم بما أتقي**»[١٧١].

---

[١٧١] صحيح:

قطعة من حديث رواه مالك (٢/ ١٥٨-١٥٩/ ٦٤٨) ومن طريقه أبو داود (٢٣٨٦) إلا أنه قال: «أتّبع» بدل من «أتّقي» عن عبد اللَّه بن عبد الرحمن بن معمر الأنصاري عن أبي يونس مولى عائشة عن عائشة أن رجلًا قال لرسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم وهو واقف على الباب وأنا أسمع: يا رسول اللَّه، إني أصبح جنبًا وأنا أريد الصيام، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «وأنا أصبح جنبًا وأنا أريد الصيام فأغتسل وأصوم» فقال له الرجل: يا رسول اللَّه، إنك لست مثلنا قد غفر اللَّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر!

فغضب رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم وقال: «فذكره». =

وقال أيضًا: «**والله إني لأتقاكم لله وأعلمكم بحدوده**»[١٧٢].

سؤال استطرادي وجوابه:

كيف يخشى وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟

أجاب العلماء عن هذا بأجوبة:

منها: أنه لا يخشى العقاب ولكنه يخشى العتاب.

ومنها- وهو قول الأكثر-: أنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر بشرط امتثاله لما أمر به.

ذكر هذين ابن العربي في «القبس»[١].

= ورواه مسلم (١١١٠) والنسائي في «الكبرى» (٣٠٢٥و١١٥٠٠) من طريق عبد الله بن عبد الرحمن به.

وزاد الحافظ في «الفتح» (٤/ ١٨٨) نسبته لابن خزيمة وابن حبان.

[١٧٢] صحيح:

قطعة من حديث رواه مالك (٢/ ١٦٣/ ٦٥١) عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار أن رجلًا قبّل امرأته وهو صائم في رمضان فوجد من ذلك وجدًا شديدًا فأرسل امرأته تسأل عن ذلك، فدخلت على أم سلمة زوج النبي ﷺ فذكرت ذلك لها، فأخبرتها أم سلمة أن رسول الله ﷺ يقبّل وهو صائم، فرجعت فأخبرت زوجها بذلك فزاده ذلك شرًا وقال: لسنا مثل رسول الله ﷺ! الله يُحِلُّ لرسول الله ﷺ ما شاء، ثم رجعت امرأته إلى أم سلمة فوجدت عندها رسول الله ﷺ فقال: ما لهذه المرأة؟ فأخبرته أم سلمة، فقال رسول الله ﷺ: «ألا أخبرتيها أني أفعل ذلك»، فقالت: قد أخبرتها، فذهبت إلى زوجها فأخبرته، فزاده ذلك شرًا وقال: لسنا مثل رسول الله ﷺ، والله يحل لرسول الله ما شاء، فغضب رسول الله ﷺ وقال:

«والله إني لأتقاكم لله وأعلمكم بحدوده».

وهذا إسناد مرسل، وقد وصله عبد الرزاق في «المصنف» (٤/ ١٨٤/ ٨٤١٢) ومن طريقه أخرجه أحمد (٥/ ٤٣٤) عن رجل من الأنصار، وإسناده صحيح كما قال الحافظ في «الفتح» (٤/ ١٩٣).

(١) في (٣/ ٤٩٠- ط١، دار الغرب الإسلامي).

ومنها: أنها خشية الإجلال ومشاهدة عظمة الربوبية، وأنه لا يجب عليه تعالى شيء.

وهذان الحديثان الصحيحان من الأدلة الصريحة عند أهل العلم على أن العبادة الشرعية الإسلامية لا تتجرد من الخوف حتى عبادة أفضل الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين.

تعليل:

الإنسانُ مُهَيَّأٌ للكمال بما فيه من الجزء النوراني العلوي وهو روحه، ومعرَّضٌ للسقوط والنقصان بما فيه من أخلاط عناصر جزئه الأرضي الظلمائي وهو جسده.

ولا يخلص من كدرات جثمانه، ولا ينجو من أسباب نقصانه إلا بعبادة ربه التي بها صفاء عقله وزكاء نفسه وطهارة بدنه في ظاهره وباطنه.

فبعبادة ربه يكمل فيرقى في مراتب الكمال ويدنو من الملأ الأعلى عند الرب الأعلى ذي الجلال والإكرام.

فاللَّه طيب لا يقبل إلا الطيب.

و﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فَاطِر: الآية ١٠] ولا طيب ولا كمال إلا للعابدين، فلا قيمة ولا قبول لغيرهم عند رب العالمين.

إرشاد وتحذير:

قد بيّن لك الطريق الذي يوصلك إلى مولاك، ويرقيك في مراتب كمالك وعلاك، وما هو إلا عبادة ربِّك، فكن عبدًا له في اختيارك واضطرارك، وفي

جميع أحوالك.

واحذر أن تعتمد على شيء غير عبادته.

واحذر أن تتوجه بشيء من عبادتك لغيره.

ومن عبادتك- بل هو مخ عبادتك- دعاؤك وسؤالك واستغاثتك، فإيَّاك إيَّاك أن تتوجه بشيء منه لغيره.

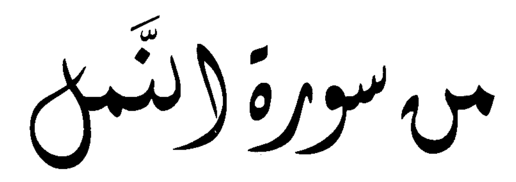
فكن دائمًا عبدًا للَّه، وكن دائمًا عبدًا له وحده، فذلك حقه عليك، وذلك السبب الوحيد الذي ينجيك ويعليك.

واللَّه نسأل أن يقصرنا على عبادته، ويديمنا على الإخلاص في التوجه إليه، حتى نلقاه على ملّة الإسلام، وهدى عباده الصالحين. آمين يا رب العالمين[1].

* * *

(١) الشهاب (ج٨، م٩) غرة ربيع الأول ١٣٥٢هـ - جويلية ١٩٣٣م.





تفسير الآيات (١٥- ٢٦)



ملك النبوة
مجمع الحق والخير، ومظهر الجمال والقوة

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النَّمل: الآية ١٥].

تمهيد:

النبوة منزلة من الكمال التام البشري يهيئ اللَّه لها من يشاء من عباده، فيكون بذلك مستعدًّا لتلقي الوحي والاتصال بعالَم الملائكة، ولتحمل أعباء ما يلقى إليه، وتكاليف تبليغه بالقول والعمل، وتحمُّل كل بلاء يلقاه في سبيل ذلك التبليغ.

والمُلك ولاية على المجتمع لحفظ نظامه، تقتضي عموم النظر، وشمول التصرف في روابط الناس ومعاملاتهم وتصرفاتهم، وتسييرهم في ذلك كله على أصول عادلة توصل كل أحد إلى حقه، وتكفه عن حق غيره، ليعيشوا في رخاء وسلام، ويبلغوا غاية ما يستطيعون من متع الحياة.

وقد يتصف الشخص بالنبوة دون المُلك فيكون مبَلِّغًا عن اللَّه، ولا يكون له التنفيذ والإدارة والتنظيم.

وقد يتصف الشخص بالملك دون النبوة.

وقد وُجد الشخصان في شمويل وطالوت، فكان الأول نبيًّا وكان الثاني

ملِكًا كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٤٧].

وقد يجمع بينهما مثل داود وسليمان عليهما السلام.

ثم إن الملك قد تكون الأصول التي يستند إليها مستمدة من أوضاع البشر لحفظ مصالحهم في الحياة الدنيا، فيكون ملكًا بشريًّا.

وقد تكون تلك الأصول مستمدة من وحي اللَّه بما فيه حفظ مصالح العباد في الدنيا، وتحصيل سعادتهم فيها، وفي الأخرى، فيكون ملك نبوة.

ومن طبيعة ملك النبوة التزام الحق ونصرته حيثما كان، بإقامة ميزان العدل، في القول، والحكم، والشهادة بين الناس أجمعين، المعادين والموالين، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعَام: الآية ١٥٢].

﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النِّساء: الآية ٥٨].

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المَائدة: الآية ٨].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النِّساء: الآية ١٣٥].

وبالوفاء بالعقود والعهود بين الأفراد والجماعات كما قال تعالى: ﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المَائدة: الآية ١].

﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ۚ﴾ [الأنعام: الآية ١٥٢] .

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النّحل: الآية ٩١] .

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍۚ﴾ [النّحل: الآية ٩٢] .

وبغير هذا من وجوه التزام الحق ونصرته .

ومن طبيعته بث الخير بين الناس ، بنشر الهداية والإحسان ، دون تمييز بين الأجناس والألوان ، كما قال تعالى : ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحجّ: الآية ٧٧] .

﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرَة: الآية ١٩٥] .

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المُمتحنَة: الآية ٨] .

ومن طبيعته الدعوة إلى القوة ، والتنويه بها ، وبناء الحياة عليها ، لكن في نطاق العدل والرحمة ، ولدفاع المعتدين ، كما قال تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: الآية ٦٠] .

﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: الآية ٢٥] .

وقبلها : ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِۖ﴾ [الحديد: الآية ٢٥] .

فقوة الحديد لحفظ الكتاب والميزان ، وحمل الناس عليهما .

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٩٤] .

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الآيات [الشورى: الآيات ٣٩- ٤٠] .

ومن طبيعته الدعوة إلى الجمال والتحبيب فيه في جميع مظاهر الحياة، لكن في نطاق الفضيلة والعفاف، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التِّين: الآية ٤] .

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غَافر: الآية ٦٤] و[التغابن: الآية ٣] .

﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾[1] [السجدة: ٧] .

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصَّافات: الآية ٦] .

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾ [يُونس: الآية ٢٤] .

﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النَّمل: الآية ٦٠] .

﴿مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحجّ: الآية ٥] و[ق: الآية ٧] .

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ﴾ [الأعرَاف: الآية ٣٢] .

﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ﴾ [المَائدة: الآية ٥] .

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ

---

(١) في الأصل زيادة «ثم هدى»! ولا أصل لها هنا، وإنما هي في قوله تعالى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: الآية ٥٠] .

بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النُّور: الآية ٣٠] .

ومن طبيعة الملك البشري- وإن روعيت في أوضاعه هذه الأصول الأربعة- أنه لا يقيم ميزان العدل بين أبناء المملكة وغيرهم، فتراه يكيل لهؤلاء بمكيال، ولهؤلاء بمكيال، ولا يرعى من العهود- في الغالب- إلَّا ما لا يعارض مصلحته، أو تلزمه بمراعاته قوة خصمه .

كما أنه يكاد يقصر بره وإحسانه على أبناء جلدته ومن كانوا من جنسه ولونه .

كما أنه يبني أمره على القوة المطلقة فتندفع مع رغباته إلى أقصى ما يمكنها أن تصل إليه، فيكون البغي والتسلط والعدوان .

كما أنه تستهويه زينة الحياة الدنيا وزخارفها، فتمتد يده إليها حيثما وجدها، فتتنازعها الأيدي بالقوة والحيلة، وتذهب في أفانينها الشهوات بالناس إلى النقص والرذيلة .

ثم إن من طبيعة الملك من حيث إنه ملك- سواء أكان بشريًّا أم نبويًّا- مظاهر الأبهة والجمال والقوة والفخامة، لما جبل عليه الخلق من اعتبار المظاهر والتأثر بها .

وهذا إذا كان في الحق فهو محمود مطلوب، وإذا كان للباطل والبغي والتعظيم النفسي فمذموم متروك .

ومن الأول أمر النبي ﷺ عمَّه العباس رضي الله عنه أن يحبس أبا سفيان عند خطم الجبل حتى تمر عليه كتائب المسلمين، وذلك لإدخال الرعب على قلبه

بما يرى من النظام والقوة، فحبسه العباس، فجعلت الكتائب تمر به فيسأل العباس عن كل كتيبة، فإذا أخبره قال: ما لي ولبني فلان، حتى مر الرسول ﷺ في كتيبته الخضراء وفيها المهاجرون والأنصار، لا يُرى منهم إلَّا الحدق من الحديد، فقال: من هؤلاء؟ فقال العباس: هذا رسول اللَّه ﷺ في المهاجرين والأنصار، فقال أبو سفيان: ما لأحدٍ بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقةٌ، لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيمًا، قال العباس: فقلت له: إنها النبوة. فقال: فنعم إذن[١٧٣].

قصد أبو سفيان عظمة الملك القاهر التي كان يعرفها من الأكاسرة وأمثالهم، فنفى ذلك العباس وردَّه إلى النبوة التي هي أصل تلك القوة، وذلك الملك النبوي المستند إلى الوحي الإلهي، ولم يُرد نفي الملك جملة.

ومنه ما كان من معاوية بالشام، لما قدم عليه عمر وجده في أبهة من الجند والعدة فاستنكر ذلك، وقال له: أكسروية يا معاوية؟ فاعتذر معاوية بأنهم في

---

[١٧٣] صحيح:

رواه الطبراني عن ابن عباس ورجاله رجال الصحيح كما قال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ١٦٧).

وعزاه البوصيري في «إتحاف الخيرة المهرة» (٥/ ٢٤٠- ٢٤٢/ ٤٦٠٣) لإسحاق بن راهويه وقال: «قال شيخنا أبو الفضل العسقلاني - ومن خطه نقلتُ - : هذا حديثٌ صحيحٌ».

ولبعضه شاهد عن عروة مرسلًا عند البخاري (٤٢٨٠).

و(خطم الجبل): بفتح الخاء المعجمة وسكون المهملة وبالجيم والموحدة: أي أنف الجبل.

وفي رواية: (حطم الخيل) بفتح المهملة من اللفظة الأولى وبالخاء المعجمة وسكون التحتانية أي ازدحامها.

قال الحافظ: «وإنما حبسه هناك لكونه مضيقًا ليرى الجميع ولا يفوته رؤية أحدٍ منهم». «الفتح».

و(الحدق): جمع حدقة وهي العين.

ثغر تجاه العدو، وأنهم في حاجة إلى مباهاة العدو بزينة الحرب والجهاد، فسكت عمر وأقره[١٧٤].

فذلك المظهر من مظاهر طبيعة الملك من حيث هو ملك، وإنما أنكره عمر لما خاف فيه من تعظُّم واستعلاء وإعجاب، فلما كان للحق والمصلحة أقره.

ومن أقوى الأدلة على أن تلك المظاهر إذا كانت للحق والمصلحة فهي محمودة مطلوبة، ما قَصَّهُ اللَّهُ علينا في هذه الآيات عن مُلك سليمان نبيّ اللَّه- عليه الصلاة والسلام-.

نعم، في «مسند أحمد» أن النبي ﷺ خُيِّر من(١) أن يكون نبيًّا مَلِكًا أو يكون نبيًّا عبدًا، فاختار أن يكون نبيًّا عبدًا[١٧٥].

---

[١٧٤] ؟:

أخرجه ابن أبي الدنيا - كما في «البداية والنهاية» (٨/ ١٢٥) لابن كثير - قال حدثني أبي عن هشام بن محمد عن أبي عبد الرحمن المدني قال: كان عمر بن الخطاب - إذا رأى معاوية قال: هذا كسرى العرب.

والعلم عند اللَّه تعالى.

(١) كذا في الأصل!

[١٧٥] صحيح:

أخرجه أحمد (٢/ ٢٣١) عن أبي هريرة قال: جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء فإذا مَلَكٌ ينزل، فقال جبريل: إن هذا المَلَك ما نزل منذ يوم خُلِق قبل الساعة.

فإذا نزل قال: يا محمد، أرسلني إليك ربك، أفملكًا نبيًّا يجعلك، أو عبدًا رسولًا؟ قال جبريل: تواضع لربك يا محمد؟ قال: «بل عبدًا رسولًا».

وإسناده صحيح على شرط مسلم كما قال الألباني في «الصحيحة» (١٠٠٢). =

وكان ذلك تواضعًا منه.

ولا ينفي هذا أنه ﷺ، كما كان مبلِّغًا عن اللَّه تبارك وتعالى، كان قائمًا على الحكم والتنفيذ، وإدارة الشؤون العامة، وتنظيم المجتمع، مما يُسَمَّى ملكًا نبويًّا مستندًا إلى الوحي الإلهي؛ لأن التخيير راجع إلى حالته الشخصية الكريمة، فخيّر بين أن يكون لشخصه من مظاهر الملك مثل ما كان سليمان، أو لا تكون له تلك المظاهر، فاختار أن لا تكون، وأن يكون مظهره مظهرًا عاديًّا مثل مظهر العبد العادي، كما أن سليمان- عليه الصلاة والسلام- الذي كان مَلِكًا نبيًّا لم ينف ذلك عنه العبودية، وإنما ينفي عنه مظهرها العادي.

فهما حالتان للقائمين على الملك جائزتان، كان على إحداهما سليمان، وعلى الأخرى محمد، -عليهما الصلاة والسلام-، وحالة أفضل النبيين أفضل الحالتين، وقد اختار عمر رضي الله عنه الفضلى، وأقر معاوية على الفاضلة الأخرى.

ولما كان محمد ﷺ جاء بملك النبوة كان القرآن العظيم جامعًا للأصول التي ينبني عليها ذلك الملك، وجاء فيه مثل هذه الآيات التي نكتب عليها ليبين صورة من صور ملك النبوة ومظهرًا صادقًا من مظاهره فيما قصت علينا من ملك

= ورواه البزار (٢٤٦٢- كشف الأستار) وأبو يعلى (٦١٠٥) وعنه ابن حبان في «صحيحه» (٢١٣٧- الموارد).

وقال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ١٨):

«رواه أحمد والبزار وأبو يعلى ورجال الأولين رجال الصحيح».

وصححه الشهاب الخفاجي في «نسيم الرياض» (٢/ ٩٤).

سليمان عليه السلام .

وهي ثلاثون آية من الآية الخامسة عشرة من سورة النمل إلى الآية الرابعة والأربعين منها .

* * *

الآية الأولى وهي: ١٥

الألفاظ والتراكيب:

علمًا : نوعًا عظيمًا ممتازًا من العلم، جمعا به بين الملك والنبوة، وقاما بأمر الحكم والهداية.

وقالا : قولهما متسبب وناشئ عن العلم، لكنه لو قيل : «فقالا» بالفاء لَمَا أفاد أن غير القول تسبب منهما عن العلم، ولما عطف بالواو دل على أن هنالك أعمالًا كثيرة عظيمة كانت منهما في طاعة اللَّه وشكره نشأت عن العلم، وعليها عطف قولهما هذا.

وفضلنا : أعطانا ما فُقْنا به غيرنا.

على كثير : فهنالك كثير لم يفضلا عليه ممن ساواهما أو فاقهما.

من عباده المؤمنين : ففضلا بين أهل الفضل، فكانا من أفضل الفاضلين، وذلك بما أعطيا من النبوة وملكها.

المعنى:

يخبرنا اللَّه تعالى عما أعطى لهذين النبيين الكريمين من هذا الخير العظيم، وعما كان منهما من الشكر له- والمعرفة بعظيم قدر عطائه، وإظهار السرور به مع الاعتراف لغيرهما بما كان من مثله أو نحوه، ومن إعلانهما ما كان للَّه عليهما من نعمة التفضيل العظيمة بحمده والثناء عليه.

تنويه وتأصيل:

قد ابتُدئ الحديثُ عن هذا الملك العظيم بذكر العلم، وقدمت النعمة به على سائر النعم تنويهًا بشأن العلم وتنبيهًا على أنه هو الأصل الذي تنبني عليه سعادة الدنيا والأخرى، وأنه هو الأساس لكل أمر من أمور الدين والدنيا، وأنّ الممالك إنما تبنى عليه وتشاد، وأن الملك إنما ينظم به ويساس، وأن كل ما لم يُبْنَ عليه فهو على شفا جُرُفٍ هارٍ، وأنه هو سياج المملكة ودرعها، وهو سلاحها الحقيقي وبه دفاعها، وأنَّ كل مملكة لم تُحْمَ به فهي عرضة للانقراض والانقضاض.

إحماض[1]:

قال أبو الطيب المتنبي[2] :

أعلى الممالِكِ ما يُبنى على الأسلِ[3] والطعنُ عند مُحِبِّيهِنَّ كالقُبَلِ

نعم، إنّ محبِّي الممالك الصادقين في محبتها، والذين تصلح لهم، ويصلحون لها، هم الذين يستعذبون في سبيلها الموت، ويكون الطعن عندهم مثل القُبَل على ثغور الحسان.

فأما الممالك التي تُبنى على السيف فبالسيف تُهدم، وما يُشاد على القوة

(١) الإحماض: الإفاضة فيما يؤنس من الحديث والكلام.

(٢) هو أحمد بن الحسين الكوفي، أبو الطيب المتنبِّي، شاعر حكيم، أحد مفاخر الأدب العربي. له ديوان شعر مطبوع، ومشروح شروحًا وافية. توفي سنة (٣٥٤هـ). الأعلام (١/ ١١٥).

(٣) أي: الرِّماح والنبل.

فبالقوة يُؤخذ.

وإنما أعلى الممالك وأثبتها ما بُني على العلم وحُمي بالسيف، وإنما يبلغ السيف وطره ويؤثّر أثره إذا كان العلم من ورائه.

ولكن أبا الطيب شاعر الرجولة والبطولة، شاعر المعارك والمعامع، لا يرى أمامه إلَّا الحرب وآلات الطعن والضرب، فلا يمكن أن يقول- وقد غمرته لذة الانتصار، واستولت نشوة الغلب والظفر على لبّه وخياله- إلَّا ما قال.

فقه وأدب:

يجوز لمن أنعم اللَّهُ عليه بنعمةٍ وفضّله بفضيلةٍ أن يفرح بتلك النعمة، ويظهر فرحه بها في معرض حمد اللَّه عليها، من حيث أنها كرامة من اللَّه، لا من حيث أنها مزية من مزاياه فاق بها سواه، مثلما فعل هذان النبيان الكريمان[1]، وكما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يُونس: الآية ٥٨].

وكثيرًا ما يكون التفات المرء إلى نفسه حاجبًا له من غيره، فيذكر من شأنه ما أفرحه ويسكت عن غيره، وفيهم من هو مثله ومن يفوقه، فقد يجرّ هذا إلى عُجب بنفسه وغمط لحق من عداه.

فلهذا كان من أدب مقام الفرحِ بنعمة اللَّه وحمدِه عليها ذكرُ نعمته العامة عليه وعلى غيره، والإشارةُ إلى من فُضِّلوا عليه، فيكبح من نفسه بتذكيرها بقصورها، ويُرضي اللَّهَ باعترافه لذي الفضل بفضله، وحكمة اللَّه وعدله،

(١) في الأصل: هذين النبيين الكريمين!

وبوقوفه كواحد ممن أنعم عليهم من عباده .

إرشاد وإشادة:

أذكارُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، من حمد وتسبيح وتهليل وغيرها، أفضلُ الأذكار وأجمعُها وأسلمُها، وقد اشتمل الكتاب العزيز على كثير منها .

فعلى المسلم الحريص على الخير بها علمًا وعملًا .

فقد رأيت ما يحفّ بإظهار الفرح بنعمة اللَّه من مخاطر إذا لم يتنبه لها .

وقد جاء هذا الحمد النبوي محصلًا للقصد، سالمًا من كل خطره، بعباراته الموزونة الشاملة التي لا يصدر مثلها إلَّا منهم، لكمال علمهم وأدبهم، عليهم الصلاة والسلام[١] .

* * *

(١) الشهاب (ج٢، م١٥) غرة صفر ١٣٥٨هـ - مارس ١٩٣٩م .

الآية الثانية وهي ١٦ من سورة النمل

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النَّمل: الآية ١٦] .

الألفاظ والتراكيب:

الإرث: انتقال ما كان للميِّت إلى الحي فيقوم فيه الوارث مقام الموروث، سواء أكان مالًا أو ملكًا أو علمًا أو مجدًا، والمراد هنا الملك والنبوة.

عُلِّمنا: أُعطينا العلم، ولم يذكر المُعلِّم- وهو اللَّه- للعلم به، فإن هذا التعليم ليس من معتاد البشر ولا من طوقهم.

منطق الطير: نطقها وهو تصويتها، وقد يطلق النطق على كل ما يصوت به الحيوان، فالحيوان ناطق، والجماد صامت.

وأوتينا: أعطينا، والنون في الفعلين للعظمة إذ هي حالته التي هو عليها.

من كل شيء: هو على معنى التكثير، أو على معنى العموم الحقيقي فيما تقتضيه تلك العظمة مما يؤتاه الأنبياء والملوك.

الفضل: الزيادة.

المبين: الظاهر الذي لا خفاء به.

المعنى:

قام سليمان مقام أبيه داود- عليهما الصلاة والسلام-، فكان في بني

إسرائيل من بعد نبيًّا ملكًا .

وأراد سليمان أن يشهر نعمة اللَّه عليه وينوِّه بها ، ويدعو قومه إلى الإيمان به وطاعته، فدعا الناس، وذكر لهم ما خصَّه اللَّه به من علم منطق الطير، وعظائم الأمور، مما هو خارق للعادة، معجز للبشر، آية على نبوته، وتحداهم بذلك الفضل الذي امتاز به عن جميع الناس، وهو مشاهَدٌ لهم، لا يمكنهم إنكاره كما لا تمكنهم معارضته .

فقه وتحقيق:

من ميزة الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- أنهم يخرجون من الدنيا دون أن يتعلقوا بشيء منها ، فلا يورِّثون دينارًا ولا درهمًا ، وإنما يُورِّثُون العلم(١) .

وفي الصحيح : «**إنَّا معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة**»[١٧٦] .

---

(١) كما في قوله ﷺ : «من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهّل اللَّه له طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع ، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا ، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر». أخرجه أبو داود (٣٦٣٦) وغيره بسند حسن .

[١٧٦] صحيح :

روي بلفظ : «لا نورَث، ما تركنا صدقة» عن جماعة من الصحابة ﷺ، منهم :

١- أبو بكر الصديق: رواه البخاري (٣٠٩٣) ومسلم (١٧٥٧و١٧٥٩) .

٢- عمر بن الخطاب: رواه البخاري (٣٠٩٤) ومسلم (١٧٥٧) .

٣- عائشة: رواه مالك (١٩٣٥) ومن طريقه البخاري (٦٧٣٠) ومسلم (١٧٥٨) .

٤- أبو هريرة: رواه مسلم (١٧٦١) .

نعم، روي بلفظ المصنف «إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركنا فهو صدقة» خارج «الصحيح»=

فلم يرث سليمان من داود مالًا، وإنما ورث ما نوَّه به من العلم والملك، وما دل عليه ذلك من النبوة، وقد خصصه اللَّه بذلك دون بقية إخوته.

تفرقة:

الشيء الموروث: إن كان من أمور الدنيا وأعراضها، ومتناولات الأبدان ومتصرفاتها، فإنه ينتقل بذاته من الميت إلى الحي، وينقطع عنه ملك الميت.

وما كان من صفات الروح فإنه لا يفارق الميت- لبقاء الروح- وإنما يقوم الحي مقام الميت في أداء ما كان يؤديه الميت من أعمالٍ متصفًا بمثل ما كان متصفًا به الميت، متحليًا بمثل حليته.

فإرث سليمان للملك هو من المعنى الأول، فداود بعد موته لم يبق ملكًا، وإرثه للعلم والنبوة هو من المعنى الثاني، فداود بعد موته على علمه ونبوته.

تفرقة أخرى:

إذا كان الموروث مالًا فإنه يُستَحقُّ بالقرابة شرعًا.

وإذا كان علمًا أو نبوةً أو ملكًا فإنها لا تُستَحقُّ بها.

= فأخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٦٣٠٩) عن عمر بن الخطاب مرفوعًا وإسناده صحيح رجاله ثقات.

وأخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٥٧٥) عن أبي بكر الصديق مرفوعًا وقال:

«لم يرو هذا الحديث عن عبد الملك بن عمير إلا تليد بن سليمان، تفرد به أبو موسى الأنصاري».

قلت: وهذا إسناد ضعيف: تليد «رافضي ضعيف».

وعبد الملك «ثقة فصيح عالم تغير حفظه، ربما دلس».

والجملة الأولى عند أحمد (٢/ ٤٦٣) من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح.

وانظر - غير مأمور - «فتح الباري» (١٢/ ١١) للحافظ.

فلم يرث سليمان من داود ما ورثه منه لأنه ابنه، وإنما كان ذلك تفضلًا من اللَّه ونعمة.

ولهذا لما دعا سليمان الناس لم يذكر لهم أبوة داود، وإنما ذكر لهم ما كان به أهلًا لمقامه مما خصَّه اللَّه به من علم وقوة ومظاهر الملك ومعجزة النبوة.

عجائب الخلقة وحكمة العربية:

للحيوانات كلها فهم وإدراك وأصوات تدل بها على ما في نفسها، وتتفاهم بها أجناسها بعضها عن بعض.

ومن تلك الأصوات ما يكون أخفى من أن يصل إليه سمعنا، ومنها ما نسمعه، ومما نسمعه ما نفهم مرادها به، ومنه ما لا نفهمه، فلا نسمع صوت النملة، ولكننا نسمع صوت الهرة- مثلًا- ونميز بين صوتها الذي تدل به على غضبها، وصوتها الذي تدل به على طلبها.

وفي مملكة النمل ومملكة النحل- مثلًا- من النظام والترتيب والتقدير والتدبير ما لا يبقى معه شك فيما لهذه الحيوانات من إدراك وتمييز، وما بينها من تفاهم، بل كثير من الحيوانات تصير بالترويض تفهم عنّا كثيرًا من العبارات والإشارات، وتأتي بالأعمال العجيبة طبق ما يراد منها وتدل عليه.

فهذا أصل ما بلغت إليه من إدراكها ونطقها اللذين أخبرنا بهما القرآن.

وتلك الغاية من الإدراك والنطق لا سبيل لنا إليها لاختلاف الخلقة وجهل مدلولات الأصوات، وقد أدركها سليمان -عليه الصلاة والسلام- بتعليم من اللَّه كرامةً له، وآيةً على نبوته، ومعجزةً للناس.

فمن حكمة اللغة العربية الشريفة أن سَمَّتْ أصواتَ الحيواناتِ نطقًا كما سَمَّتْ- في المتعارف- اللفظَ الذي يعبّر به عمّا في الضمير نطقًا، لأن الأصوات لغير الإنسان تقوم مقام الألفاظ للإنسان، فهي طريق تفاهمها، وطريق فهم ما يمكن لإنسان فهمه عنها.

فللَّه هذه اللغة ما أعمق غورها، وما أدق تعبيرها!

نظر وإيمان:

قد شوهد بالعيان في أنواع من الحيوانات حسن تدبيرها لأمر معاشها، ودقة سعيها في جلب منافعها ودفع مضارها، فمن الجائز أن يصل إدراكها بالفطرة إلى ما وراء ذلك من وجود خالقها ورازقها.

وهذا هو الذي أخبرنا به القرآن في هذه الآيات من أمر النملة وأمر الهدهد الآتيين من بعد، فنحن به مؤمنون لجوازه عقلًا وثبوته سمعًا، مثل سائر السمعيات.

تمييز:

قد شارك الحيوانُ الإنسانَ في الإدراك والتمييز، وبلغ إدراكه إلى معرفة وجود خالقه ورازقه، ولكن الإنسان يمتاز عنه بقوة التحليل والتركيب لكل ما يصل إِليه حسه وإدراكه، وتطبيق ذلك على كل ما تمتد إليه قدرته ويكون في متناول يده.

فمن ذلك التركيب والتحليل والتطبيق تغلّب على عناصر الطبيعة، وتمكّن من ناصيتها، واستعمل حيوانها وجمادها في مصلحته، ورقى أطوار التقدم في

حياته.

ولفقد الحيوان غير الإنسان هذه القوة بقي في طور واحد من حياته ومعيشته.

فإدراك الحيوان فطري إلهامي يعطاه من أول الخلقة، والإنسان يعطى أصل الإدراك الإجمالي، ثم بتلك القوة يتسع أفق إدراكه ويستمر في درجات التقدم.

وهذه القوة التي يمتاز بها الإنسان هي العقل، وهي التي ساد بها هذا العالم الفاني.

توجيه:

ذكر سليمان- عليه الصلاة والسلام- منطق الطير، وهو قد علم منطق غير الطير أيضًا، فقد فهم نطق النملة، ذلك لأن الحيوانات غير الإنسان مراتب: الزاحفة، والماشية، والطائرة، وأشرفها الطائرة، فاقتصر على الطير تنبيهًا بالأعلى على الأدنى.

تنزيه وتبيين:

عبّر سليمان- عليه الصلاة والسلام- عن نفسه بنون العظمة، ونوّه بذلك الفضل المبين، وما كان ﷺ ليتعظم بسلطان، ولا ليتطاول بفضل.

فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام أشدُّ الخلقِ تواضعًا للَّه، وأرحمُهم بعباده.

وإنما أراد تعظيم نعمة اللَّه في عيون الناس، وتفخيم ملك النبوة في قلوب

الرعية، ليملأ نفوسهم بالجلال والهيبة، فيدعوهم ذلك إلى الإيمان والطاعة، فينتظم الملك، ويهنأ العيش، وتمتد بهم أسباب السعادة إلى خير الدنيا والآخرة.

وهذا هو الذي توخاه سليمان- عليه الصلاة والسلام- من المصلحة بإظهار العظمة، ولذا لم يقل: علمتُ، ولا لي، وعندي من كل شيء، ولم يقل: فضلي، فهو فضلُ مَنْ علّمه وآتاه، فضّله به عمن سواه.

ترغيب واقتداء:

يذكر اللَّه تعالى لنا في شأن هذا النبي الكريم ما أعطاه من علم، وما مكنه منه من عظيم الأشياء، ترغيبًا لنا في طلب العلم والسعي في تحصيل كل ما بنا حاجة إليه من أمور الدنيا، وتشويقًا لنا إلى ما في هذا الكون من عوالم الجماد وعوالم الأحياء، وبعثًا لهممنا على التحلي بأسباب العظمة من العلم والقوة، وحثًّا لنا على تشييد الملك العظيم الفخم على سنن ملك النبوة.

فقد كان سليمان- عليه الصلاة والسلام- نبيًّا، وما كان ملكه ذلك إلّا بإذن اللَّه ورضاه، فهو فيما ذكره اللَّه من أمره قدوة، وأيّ قدوة مثل سائر الأنبياء والمرسلين- عليهم الصلاة والسلام أجمعين-[1].

* * *

(١) الشهاب (ج٣، م١٥) غرة ربيع الأول ١٣٥٨هـ - أفريل ١٩٣٩م.

الآية الثالثة وهي ١٧ من سورة النمل

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النَّمل: الآية ١٧]

الألفاظ والتراكيب:

الحشر: الجمع من أماكن متفرقة.

جنوده: هم المنتظمون في سلك عسكريته، فجُمعوا له عند الحاجة إليهم في سفر أراده.

يوزعون: يكفون عن الخروج عن النظام في السير، فيمنع أولهم من سبق آخرهم، وآخرهم من التأخر عن سابقهم، ويمنعون عن الخروج عن الصفوف إلى اليمين أو الشمال، لأن وزعه عن الشيء معناه كفه عنه.

وفي ترتيب الجنود في الذكر مراعاة الأقوى، وأعلاهم في ذلك الجن، ثم الإنس، ثم الطير.

وفي عطف الجملة الثانية بالفاء إفادة سرعة الانتظام بعد الاجتماع.

وفاعل (حشر) هم الأعوان الحاشرون.

وفاعل (وزع) هم الضباط المنظمون.

المعنى:

كان لسليمان- عليه الصلاة والسلام- من الجن والإنس والطير جنود معينون معروفون، يتركب منهم عسكره، يكونون متفرقين، فإذا عرض أمر

جمعهم، وكان له أعوان يعرفون أولئك الجنود ويعرفون أماكنهم، فهم الذين يجمعونهم عند الحاجة إليهم، فأراد سليمان أن يسافر فأمر أعوانه بجمع الجنود، فجمعوهم له، فلما اجتمعوا تولى رؤساؤهم تنظيمهم، فساروا مع سليمان في كثرة ونظام، يتولى أولئك الرؤساء تنظيمهم في سيرهم، ويمنعونهم من الخروج عن النظام.

تفصيل:

كما أنّ للإنس من يعرفهم من أعوان سليمان، ومن ينظمهم من رؤسائهم؛ كذلك يكون للجن، وكذلك يكون للطير، وسلطة سليمان على الجن، وتسخيره لهم، وسلطته على الطير، وفهمه لها، وفهمها عنه، معجزة له، وخصوصية ملك لم ينبغ لأحد من بعده.

تاريخ وقدوة:

تفيدنا الآية صورة تامة لنظام الجندية في ملك سليمان، فقد كان الجنود يُسرَّحون من الخدمة، ويجمعون عند الحاجة، وكانت أعيانهم معروفة مضبوطة، وكانت لهم هيئة تعرفهم وتضبطهم وتجمعهم عند الحاجة، وكان لهم ضباط يتولون تنظيمهم، وكان النظام محكمًا لضبط تلك الكثرة، ومنعها من الاضطراب والاختلال والفوضى.

تعرض علينا الآية هذه الصورة التاريخية الواقعية، تعليمًا لنا، وتربيةً على الجندية المضبوطة المنظمة.

ولا شك أن الخلفاء الأولين قد عملوا على ذلك في تنظيم جيوشهم، وأن مثل هذه الآية كان له الأثر البليغ السريع في نفوس العرب لما أسلموا،

فسرعان ما تحوّلوا إلى جنود منظمة مما لم يكن معروفًا عندهم في الجاهلية.

وبقيت الآيةُ على الدهر مذكِّرةً لنا بأن النظامَ أساسُ كُلِّ مجتمعٍ واجتماعٍ، وأن القوى والكثرة وحدهما لا تغنيان بدون نظام، وأن النظام لابد له من رجال أكفاء يقومون به ويحملون الجموع عليه، وأولئك هم الوازعون.

طبيعة وشريعة:

في عالَم الجماد وعالَم النبات وعالَم الحيوان، نجد الطبيعة- بصنع اللّه- تستخلص الأعلى من الأدنى والأقوى من الأضعف، فتجد الممتاز من أصل الخلق وبانتخاب الطبيعة في هذه العوالم الثلاثة، كما تجد الذهب في المعدن، وتجد الزهر والثمر في النجم[1] والشجر، وتجد الملكة من النمل والنحل مثلًا.

فالإنسان لم يخرج عن هذا القانون الطبيعي، ففيه الممتازون الذين يحتاج إليهم النوع الإنساني في صلاح حاله ومآله، ومنهم الذين يتولون حكمه وتنظيمه في أممه ومجتمعاته وجماعاته.

فالهيئة الحاكمة، والأفراد المنظمون، والقادة المسيرون، من ضروريات المجتمع الإنساني ومقررات الشرع الإسلامي، مثل ما في هذه الآية من أمر الوازعين.

ولما ولي الحسن البصري القضاء، قال: لابد للسلطان من وزعة، أي أعوان يكفُّون الناس عن الشر والفساد، ويتولون تربيتهم وتنظيمهم.

---

(١) النجم من النبات: ما لا ساق له.

وفي رواية: لابد للناس من وازع، أي كافٍ يكفُّ بعضهم عن بعض، وهو الحاكم وأعوانه.

وفي حديث ذكره أهل الغريب: «من يزع السلطان أكثر ممن يزع القرآن»[١٧٧].

ومعناه: أن من يكفّهم عن الشرّ خوفُ السلطان وعقابُه الدنيوي أكثر ممن يكفّهم عن الشرّ الوعدُ والوعيدُ في القرآن.

وقد قال اللَّه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: الآية ٢٥].

* * *

---

[١٧٧] **لا أصل له مرفوعًا:**

أورده العامري في «الجد الحثيث في بيان ما ليس بحديث» (٥٧) وقال:

«جاء عن عثمان موقوفًا، ونحوه عن عمر موقوف».

قلتُ: والموقوف على عثمان بن عفان رضي الله عنه أخرجه ابن شبة في «تاريخ المدينة» (١٧٠٤) بإسناد منقطع، واللَّه أعلم.

الآية الرابعة وهي ١٨ من سورة النمل

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النَّمل: الآية ١٨].

الألفاظ والتراكيب:

أتوا على واد النمل: هبطوا إليه من مكان أعلى منه، وهو بالشام أو الحجاز[1]، لم تتوقف العبرة على تعيينه فلم يعين، وأضيف للنمل لكثرته فيه.

نملة: لفظها مؤنث، ومعناها محتمل مثل شاة وحمامة.

مساكنكم: هي قرى النمل التي يسكنها تحت وجه الأرض، المحكمة الوضع والتركيب والتقسيم، ولذلك قيل فيها مساكن، ولم يقل غيران.

لا يحطمنكم: لا يكسرنكم بالحوافر والأقدام.

لا يشعرون: لا يحسُّون بوجودكم.

الإتيان بإذا وجوابها لإفادة أن قولها كان بسبب إتيانهم عند أول ما أتوا.

لا يحطمنكم: نهتهم عن أن يحطمهم، والحطم ليس من فعلهم حتى ينهوا عنه، وإنما المعنى لا تكونوا خارج مساكنكم فيحطمكم، فنهتهم عن

---

(١) قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٥/ ٢٢٧):
«ومن قال من المفسرين أن هذا الوادي كان بأرض الشام أو بغيره، وأن هذه النملة كانت ذات جناحين كالذباب، أو غيره ذلك من الأقاويل، فلا حاصل لها».

المسبب، والمراد النهي عن السبب لما في ذلك من الإيجاز المناسب لِسرعة الإنذار لِسرعة النجاة، ولما في ذكر المسبب وهو الحطم من التخويف الحامل على الإسراع إلى الدخول.

والجملة مؤكدة للأولى فكأنها قالت: ادخلوا مساكنكم لا تبقوا خارجها.

ونظير التركيب في التعبير بالمسبب عن السبب: لا أرينك ههنا، أي لا تكن هنا فأراك.

المعنى:

سار سليمان- عليه الصلاة والسلام- في تلك الجنود العظيمة يحيط به الإنس والجن وتظلهم الطير حتى هبطوا على وادي النمل، فرأتهم كبيرة النمل وقائدته فصاحت في بني جنسها فنادتهم للتنبيه، وأرشدتهم إلى طريق النجاة بأمرهم بالدخول في مساكنهم، وحذرتهم من الهلاك بحطم سليمان وجنوده لهم عن غير شعور منهم، فلا يكون اللّوم عليهم، وإنما اللَّوم على النمل إذا لم يسرع بالدخول.

عبرة وتعليم:

عاطفة الجنسية غريزة طبيعية، فهذه النملة لم تهتم بنفسها فتنجو بمفردها، ولم ينسِها هولُ ما رأت من عظمة ذلك الجند إنذار بني جنسها إذ كانت تدرك بفطرتها أن لا حياة لها بدونهم، ولا نجاة لها إذا لم تنج معهم، فأنذرتهم في أشد ساعات الخطر أبلغ الإنذار، ولم ينسها الخوفُ على نفسها وعلى بني جنسها من الخطر الداهم أن تذكر عذر سليمان وجنده.

فهذا يعلّمنا أن لا حياة للشخص إلّا بحياة قومه، ولا نجاة له إلَّا بنجاتهم، وأن لا خير لهم فيه إلّا إذا شعر بأنه جزء منهم، ومظهر هذا الشعور أن يحرص على خيرهم كما يحرص على نفسه، وأن لا يكون اهتمامه بهم دون اهتمامه بها.

واجب القائد والزعيم:

هذه النملة هي كبيرة النمل، فقد كان عندها من قوة الإحساس ما أدركت به الخطر قبل غيرها فبادرت بالإنذار.

فلا يصلح لقيادة الأمم وزعامتها إلَّا من كان عنده من بُعد النظر، وصدق الحدس، وصائب الفراسة، وقوة الإدراك للأمور قبل وقوعها، ما يمتاز به عن غيره، ويكون سريع الإنذار بما يحسّ وما يتوقع.

عِظَةٌ بالغةٌ:

هذه نملة وفت لقومها، وأدت نحوهم واجبها، فكيف بالإنسان العاقل فيما يجب عليه نحو قومه!

هذه عظة بالغة لمن لا يهتم بأمور قومه ولا يؤدي الواجب نحوهم، ولمن يرى الخطر داهمًا لقومه فيسكت ويتعامى، ولمن يقود الخطر إليهم ويصبه بيده عليهم.

آه.. ! ما أحوجنا- معشر المسلمين- إلى أمثال هذه النملة!.

* * *

الآية الخامسة وهي ١٩ من سورة النمل

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النَّمل: الآية ١٩].

الألفاظ والتراكيب:

التبسم: انفراج الشفتين على الأسنان، وقد يكون للغضب، وقد يكون للسخرية، وقد يكون للضحك وهو الأكثر، وهو بدايته، ولهذا قيد بـ(ضاحكًا).

أوزعني أن أشكر: ألهمني شكر نعمتك.

وتحقيقه في اللغة والتصريف أنك تقول: وزعت الشيء أي كففته، وأوزعني اللّٰه الشيء أي: جعلني أزع ذلك الشيء أي أكفه.

كما تقول: ركبت الفرس وأركبني زيد الفرس أي جعلني أركبه، فأوزعني شكر نعمتك أي: اجعلني أزع أي أكف شكر نعمتك أي: أمنعه من أن يذهب عني وينفلت مني، فالمقصود: اجعلني ملازمًا لشكرك فلا أنفك لك شاكرًا.

نعمتك: عام يشمل كل نعمة للّٰه عليه وعلى والديه.

وأن أعمل: معطوف على (أن أشكر) فيقدر مثل تقديره كما تقدم.

ترضاه: وصف مؤكد، وقد يكون للتقييد على ما سيأتي لأن العمل

الصالح مرضي عند[1] اللَّه، وإنما ذكر الوصف ليفيد أن رضا اللَّه مقصود بالعمل الصالح.

وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين: اجعلني معهم، وأكملُ الصالحين الأنبياءُ والمرسلون- صلى اللَّه وسلم عليهم أجمعين-.

وتحقيقه: أن الصالحين بما امتازوا به من كمال صاروا كأنهم في حمى خاص بهم لا يدخل عليهم فيه إلّا من كان مثلهم، فلهم مقامهم في الرفيق الأعلى، ولهم منازلهم في الجنة، ولهم ذكرهم الطيب عند اللَّه وعند العباد، وهذه المنازل والمقامات لا يدخلها العبد إلا برحمة من اللَّه، بتيسير لأسبابها وتفضل عظيم.

المعنى:

لما سمع سليمان- عليه الصلاة والسلام- كلام النملة تبسم تبسم السرور والتعجب من قولها، وطلب من ربه تعالى أن يلهمه شكر ما أنعم به عليه وعلى والديه، وأن يلهمه عملًا صالحًا، ينال به رضاه، وطلب منه تعالى أن يجعله في الصالحين بأن يثبت اسمه بينهم، ويقرن ذكره بذكرهم، ويلحقه بهم، ويسكنه الجنة معهم، بما يغمره به من رحمته وفضله وإحسانه.

توجيه:

صدور ذلك الإنذار البليغ من مثل تلك النملة في ضعفها وصغرها طريفٌ مستظرفٌ، ككل شيء يصدر من حيث لا ينتظر صدوره، فهذا مبعث تعجب

---

(١) في الأصل: عنه!

سليمان- عليه الصلاة والسلام- .

وشهادة النملة له ولجنوده بأنهم لو وطئوا النمل لوطئوه عن غير شعور، فهم لرحمتهم وشفقتهم وارتباطهم بزمام التقوى، وأخذهم بالعدل، لا يتعمدون التعدي على أضعف المخلوقات العجماء.

هذه شهادة أدخلت السرور على سليمان- عليه الصلاة والسلام- لما دلت عليه من ثبوت هذا الوصف العظيم له ولجنده وظهوره منهم واشتهارهم به.

كما بعث سرورَه شعورُه بما آتاه اللَّه من الملك العظيم والعلم الذي لم يؤته غيره حتى فهم به ما همست به النملة، وهي من الحُكل[1] الذي ليس له صوت يستبان في حال من الأحوال.

أَدَبُ مَنْ سَرَّتْهُ النِّعْمَةُ:

نِعَمُ اللَّهِ على العبدِ تُدْخِلُ عليه السرورَ بِجِبِلَّةِ الفِطرةِ، والفرحُ بنعمةِ اللَّهِ من الاعتراف بفضله والإكبار لنواله.

ومن أدب العبد حينئذ أن يسأل اللَّهَ التوفيقَ لِشكرِ تلك النعمة بصرفها في الطاعة والتوفيقَ لشكرها بما يقوم به من أعمال صالحة في رضا اللَّه، كما فعل سليمان- عليه الصلاة والسلام- .

النعمة المزدوجة:

إذا أنعم اللَّه على الأبوين بنعمة الإيمان والصلاح فهي نعمة على ولدهما إذا اتبعهما، وتكون تلك النعمة من اللَّه عليهما، سيما في حسن تربيتهما له

---

(١) الحُكل بالضم: جمع أحكل، وهو ما لا يُسمع صوتُه كالذر والنمل.

وتوجيهه في الوجهة الصالحة.

كما أن نعمة اللَّه على الولد هي نعمة على والديه، فهو من أثرهما، ومثل حسناته في ميزانهما[1] لأنهما أصل ذلك وسببه، ويدعو له الناس فيدعون لهما، ويدعو هو لهما، وقد يؤذن له فيشفع لهما.

فالنعمة على الوالد أو على الولد هي نعمة مزدوجة بينهما، ولهذا ذكر سليمان- عليه الصلاة والسلام- نعمة اللَّه على والديه مع نعمته عليه.

الغاية المطلوبة:

إن شعور العبد برضى اللَّه عنه هو أعظم لذة روحية تعجز عن تصويرها الألسن، وإحلال الرضوان على أهل الجنة أكبر من كل ما في الجنة من نعيم[2].

---

(١) يشهد لذلك قوله ﷺ: «إن أطيب ما أكلتم من كسبكم، وإن أولادكم من كسبكم» أخرجه الترمذي (١٣٦٢) وقال: «حديث حسن صحيح»، وغيره، وصححه الحاكم (٢/ ٤٦) ووافقه الذهبي.

(٢) كما في حديث أبي سعيد الخُدري مرفوعًا: «إن اللَّه يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة! فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربّ، وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحدًا من خلقك. فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا ربّ! وأيّ شيءٍ أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحِلّ عليكم رضواني، فلا أسخط عيكم بعده أبدًا». أخرجه البخاري (٦٥٤٩ و٧٥١٨) ومسلم (٢٨٢٩).

وعن صهيب مرفوعًا: «إذا دخل أهل الجنة الجنةَ، قال: يقول اللَّه تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجّنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أُعطوا شيئًا أحبّ إليهم من النظر إلى ربهم ﷻ. ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يُونس: الآية ٢٦]». أخرجه مسلم (١٨١).

وفي الجمع بينهما يراجع ما ذكره الحافظ في «فتح الباري» (١٣/ ٥٩٦ و١١/ ٥١٤).

فالغاية التي يسعى إليها الساعون ويعمل لها العاملون هي رضى اللَّه، فالعمل الصالح ترتضيه العقول وتستعذبه الفطر، ولكنه لا يفيد صاحبه إذا لم يبلغ به مرضاة اللَّه، ولهذا قال سليمان- عليه الصلاة والسلام-: ﴿تَرْضَىٰهُ﴾.

جمع وتحقيق:

قال اللَّه تعالى: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النّحل: الآية ٣٢].

فأفاد أن الأعمال سبب في دخول الجنة.

وفي هذه الآية ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ﴾ [النَّمل: الآية ١٩].

فأفاد أن الدخول بالرحمة(١).

ولا منافاة ما بينهما، فالأعمال سبب شرعي لدخول الجنة، والهداية إليه والتوفيق فيه وقبوله هو رحمة من اللَّه.

والعمل من حيث ذاته لا يستحق على اللَّه جزاء، لأنه لا ينتفع به إذ هو الغني عن خلقه، وإنما تفضل فجعله سببًا في نيل ثوابه، ثم تفضل فجعل الجزاء مضاعفًا إلى عشر، إلى أضعاف كثيرة، إلى الموفي للصابرين بغير حساب.

دقيقة روحية:

إنّ الأرواح النورانية الطاهرة السامية لا لذّة لها حقيقية في هذا العالَم

(١) ويؤكده قوله ﷺ: «لن يُدْخِلَ أحدًا منكم عملُه الجنة». قالوا: ولا أنت يا رسول اللَّه! قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني اللَّه منه بفضل ورحمة». أخرجه البخاري (٥٦٧٣) ومسلم (٢٨١٦).
وفي الجمع بين هذه النصوص- إضافة إلى ما ذكره المصنف- يراجع «مجموع الفتاوى» (٨/ ٧٠، ٧١) لابن تيمية، و«مفتاح دار السعادة» (١/ ١١٩- ١٢١) لابن القيم، و«فتح الباري» (١١/ ٣٥٧- ٣٥٩) لابن حجر.

الفاني المادي المنحط، وإنما لذتها الحقيقية في عالمها العالي الأقدس، وفي الرفيق الأعلى الأطهر، وفي معاشرة أمثالها من النفوس الطيبة الزكية، في ذلك القدس الأسنى، فهي دائمة الشوق إليه والانجذاب نحوه.

ولذا كان من دعوات الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- الدخول في الصالحين واللحوق بهم، مثل قول سليمان هنا، وقول إبراهيم: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٨٣]. وقول يوسف: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ١٠١].

وفقنا اللَّه لشكر ما منّ به من سابق النعمة، وللقيام فيما بقي من العمر بواجب الخدمة، وختم لنا باللحوق بعباده الصالحين[1].

* * *

(١) الشهاب (ج٤، م١٥) غرة ربيع الثاني ١٣٥٨هـ - ماي ١٩٣٩م.

الآية السادسة وهي ٢٠ من سورة النمل

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ [النَّمل: الآية ٢٠]

الألفاظ والتراكيب:

وتفقد: التفقُّد: تطلُّبك ما فقدته وغاب عنك، وتعرّفك أحواله.

لا أرى: لا أبصر.

الهدهد: هو «تبيب» وهو طائر صغير الجرم، منتن الريح، ليس من كرام الطير ولا من سباعها.

مالي لا أرى: استفهم عما حصل له فمنعه من الرؤية، حيث ظنَّ أوَّلًا أن الهدهد كان حاضرًا وإنما هو لم يره.

أم كان من الغائبين: استفهم عن غيبته حيث ظن ثانيًا أنه غائب فاستفهم عن صحة ما ظن، فكلمة (أم) فيها إضراب وفيها استفهام، فأضرب إضراب انتقال من ظن إلى ظن.

كان من الغائبين: تعريض بقبح فعله لمَّا انحط عن شرف الحضور وكان من الغائبين.

المعنى:

تطلّب سليمان عليه السلام معرفة ما غاب عنه من أحوال الطير فلم ير الهدهد،

وأخذ يتساءل، فظن أن شيئًا ستره عنه فلم يره، ولما لم يكن شيء من ذلك ظن أنه كان غائبًا غير حاضر، وذلك هو الظن الأخير الذي حصل به اليقين.

تعليم وقدوة:

من حق الرعية على راعيها أن يتفقدها، ويتعرف أحوالها، إذ هو مسؤول عن الجليل والدقيق منها، يباشر بنفسه ما استطاع مباشرته منها، ويضع الوسائل التي تطلعه على ما غاب عليه منها، وينيط بأهل الخبرة والمقدرة والأمانة تفقد أحوالها حتى تكون أحوالُ كلِّ ناحيةٍ معروفةً مباشرةً لمن كلّف بها.

فهذا سليمان على عظمة ملكه واتساع جيشه وكثرة أتباعه قد تولى التفقد بنفسه ولم يهمل أمر الهدهد على صغره وصغر مكانه.

وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: لو أن سخلة بشاطئ الفرات يأخذها الذئب لَيُسْأَلُ عنها عمر[١٧٨].

وهذا التفقد والتعرف هو على كل راع في الأمم والجماعات والأسر والرفاق، وكل من كانت له رعية.

تعليل وتحليل:

تفقد سليمان جنس ما معه من الطير للتعرف كما ذكرنا، وذكر الطير لأنه

---

[١٧٨]:

روى نحوه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٣٠٥) والدينوري في «المجالسة (٩٧٥) وابن جرير الطبري في «التاريخ» (٥/ ١٨) وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٥٣) من طرق عن عمر موقوفًا، والله أعلم.

و(السخلة): ولد الغنم.

هو الذي تعلقت به القصة.

وليس في السكوت عن غير الطير ما يدل على أنه لم يتفقده، فالتفقد لم يكن للهدهد بخصوصه، وإنما لما تفقد جنس الطير فقده ولم يجده فقال ما قال.

فلا وجه لسؤال من سأل: كيف تفقد الهدهد من بين سائر الطير؟

تدقيق لغوي وغوص علمي:

سأل سليمان عن حال نفسه فقال: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾؟ ولم يسأل عن حال الهدهد فيقل: ما للهدهد لا أراه؟ فذكر حال نفسه قبل أن ينكر حال غيره.

فنقل الحافظ الإمام ابن العربي عن الإمام عبد الكريم بن هوازن القشيري شيخ الصوفية في زمانه قال:

«إنما قال: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ [النَّمل: الآية ٢٠] لأنه اعتبر حال نفسه إذ[١] علم أنه أوتي الملك العظيم وسخر له الخلق، فقد لزمه حق الشكر بإقامة الطاعة وإدامة العمل، فلما فقد نعمة الهدهد توقّع أن يكون قصّر في حق الشكر، فلأجله سلبها، فجعل يتفقد نفسه فقال: ﴿مَالِيَ﴾.

وكذلك تفعل شيوخ الصوفية إذا فقدوا آمالهم، تفقدوا أعمالهم.

هذا في الآداب، فكيف بنا اليوم ونحن نقصّر في الفرائض؟!»[٢].

---

(١) في الأصل: ذ، وفي بعض النشرات: ذا، والتصويب من «الأحكام».

(٢) أحكام القرآن (٣/ ١٤٥٤) والزيادة بين المعقوفين منه.

توجيه:

مثل هذه المعاني الدقيقة القرآنية الجليلة النفيسة من مثل هذا الإمام الجليل من أجلّ علوم القرآن وذخائره، إذ هي معانٍ صحيحةٌ في نفسها، ومأخوذةٌ من التركيب القرآني أخذًا عربيًّا صحيحًا، ولها ما يشهد لها من أدلة الشرع.

وكل ما استجمع هذه الشروط الثلاثة فهو صحيح مقبول.

ومنه فهم عمر وابن عباس رضي الله عنهما أَجَلَ رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم من سورة النصر [١٧٩].

أما ما لم تتوفر فيه الشروط المذكورة- وخصوصًا الأول والثاني- فهو الذي لا يجوز في تفسير كلام اللَّه، وهو كثير في التفاسير المنسوبة لبعض الصوفية، كتفسير أبي عبد الرحمن السلمي(١) من المتقدمين، والتفسير

[١٧٩] صحيح:
أخرجه البخاري (٤٩٧٠) عن ابن عباس قال:
«كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأنَّ بعضهم وجد في نفسه فقال: لِمَ تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من حيث علمتم. فدعا ذات يوم فأدخله معهم، فما رأيت أنه دعاني يومئذٍ إلا ليريهم. قال: ما تقولون في قول اللَّه تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر: الآية ١] فقال بعضهم: أمرنا نحمد اللَّه ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا. فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلتُ: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم أعلمه له. قال: إذا جاء نصر اللَّه والفتح - وذلك علامة أجلك - فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابًا. فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول».

(١) هو محمد بن الحسين أبو عبد الرحمن السلمي النيسابوري، شيخ الصوفية، وصاحب تاريخهم وطبقاتهم وتفسيرهم، المتوفى سنة (٤١٢هـ).
قال الذهبي في «تذكرة الحفاظ» (٣/ ١٠٤٦): «ألَّف «حقائق التفسير» فأتى فيه بمصائب وتأويلات الباطنية، نسأل اللَّه العافية».
=

المنسوب لابن عربي[1] من المتأخرين.

* * *

= وقال في «سير أعلام النبلاء» (١٧/ ٢٥٢): «وفي حقائق تفسيره، أشياء لا تسوغ أصلًا، عدّها بعض الأئمة من زندقة الباطنية، وعدّها بعضهم عرفانًا وحقيقة، نعوذ باللّه من الضلال ومن الكلام بهوى، فإن الخير كل الخير في متابعة السنة والتمسك بهدي الصحابة والتابعين ﷺ».

(١) هو محمد بن علي الطائي الحاتمي المرسي ابن العربي، نزيل دمشق، المتوفى سنة (٦٣٨هـ).
قال الذهبي في «السير» (٢٣/ ٤٨- ٤٩): «من أردإ تواليفه كتاب «الفصوص» فإن كان لا كفر فيه، فما في الدنيا كفر، نسأل اللّه العفو والعافية، فواغوثاه باللّه! وقد عظمه جماعة وتكلّفوا لِما صدر منه ببعيد الاحتمالات، وقد حكى العلامة ابن دقيق العيد شيخُنا أنه سمع الشيخ عز الدين بن عبد السلام يقول عن ابن عربي: شيخ سوء كذاب، يقول بقدم العالم، ولا يحرم فَرْجًا».
وانظر «الميزان» (٧٩٨٤) له أيضًا.

الآية السابعة وهي ٢١ من سورة النمل

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [النَّمل: الآية ٢١]

الألفاظ والتراكيب:

عذابًا شديدًا: بنتف ريشه، هكذا فسره ابن عباس[١٨٠] وجماعة من التابعين.

بسلطان مبين: بحجة قاطعة توضح عذره في غيبته، سُمِّيتِ الحُجَّة سلطانًا لما لها من السلطة على العقل في إخضاعه.

أفادت (أو) أنّ المحلوف على حصوله هو أحد الثلاثة، فإذا حصلت الحجة فلا تعذيب ولا ذبح، ولو لم تحصل لفعل أحدهما، وقدم التعذيب لأنه أشد من القتل، وحالة الغضب تقتضي تقديم الأشد.

المعنى:

يُقْسِمُ سليمان على معاقبة الهدهد- وقد تحقق غيبته- بالتعذيب، أو بالذبح، إذا لم يأته بالحجة التي تبين عذره في تلك الغيبة، ولا يستثني للعفو، ولا يجعل سببًا لسلامته من العقوبة إلّا الحجة.

توجيه واستنباط:

ليس في الآية ما يفهم خصوص نتف الريش من لفظ العذاب الشديد،

---

[١٨٠] رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٤٥) من طرق عن ابن عباس.

وإنما فهم ابن عباس رضي الله عنهما وأئمةٌ من التابعين ذلك بالنظر العقلي والاعتبار، فإن نتف ريشه يعطّل خاصية الطيران فيه فيتحول من حياة الطير إلى حياة دواب الأرض، وذلك نوع من المسخ، وقد علم أن المسخ في القرآن أشنع عقوبة في الدنيا، فلهذا فسروا العذاب الشديد بنتف الريش.

والإنسان خاصيته التفكير في أفق العلم الواسع الرحيب، فمن حرم إنسانًا- فردًا أو جماعة- من العلم، فقد حرمه من خصوصيته الإنسانية وحوّله إلى عيشة العجماوات، وذلك نوع من المسخ، فهو عذاب شديد، وأيّ عذاب شديد؟.

صرامة الجندية:

كان هذا الهدهد من جنود سليمان، التي حشرت له، وقد كان في مكانه الذي عُيِّن له وأُقيم فيه، فلما فارق وترك الفرجة في صفه، وأوقع الخلل في جنسه؛ استحق العقاب الصارم الذي لا هوادة فيه.

وهذا أصلٌ في صرامة أحكام الجندية وشدتها لعظم المسؤولية التي تحملتها، وتوقف سلامة الجميع على قيامها بها، وعظم الخطر الذي يعم الجميع إذا أخلت بها.

تقدير العقوبة:

جرم الهدهد صغير، وما كلف إلّا بما يستطيعه من الوقوف في مكانه والبقاء في مركزه، ولكن جرمه بإخلاله بهذا الواجب كان جرمًا كبيرًا، فإن الخللَ الصغيرَ مجلبةٌ للخلل الكبير، فقدرت عقوبته على حسب كبر ذنبه، لا على حسب صغر ذاته.

تنبيهٌ وإرشاد:

كلّ واحد في قومه أو في جماعته هو المسؤول عنهم من ناحيته مما يقوم به من عمل، حسب كفاءته واستطاعته، فعليه أن يحفظ مركزه ولا يدع الخطر يدخل، ولا الخلل يقع من جهته، فإنه إذا قصّر في ذلك وترك مكانه فتح ثغرة الفساد على قومه وجماعته، وأوجد السبيل لتسرب الهلاك إليهم.

وزوال حجر صغير من السدِّ المقام لصدّ السيل يفضي إلى خراب السد بتمامه.

فإخلال أي أحد بمركزه ولو كان أصغر المراكز مؤدٍّ إلى الضرر العام.

وثبات كل واحد في مركزه وقيامه بحراسته هو مظهر النظام والتضامن، وهما أساس القوة.

الحق فوق كل أحد:

لقد أغضب سليمانَ غيابُ الهدهد، فلذا توعده هذا الوعيد، وأكده هذا التأكيد.

ولكن سلطان سليمان في قوته وملكه ومكانته يجب أن يخضع لسلطان آخر هو أعظم من سلطانه: هو سلطان الحق، والحق فوق كل أحد.

وملك سليمان ملك حق، فلابد له من الخضوع لسلطان الحجة ليقيم ميزان العدل، والعدل أساس الملك وسياج العمران[1].

(١) الشهاب (ج٥، م١٥) جمادى الأولى ١٣٥٨هـ - جوان ١٩٣٩م.

الآية الثامنة وهي ٢٢ من سورة النمل

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾
[النَّمل: الآية ٢٢]

الألفاظ والتراكيب:

«مَكُث»: أقام، وقرأ عاصم بفتح الكاف.

غير: صفة زمان محذوف. فالتقدير: زمان غير بعيد.

فاعل «مكث» هو الهدهد، مثل فاعل «قال» الآتي.

أحطت: الإحاطة بالشيء، عقليًّا هي العلم به من جميع نواحيه.

سبأ: اسم مدينة باليمن، سميت باسم سبأ جد العرب اليمانية حمير وغيرها، وصرفه الجمهور على اعتبار المكان، ومنعه من الصرف المكي والبصري على اعتبار البلدة.

بنبأ: النبأ، الخبر الذي له شأن وخطورة.

و«اليقين»: المحقق، جعله نفس اليقين مبالغة في تحققه.

وفي الكلام إيجاز بالحذف، إذ المعنى: فجاء الهدهد فسأله سليمان- عليه الصلاة والسلام- عن سبب مغيبه فقال.

المعنى:

لم تطل غيبة الهدهد عن مركزه في جنود سليمان، فلم يلبث في غيبته إلّا

زمانًا قصيرًا. وكان سؤال سليمان له عن غيبته فور رجوعه، فأسرع بالجواب والاعتذار عن الغيبة والدفاع عن نفسه، فقال: اطلعتُ على شيء لم تطلع أنتَ عليه، وعرفته من جميع نواحيه، وقد أتيتك من بلدة سبأ بخبر خطير ذي شأن عظيم تيقنته غاية اليقين.

توجيه واستنباط:

كان في جواب الهدهد حجة بينة لسبب غيابه، وذلك لأنه لم يذهب عابثًا ولا لغرض خاص به، وإنما ذهب مستطلعًا مكتشفًا، فحصّل علمًا، وجاء بخبر عظيم في زمن قصير، فرجعت هذه الفوائد العظيمة بتركه لمركزه في الجند فسقطت عنه المؤاخذة.

فإن قيل: إنَّ أصل مفارقته لمركزه دون استئذان كان مخالفة يستوجب عليها العقوبة.

فالجواب: إنّ هذه المخالفة كانت لقصد حسن، وهو الاستطلاع، وأثمرت خيرًا، فاستحق العفو عن تلك المخالفة التي كانت عن نظر، ولم تكن عن تهاون وانتهاك للحرمة.

فإن قيل: ما الذي أوقع في نفس الهدهد رغبته في طلب ما طلب؟

فالجواب: أنه يجوز أن يكون شاهد عمران اليمن من مكان بعيد ببصره الحاد فرغب في المعرفة، أو أن يكون قد مر باليمن من قبل ولم يتحقق من حالها، فأراد أن يتحقق.

وهذه الآية مأخذ من مآخذ الأصل القائل: إنّ المخالف للأمر عن غير

انتهاك للحرمة لا يؤاخذ بتلك المخالفة.

ومن فروع هذا الأصل سقوط الكفارة عمن أفطر في رمضان متعمدًا متأولًا تأويلًا قريبًا[1].

عِزَّةُ العلم وسلطانُه:

ابتدأ الهدهد جوابه معتزًّا بما أحاط به من العلم، متجملًا بما حَصل منه، مظهرًا لارتفاع منزلته به، متحصنًا به من العقاب. ولم تمنعه عظمة سليمان- عليه الصلاة والسلام- من إظهار علمه وإعلان اختصاصه به دون سليمان.

أدب واقتداء:

قد سمع سليمان هذا من الهدهد وأقرّه عليه، فللصغير أن يقول للكبير، وللحقير أن يقول للجليل: علمتُ ما لم تعلم، وعندي ما ليس عندك، إذا كان من ذلك على يقين، وكان لقصد صحيح.

ومن أدب مَنْ قيل له ذلك ولو كان كبيرًا جليلًا أن يتقبل ذلك، ولا يبادر بردِّه، وعليه أن ينظر فيه ليعرف مقدار صدق قائله فيقبله أو يردّه بعد النظر والتأمل، إذ قد يكون في أصغر مخلوقاتِ اللَّهِ وأحقرِها من يحيط علمًا بما لم يحط مثل سليمان- عليه الصلاة والسلام- في علمه وحكمته واتساع مدركاته.

---

(١) وذهب بعض الفقهاء إلى سقوط القضاء عنه أيضًا، ويشهد له ما ثبت في «الصحيحينِ» أن عدي بن حاتم رضي الله عنه لما تأول الخيط الأبيض والخيط الأسود- المذكورين في آية البقرة- بالحبلين المعروفين، فجعل يأكل حتى تبينا له وقد طلع النهار، فعفا النبي صلى الله عليه وآله وسلم له عن ذلك، ولم يأمره بالقضاء لتأويله». وانظر «إعلام الموقعين» (٢/ ٥٢ و٤/ ٨٥) لابن القيم.

وكفى بمثل هذا زاجرًا لكلّ ذي علم عن الإعجاب بعلمه، والاغترار بِسَعَةِ اطِّلاعه، والترفع عن الاستفادة ممن دونه.

مدرك عقيدة:

لا يعلم أحدٌ من الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- شيئًا مما غاب عنه إلَّا بإعلام اللَّه، فليس لهم كشف عام عن جميع ما في الكون، وإنما يعلمون منه ما أطلعهم اللَّهُ عليه.

ومن مدارك ذلك هذه القصة، فإنَّ سليمان- عليه الصلاة والسلام- لم يكن يعلم من مملكة سبأ شيئًا حتى أطلعه اللَّه عليه بواسطة الهدهد.

وإذا كان هذا حال الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام-، فغيرهم من عباد اللَّه الصالحين من باب أحرى وأولى.

تحقيق تاريخي:

رويت في عظم ملك سليمان روايات كثيرة ليست على شيء من الصحة، ومعظمها من الإسرائيليات الباطلة، التي امتلأت بها كتب التفسير مما تُلُقِّيَ من غير تثبت ولا تمحيص، من روايات كعب الأحبار ووهب بن مُنَبِّه.

وروى شيئًا من ذلك الحاكمُ في «مستدركه»[1] وصرح الذهبي ببطلانه.

---

(١) في (٢/ ٥٨٨) من طريق محمد بن جعفر بن محمد عن أبيه قال:
«أعطي سليمان بن داود ملك مشارق الأرض ومغاربها، فملك سليمان بن داود سبعمائة سنة وستة أشهر، ملك أهل الدنيا كلهم من الجن والإنس والشياطين والدواب والطير والسباع، وأعطي علم كل شيء، ومنطق كل شيء، وفي زمانه صنعت الصنائع المعجبة التي ما سمع بها الناس، وسخرت له، =

ومن هذه المبالغات الباطلة أنه ملك الأرض كلها مشارقها ومغاربها .

فهذه مملكة عظيمة بسبأ ، كانت مستقلة عنه ومجهولة لديه ، على قرب ما بين عاصمتها باليمن وعاصمته بالشام[1] .

* * *

= فلم يزل مدبرًا بأمر اللَّه ونوره وحكمته ، حتى إذا أراد اللَّه أن يقبضه أوحى إليه أن استودع علم اللَّه وحكمته أخاه وولد داود ، وكانوا أربع مائة وثمانين رجلًا بلا رسالة»
وتعقبه الحافظ الذهبي في «تلخيص المستدرك»- كما أشار إليه إمامنا المصنف- فقال : «قلتُ : هذا باطل» .

(١) الشهاب (ج٦ ، م١٥) غرة جمادى الثانية ١٣٥٨هـ - جويلية ١٩٣٩م .

الآية التاسعة وهي ٢٣ من سورة النمل

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ [النَّمل: الآية ٢٣]

الألفاظ والتراكيب:

وجدت: أصبتُ.

امرأة: هي بلقيس بإجماع المفسرين والمؤرخين.

تملكهم: تتولى أمرهم ملكة عليهم، وعبّر بالمضارع تصويرًا للحال العجيب، وهو أن تتولى ملكهم امرأة. وعاد الضمير على سبأ ضمير جمع مذكر على معنى القوم، إذ كانوا يسمون باسم أبيهم، فذكر لفظ سبأ أوَّلًا بمعنى المدينة، وأعيد عليه الضمير بمعنى القوم على أسلوب الاستخدام.

من كل شيء: لفظ عام أريد به كل ما تحتاج إليه من أشياء الملك والسلطان والقوة والعمران.

عرش: هو سرير الملك الذي تجلس عليه.

عظيم: في كبره وقوته وحسنه.

المعنى:

يقول الهدهد لسليمان- عليه الصلاة والسلام- مبينًا الخبر العظيم الذي جاء به: إني وجدت أولئك القوم الذين يسكنون تلك المدينة قد جعلوا امرأةً

ملكةً عليهم، وقد أُعطيت تلك الملكة كل ما تحتاج إليه في نظام ملكها وعظمته، ومن مظاهر تلك العظمة السرير العظيم الذي تجلس عليه بين أهل مملكتها.

عظمة المملكة العربية اليمنية:

كانت بلقيس ملكة على اليمن في منتصف القرن العاشر قبل الميلاد، وقد كانت ملكة عظيمة على مملكة عظيمة راقية، والهدهد الذي شاهد ملك سليمان وعظمته قد استعظم ملكها وعرشها، وعظمة العرش عنوان عظمة الملك، فلذا خصصه الهدهد بالذكر ورغب سليمان في الإتيان به.

تفوُّق العرب على الإسرائيليين:

كل ذلك الرقي وتلك العظمة بَلَغَتْهُما المملكةُ العربية اليمنية بنفسها من تفكيرها وعملها من قرون بعيدة.

فأمَّا الإسرائيليون- وهم إذ ذاك في القرن الخامس من تاريخهم- فإنهم لم يبلغوا في ذلك العهد إلى شيء من ذلك.

وما كان لسليمان من بناءات ومنشآت فهو مما صنعته له الجن والشياطين، كما جاء في آيات من القرآن عديدة[1].

ولم يترك بنو إسرائيل من الآثار ما يدل على شيء ذي بال من الفن والقوة.

فأما ما تركته اليمن فهو شيء كثير قائم مشاهد، والاكتشافاتُ ما زالت

---

(١) كما في الآيات (١٢- ١٣) من سورة سبأ، والآيات (٣٤- ٣٨) من سورة ص.

تُظهر منه شيئًا فشيئًا .

ولاية المرأة الملك:

ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : «**لن يفلحَ قومٌ ولّوا أمرهم امرأة**»[١٨١] .

قاله لما بلغه أن الفرس ملَّكوا عليهم امرأة .

فاقتضى هذا أن لا تلي المرأةُ ولايةً ولا إمارةً ولا قضاءً، وأَيَّدَتْ هذا النصَّ الصحيحَ السُّنَّةُ العمليةُ، فأخذ به جمهور أئمة الإسلام، وجاءت روايات عليلة عن بعضهم لم يُلتفَتْ إليها ولم يُعمل بها .

تعليل:

لا تصلح المرأة للولاية من ناحية خلقتها النفسية، فقد أُعطيت من الرقة والعطف والرأفة ما أضعف فيها الحزم والصرامة اللازمين للولاية .

وفي اشتغالها بالولاية إخلال بوظيفتها الطبيعية الاجتماعية التي لا يقوم مقامها فيها سواها، وهي القيام على مملكة البيت وتدبير شؤونه، وحفظ النسل بالاعتناء بالحمل والولادة وتربية الأولاد .

---

[١٨١] صحيح :

رواه البخاري (٤٤٢٥و٧٠٩٩) عن أبي بكرة قال :

لقد نفعني الله بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ أيام الجمل بعد ما كدت أن ألحق بأصحاب الجمل فأقاتل معهم . قال : لما بلغ رسول الله ﷺ أن أهل فارس قد ملكوا عليهم بنت كسرى قال : «لن يفلح قومٌ ولوا أمرهم امرأة» .

ورواه النسائي (٨/ ٢٢٧) والترمذي (٢٢٦٧) وأحمد (٥/ ٤٣و٤٧و٥١) .

وقال الترمذي : «حديث حسن صحيح» .

دفع اعتراض:

في تواريخ الأمم نساء تولين الملك، ومن المشهورات في الأمم الإسلامية شجرة الدر[1] في العصر الأيوبي، ومنهن مَنْ قضت آخر حياتها في الملك وازدهر ملك قومها في عهدها، فما معنى نفي الفلاح عمن ولَّوا أمرهم امرأة؟

هذا اعتراض بأمر واقع، ولكنه لا يرد علينا، لأن الفلاح المنفي هو الفلاح في لسان الشرع، وهو تحصيل خير الدنيا والآخرة، ولا يلزم من ازدهار الملك أن يكون القوم في مرضاة اللَّه، ومن لم يكن في طاعة اللَّه فليس من المفلحين، ولو كان في أحسن حال فيما يبدو من أمر دنياه، على أن أكثر من ولوا أمرهم امرأة من الأمم إذا قابلهم مثلهم كانت عاقبتهم أن يُغْلَبوا.

* * *

(١) تولت ملك مصر بعد وفاة زوجها الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكانت ذات عقل وحزم، كاتبة قارئة، لها معرفة تامة بأحوال المملكة لكن لم يستقر أمرها غير ثمانين يومًا. ماتت مقتولة سنة (٦٥٥هـ). الأعلام (٣/ ١٥٨).

الآية العاشرة وهي ٢٤ من سورة النمل

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النَّمل: الآية ٢٤]

الألفاظ والتراكيب:

من دون اللَّه: تجاوزوا عبادة اللَّه إلى عبادة الشمس.

زين: حسّن.

أعمالهم: سجودهم للشمس وغيره من أعمال كفرهم.

فصدهم: صرفهم صرفًا شديدًا.

السبيل: هو الطريق الوحيد المعهود للنجاة، وهو توحيد اللَّه.

لا يهتدون: لا يكون منهم سلوك في طريق الحق والسداد.

جملة ﴿وَجَدتُّهَا﴾ مستأنفة للبيان جوابًا على تقدير سؤال، فالكلام السابق بيَّن حالتها من ناحية الدنيا، فتتشوف نفس السامع إلى معرفة حالتها من ناحية الدين.

عدم اهتدائهم مسبب عن صد الشيطان لهم، وصده مسبب عن تزيينه[1] لأعمالهم لهم، هذا ما تفيده «الفاء».

---

(١) في الأصل: تزييفه!

المعنى:

وجدتها وقومها مجوسًا يعبدون الشمس فيسجدون لها ولا يسجدون للَّه، وقد تمكّن الشيطان منهم فحسّن في أعينهم أعمالهم فصرفهم عن عبادة اللَّه وتوحيده مع ظهور الدلائل ووضوح الآيات، فثبتوا على ضلالهم، لا يكون منهم اهتداء لطريق النجاة الظاهر في حال من الأحوال.

سلاح الشيطان وأصل الضلال:

محبة الإنسان نفسه غريزة من غرائزه، وهو محتاج إليها، ليجلب لنفسها حاجتها، ويدفع عنها ما يضرّ بها، ويسعى في تكميلها.

هذه هي الناحية النافعة والمفيدة من هذه الغريزة، ولكنها من جهة أخرى هي مدخل من أعظم مداخل الشيطان على الإنسان فيحسّن له أعماله، وهو لمحبة نفسه يحب أعماله ويغترُّ بها، فيذهب مع هواه في تلك الأعمال على غير هدى ولا بيان، فيهلك هلاكًا بعيدًا.

فاستحسان المرء لأعماله هو أصل ضلاله، وتزيين الشيطان لتلك الأعمال هو أحدّ سلاح للشيطان.

الوقاية:

فعلى المرء أن يتهم نفسه في كل ما تدعوه إليه، وأن يزن جميع أعماله بميزان الشرع الدقيق، خصوصًا ما تشتد رغبته فيه ويعظم حسنه في عينه.

* * *

الآية الحادية عشرة وهي ٢٥ من سورة النمل

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النَّمل: الآية ٢٥]

الألفاظ والتراكيب:

ألا يسجدوا: عدم سجودهم، فإنْ مصدرية، و«لا» نافية، وهو بدلُ بعضٍ من أعمالهم، خصّص بالذكر لأنه أصل كفرهم ومبعث فساد أعمالهم.

الخبء: الشيء المخبوء، فعل بمعنى مفعول، يقال: خبأت الشيء أخبؤه خبأً، بمعنى سترته عن العيون.

الخبء يشمل كل ما احتوته السموات والأرض مما يبرزه اللَّه للخلق لمنفعتهم، فتشاهده العيون مثل المطر والنبات، أو تدركه العقول مثل بدائع الخلق ودقائق الصنع، ومنه ما يكشفه اللَّه لعلماء الأكوان من أسرار الخلقة عندما يستعملون عقولهم ووسائلهم العلمية، فيأتون بما فيه نفع للعباد ورقي للعمران.

«ما يخفون»: ما يكتمون في أنفسهم أو عن غيرهم.

«ويعلنون»: يظهرون للناس.

المعنى:

زيَّن لهم الشيطانُ من أعمالهم على الخصوص عدم سجودهم للَّه، الذي

أقام عليهم الحجة، بما يخرجه لهم من الخيرات المخبآت من السموات والأرض، من أمطار السماء ونبات الأرض، مما يدل على عظيم قدرته ولطف علمه، الذي أحاط بما ببواطن الأشياء وظواهرها، وبما تنطوي عليه السرائر، أو تواريه الستائر، وبما هو ظاهر للعموم.

استدلال وتوجيهه:

السجود مظهر لغاية الذل والخضوع والانقياد والاستسلام، وتلك أصل العبادة، ولا يستحقها من العبد إلّا من هو- حقيقة- المنعم الغني الكامل القوي، وما هو إلّا خالقه.

فاستدل على استحقاق اللَّه السجود دون غيره بما ذكر من إخراجه الخبء، ويشمل علمه لما خفي وما علن، وذلك متضمن لكماله وإنعامه، وشمول علمه، وعموم سلطانه.

حكم وانبناؤه:

انبنى على أن السجود عبادة، ولا يستحقّها إلّا الخالق: تحريمُ السجود للمخلوق، فلا يجوز أن يُعظِّم به أحدٌ أحدًا ولو لم يقصد به العبادة، أما إذا قصد به العبادة فهو الكفر البَواح[1].

تحذير:

كثيرًا ما رأينا في الرسوم التي تنشرها الصحف أناسًا من المسلمين راكعين أو مقاربين للسجود لذي سلطان.

(١) أي: جهارًا، من باح بالشيء يبوح به، إذا أعلنه. «النهاية».

فعلى المسلم أن يحذر من ذلك فلا يفعله، ولا ينحني لأحد من الخلق، وأن ينكره إذا رآه.

تشويق القرآن إلى علوم الأكوان:

من أساليب الهداية القرآنية إلى العلوم الكونية أن يعرض علينا القرآن صورًا من العالَم العلوي والسفلي في بيان بديع جذاب، يشوِّقنا إلى التأمل فيها، والتعمق في أسرارها.

وهنا يذكر لنا ما خبأه في السموات والأرض لنشتاق إليه، وننبعث في البحث عنه، واستجلاء حقائقه ومنافعه، بدافع غريزة حب الاستطلاع ومعرفة المجهول.

وبمثل هذا انبعث أسلافنا في خدمة العلم واستثمار ما في الكون إلى أقصى ما استطاعوا، ومهدوا بذلك السبيل لمن جاء بعدهم، ولن نعزّ عزّهم إلّا إذا فهمنا الدين فهمهم، وخدمنا العلم خدمتهم.

ترتيب في الاستدلال:

إخراج الخبء لا يكون إلّا من العالِم بذلك الخبء الذي أحاط علمه به في حال ستره وفي حال ظهوره، فيدل ذلك على شمول علمه لما ظهر وما بطن، ومنه ما يخفون وما يعلنون، ولذلك عطفه عليه لترتبه عليه ترتب المدلول على دليله.

* * *

الآية الثانية عشرة وهي ٢٦ من سورة النمل

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ۩﴾ [النَّمل: الآية ٢٦]

الألفاظ والتراكيب:

العرش: مخلوق عظيم من عالَم الغيب، أعظم من السموات والأرض(١).

المعنى:

الموصوف بتلك الصفات، والمنعم بتلك الإنعامات، المستحق للسجود منهم- وقد زين لهم الشيطان عدم السجود له- هو اللَّه الذي لا معبود غيره، ولا يستحق العبادة سواه، خالق المخلوقات كلها، والمالك لها، والمدبر لأمرها، والمتصرف فيها من أصغر مخلوق إلى أعظم مخلوق، وهو عرشه العظيم الذي فاق كل ما نرى من عالَم الشهادة.

توجيه الترتيب:

لما ذكر استحقاقه للعبادة بكمالاته وإنعاماته، ذكر أن لا مستحق للعبادة غيره، إذ لا يشاركه في تلك الكمالات والإنعامات سواه، فكأن الجملة كالنتيجة لما قبلها.

ولما ذكر وحدانيته في الألوهية فلا يعبد سواه؛ ذكر وحدانيته في الربوبية

---

(١) ويدل على عظمته قوله ﷺ: «ما السموات السبعُ في الكرسي إلا كحلقة ملقاةٍ بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة». كما في «الصحيحة» (١٠٩) للألباني.

بانفراده في الخلق والملك والتصرف والتدبير لهذا المخلوق العظيم، ونبه به على ما دونه من المخلوقات.

ولما كان الحديث على عظمة ملك العباد ملك النبوة وغيره؛ ذكر عظمة ملك اللَّه الذي تصغر إزاءها كل عظمة.

بيان مراد:

قد يتماثل[1] اللفظان، ولكن يجب أن يعبر كل واحد بمعنى لائق بالمقام الذي قيل فيه، فلقد جاء في حق سليمان -عليه الصلاة والسلام-: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النَّمل: الآية ١٦]، ووصف الهدهد بلقيس بأنها ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النَّمل: الآية ٢٣] ولما كان المتحدث عنه أولًا هو سليمان، فكل شيء يعم ما يحتاج إليه من أمر النبوة وملك النبوة.

كما أنه قد قال عنها: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النَّمل: الآية ٢٣]، وقال عن اللَّه ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: الآية ١٢٩] و[المؤمنون: الآية ٨٦] و[النمل: الآية ٢٦] فعرش عظيم بين عروش الملوك، وعرش اللَّه عظمته أعظم من السموات والأرض.

وهكذا لابد من اعتبار المقام في فهم الكلام.

للعبرة والقدوة:

قد ألهم اللَّه الحيوانات إلى ما قد يخفى عن بعض العقلاء، ومضى منا كلام عن هذا فيما تقدم من هذه الآيات الكريمة.

---

(١) في الأصل: يتماثلان!

وهذا الهدهد بين الهداهد، فلهم[1] إلهام خاص يقتضيه تخصيصه بهذا الموقف واتصاله بسليمان -عليه الصلاة والسلام-، وزمن الأنبياء زمن خرق العوائد وظهور الآيات، وقد كان في حسن بيانه، وترتيب أخباره، وبديع تهديه، عبارة بالغة لأولي الألباب.

فقد تحصن بالعلم، ونوه بالنبإ المتيقن، وفصل النبأ فشرح حاليها الدنيوية والدينية، وتنقل من تشويق إلى تشويق أبلغ منه، فكان متثبتًا فيما أخبر، بارعًا فيما صور، مستدلًّا فيما قرر وفيما أنكر، بصيرًا بكيد الشيطان للإنسان، متفطنًا لانبناء الضلالات بعضها على بعض، خبيرًا بترتيب الأدلة وحسن الاستنتاج.

وفيما ذكر اللَّه لنا من هذه العبر البالغة من هذا الحيوان الأعجم حثٌّ لنا على أن نسلك عندما نخبر ونبين، أو نبحث وننظر، أو نستدل ونرتب ونعلل- أن نسلك هذا المسلك.

وإذا كان اللَّه تعالى قد بعث غُرابًا ليتعلم منه ابن آدم كيف يواري سوءة أخيه[2]، فكذلك ذكر لنا أمر هذا الهدهد الممتاز بين الهداهد لنقتدي به، تنبيهًا لنا على أخذ العلم من كل أحد، والاستفادة من كل مخلوق، والشعور دائمًا بالنقص للسلامة من شر أدواء الإنسان: العجب والكبر والغرور. . . .

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: الآية ١١٤].

---

(١) كذا، والصواب: «فله».

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة: الآية ٣١].

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يُوسُف: الآية ٧٦] .

لمحة نفسية:

الظواهر دلائل البواطن .

فالمرء يعرف من سُبحات وجهه وفلتات لسانه ، وكثيرًا ما تدل كلماته على مهنته أو فكرته وعقيدته ، كما تدل هيئته أو لبسته وشمائله .

وما يباشره المرء تنطبع به نفسه ويصطبغ خياله ، فيجري على لسانه في تشبيهاته وتمثيلاته وفنون قوله ، فقد تختلف العبارات عن شيء واحد في وقت واحد باختلاف نفسيات المتكلمين عليه .

وقد عُرف الهدهد بين الطيور بثقوب البصر والاهتداء إلى الماء في جوف الأرض ، خصوصًا هدهد سليمان الممتاز بين الهداهد ، فلما استدل ذكر مِن صنع اللَّه ما هو أقرب إليه وأغلب عليه ، وهو إخراج الخبء الذي منه الماء المخبوء في جوف الأرض .

إشارة علمية:

دلالة الصنعة على الصانع دلالة فطرية عقلية قطعية ، فكل ذي صنعة في مكنته أن يستدل بصنعته على وجود خالق هذا العالَم وكماله .

يشاهد أن صنعته ما كانت إلّا به ، وبما له من قدرة فيها ، وعلم بها ؛ فيهديه ذلك إلى أن هذا العالَم ما كان إلّا من خالق قادر عالم .

فالهدهد ذكر ما هو من عمله في الاستدلال على وجود الخالق تعالى

ووحدانيته، ومثله كل ذي صنعة.

وفي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ على أَنَّهُ واحِدٌ[1]

* * *

(١) الشهاب (ج٧، م١٥) غرة رجب ١٣٥٨هـ - أوت ١٩٣٩م.

من سورة يس

تفسير الآيات (١- ١٢)



﴿يسٓ﴾ [يس: الآية ١]

مثل هذا اللفظ مما افتُتِحَتْ به بعضُ سورِ القرآن، للعلماء فيه طريقتان:

الأولى: أنه لفظ له معنى يعلمه اللَّه، فهو من المتشابه الذي لا يعلمه الراسخون، وإنما يؤمنون به، ويردّون علمه إلى عالمه.

سؤال وجوابه:

القرآن أنزل للبيان، ولا بيان إلّا بالإفهام، فكيف يكون في القرآن لفظ لا يُفهَم له معنى؟

والجواب: أن عدم فهم معنى من بِضع عشرة كلمة افتتحت بها بعض السور لا يخل ببيان القرآن لما أنزل لبيانه من عقائد، وآداب، وأحكام، وغيرها من مقاصد القرآن.

توجيه وتنظير:

إنّ اللَّه تعالى أعطانا العقل الذي به ندرك الآيات التي نَصبها لنا لنستدل بها على وجوده، ووحدانيته، وقدرته، وعلمه، وحكمته، ولطفه، ورحمته.

وبالنظر في هذه الآيات نَصِلُ- بتيسير اللَّه- بعقولنا إلى إدراك بدائع عجيبة، وأسرار غريبة، ما تزال تتجلى لنا ما دمنا نتأمل فيها ونعتبر بها.

وما يزال الإنسان يكتشف منها حقائق، مضت عليه أزمان، وهو يعدّها من المحال، ويجتني منها فوائد ما كانت تخطر له في أحقابه الماضية على بال.

لطف اللَّه في جعل حدّ لعقل الإنسان:

غير أنّ استجلاءَ هذه الحقائق واستحصال هذه الفوائد من الآيات

الكونية- على نفاستها وعظيم نفعها- محفوفٌ بخطر الإعجاب بذلك العقل حتى يحسب أنه محيط بالحقائق كلها، وأن مدركاتها يقينيات بأسرها.

فيؤديه حسبانه الأول إلى الفتنة بالمدركات، فيحسب أنه لا شيء بعدها، فقد يخرج إلى إنكار خالقها.

ويؤديه حسبانه الثاني إلى الذهاب في ظنونه وأوهامه وفرضياته إلى غايات لا نسب بين اليقين وبينها.

فكان من لطف اللَّه بالإنسان أن جعل لعقله حدًّا يقف عنده وينتهي إليه، ليسلم من هذا الخطر، خطر الإعجاب بالعقل.

ففي آيات اللَّه الكونية حقائق كثيرة تقف العقول حيارى أمامها، وقد تشهد آثارها ولا تستطيع أن تعرف كنهها، كحقيقة الكهرباء في الكون، وحقيقة الروح والعقل في الإنسان.

فمثل هذه الحقائق المنغلقة التي يرتد عقل الإنسان إليه عنها خاسئًا وهو حسير، هي التي تعرّفه بقدره، وبعظمة هذا الكون، وفخامة أمره، فيقف بعقله عند حد النظر والاعتبار والاستدلال ببديع الصنعة وعظيم النعمة على حكمة اللَّه البالغة ومنَّته السابغة، دون خلط للأوهام بالحقائق، ولا فتنة بالمخلوق عن الخالق.

خفاءُ بعض حِكم الأحكام ووجهُه:

هذه الحقائق التي خفيت عن العقل البشري فلم يدرك كنهها، لم تقدح في دلالة آيات الأكوان على ما دلّت عليه، من وجود الخالق ووحدانيته، وقدرته

وعلمه، وحكمته وفضله، وإحسانه ورحمته، فكذلك لم يقدح في بيان القرآن ودلالة آياته خفاء معاني بِضع عشرة كلمة من كلماته.

وكما كان خفاء تلك الحقائق في الآيات الكونية إيقافًا للعقل عند حده، وتعريفًا له بقدره، وتنبيهًا له على عظم آيات ربه، كذلك كان خفاء هذه المعاني في الآيات القرآنية لمثل ذلك.

ونظيرُ الآيات الكونية والآيات الكلامية في هذا الجلاء العام والخفاء الخاص: جملةٌ من الأحكام، كعدد الصلوات والركعات والسجدات، التي خفيت على العقول حكمتها، وقد ظهرت الحكم الكثيرة الجليَّة في سائر أحكام الشريعة غيرها.

ولم يقدح في حكمة الشريعة في أحكامها، خفاء ما خفي في بعضها، كما لم يقدح خفاء ما خفي من حقائق الآيات الكونية ومعاني الآيات الكلامية في دلالتها وبيانها.

والحكمة هنا في هذه الأحكام هي الحكمة المتقدمة فيهما.

ونظير الآيات الكونية والآيات الكلامية والأحكام الشرعية في هذا الخفاء الجزئي تصرفاتُ اللَّه في خلقه بمجاري أقداره، فقد تظهر حِكم اللَّه فيها، وقد تخفى، وقد تخفى دهرًا، وتظهر بعد مدة.

وقد نبهنا اللَّهُ على هذه الحقيقة بما قصّ علينا في قصة يوسف ﷺ، وما كان مجهولًا من حِكم قدر اللَّه في مبدأ أمره، وما ظهر من تلك الحِكم الباهرة للقدر في آخر أمره.

وبما قصه علينا في قصة أم موسى لما أوحى إليها بقذفه في اليمِّ وعدم الخوف عليه، وما كان من عواقب أمره.

وكما لا ينفي الحِكمة عن تدبير اللَّه عدم ظهورها، كذلك لا ينفي الحكمة عن شرعه عدم فهمها، ولا يقدح في دلالة الآيات وبيانها عدم إدراك كنهها أو عدم فهم معناها.

قيام الحجة على الإنسان مما عرفه:

ففي خلق اللَّه، وفي شرع اللَّه، وفي قدر اللَّه، وفي كلام اللَّه، ما يخفى على العقول إدراك حقيقته أو حكمته، أو معناه، لطفًا من اللَّه بالإنسان وتنبيهًا له، وقد قامت الحُجَّة عليه فيما جهل بما عرف، وتجلّت له بدائع الخلقة وجلائل النعمة فيما ظهر، فآمن بوجود مثلها فيما خفي إذ الرب الحكيم الرحيم لا يكون منه إلَّا ما هو حكمة وفيه نعمة.

فكان الإنسانُ في القسم الأول مدركًا مستدلًّا معتبرًا، قد استعمل عقله فأداه إلى الإيمان واليقين فيما ظهر.

وكان في القسم الثاني مصدِّقًا مذعنًا لربه صاغرًا، قد أدرك الحجة فآمن بالغيب فيما استتر، فجمع بين النظر والاستدلال والتسليم والإذعان.

فهذا توجيه وجودِ لفظٍ لا نفهم معناه من كتاب اللَّه- عند من يقول به- ببيان حكمته، مع تنظيره بمثله في خلق اللَّه وشرعه وقدره.

بناء العمل على هذا العلم:

قد رأيتَ كيف يقف العقلُ عاجزًا أمام بعض أسرار الخلق والقدر والشرع

والقرآن، مع يقينه بما علم منها، أنّ ما عجز عن إدراكه ما هو إلّا مثل ما عرف في الحق والحكمة والنعمة، إذ الجميع - ما عرف وما عجز عنه - من إلهٍ واحدٍ حكيمٍ خبيرٍ رحمنٍ رحيمٍ.

فليذكر الناظر في خلق اللَّه وقدره وشرعه وكلامه دائمًا هذه الحقيقة: وهي ثبوت الحق والحكمة والنعمة في جميعها، وإمكان عجز عقله في بعض المواضع والأحوال عن إدراكها.

فيكون عمله في خلق اللَّه هو النظر والبحث والتحليل والاكتشاف، واستجلاء الحقائق الكونية، واستخراج الفوائد العلمية والعملية إلى أقصى حدٍّ توصله إليه معلوماتُه وآلاتُه، حتى إذا انتهى إلى مشكل استغلق عليه اعترف بعجزه، ولم يرتكب من الأوهام والفروض البعيدة ما يكسو الحقيقة ظلمة، ويوقع الباحث من بعده في ضلالة أو حيرة، فكثيرًا ما كانت الفروض الوهمية الموضوعة موضع اليقينيات سببًا في صد العقول عن النظر، وطول أمد الخطأ والجهل.

ويكون عمله في قدر اللَّه هو الاعتبار في تصاريف القدر، والاتعاظ بأحوال البشر، واستحصال قواعد الحياة من سير الحياة، فإذا رأى من تصاريف القدر ما لم يعرف وجهه ولم يتبين له ما فيه من عدل وحكمة وإحسان ورحمة، فليذكر عجزه، وليذكر ظهور ما خفي عنه من مثل ذلك في وقت ثم ظهر له، فيوقن أن هذا مثله، وأنه إذا طالت به الأيام قد يظهر له من وجهه ما خفي منه، فيتلقاه الآن بالتسليم والتنزيه، رادًّا علمه إلى اللَّه تعالى، مفوضًا أمره إليه.

ويكون عمله في شرع اللَّه هو الفهم لنصوص الآيات والأحاديث، ومقاصد الشرع، وكلام أئمة السلف، وتحصيل الأحكام وحِكمها، والعقائد وأدلتها، والآداب وفوائدها، والمفاسد وأضرارها، حتى إذا بلغ إلى حكم لم يعرف حكمته وقضاء لم يدر علته ذكر عجزه فوقف عنده، فلم يكن من المرتابين ولا من المتكلفين، ولم يمنعه عجزه عن تعليل وتبيّن وجه ذلك القليل عن المضي في التفهم والتدبر لما بقي له من الكثير.

ويكون عمله في كتاب اللَّه هو التفهم والتدبر لآياته، والتفطن لتنبيهاته ووجوه دلالاته، واستثارة علومه من منطوقه ومفهومه على ما دلت عليه لغة العرب في منظومها ومنثورها، وما جاء من التفاسير المأثورة، وما نقل من فهوم الأئمة الموثوق بعلمهم وأمانتهم، المشهود لهم بذلك من أمثالهم، فإذا وقف أمام المتشابه ردّه إلى المحكم، وإذا انتهى إلى فواتح السور ذكر عجزه فآمن بما لها من معنى، وقال: اللَّه به أعلم.

فهذا السير النظري والعمل العلمي المبني على اليقين بعدل الخالق ﷻ وحكمته ورحمته في خلقه وقدره وشرعه وكلامه، ومعرفة العبد بقدره ومقامه، يزداد السائر على مقتضاه إيمانًا وعلمًا وفوائد جمَّة، ويسلم من الغرور والأوهام والفتنة، وهو سبيل الراسخين الذين يقولون فيما لا يفهمونه:

﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٧].

القول الثاني في فواتح السور:

وذهبت جماعة من أهل العلم- من السلف والخلف- إلى أن هذه الفواتح قد فهمت العربُ المرادَ منها، ولذلك لم تعترض على البيان بها، ولا طعنت

في عربيته بعدم فهمها، وإن كنا لا نجد في كلامها ما نعرف به المعنى الذي فهمته منها.

وممن ذهب إلى ذلك الإمام أبو بكر ابن العربي، فقال في كتاب «القبس على موطأ مالك بن أنس»[١]:

«وليست من المتشابه الذي لا يعلمه إلا اللّه، فإنّ محمدًا ﷺ لو خاطب الكفار منها بما لا يفهم لكان ذلك أقوى أسبابها في الطعن عليه، وكانوا[٢] يقولون: هذا يتكلم بما لا نفهم[٣] وهو يدّعي أنه بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ. وما ﴿حمٓ ۝ عٓسٓقٓ﴾ [الشورى: الآيات ١-٢] في اللسان؟ وما ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم: الآية ١] في الكلام؟ فدل أنهم فهموا الغرض وعرفوا المقصود»[٤].

اختلاف المتأولين:

منهم طائفة تكلمت على كل لفظ من ألفاظ الفواتح وذكرت له معنى، واختلفوا في تلك المعاني التي ذكروها، وهي كما ذكر الإمام ابن العربي: «لا سبيل إلى تمييز واحد منها بدليل لأنه معدوم، ولا بأثر لأنه غير منقول»[٥]. ولا تطمئن إلى شيء منها القلوب التي عاشت على اليقين، ولا تسلّم واحدًا منها العقول التي اعتادت قفو العلم على نور الدليل.

---

(١) في (٣/ ١٠٨٠- ١٠٨١).

(٢) في مطبوعة «القبس»: فكانوا.

(٣) في المطبوعة: «يفهم».

(٤) في المطبوعة: «فدلّ على أنهم علموا الغرض وفهموا المقصود».

(٥) «القبس» (٣/ ١٠٨٠).

ومنهم طائفة أخذتها كلها بوجه واحد.

فقال بعضٌ: إنها حروف تنبيه تقرع الأسماع فتلفت السامعين إلى الاستماع والتدبر، لما اشتملت عليه السورة من الأحكام والعقائد والآداب وغيرها من مقاصد القرآن، فهي نظير ألا والهاء في مألوف الاستعمال.

وقال بعضهم: إنها حروف تعجيز وإفحام وتقريع، لأن القرآن الذي عجزوا عن معارضته، من هذه الحروف وأخواتها تركبت كلماته، فكأنما يقال لهم: ما هذا الذي عجزتم عنه إلا كلام من جنس كلامكم. وما ركبت كلماته إلّا ممّا ركبت منه كلماتكم. وهذا لعجزهم أفضح، ولتقريعهم أوجع.

ومما يؤيد هذا أن أكثر هذه الفواتح ذكر بعده الكتاب المعجز وصفاته، مثل قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ [البقرة: الآية ١- ٢].

﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: الآيات ١- ٣] الآية.

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف: الآيات ١- ٢].

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يونس: الآية ١].

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: الآية ١].

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [يوسف: الآية ١].

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [القصص: الآية ١- ٢].

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة: الآيات ١- ٢].

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [غافر: الآيات ١- ٢].

وغيرها.

الفائدة العلمية:

قد افتُتِحتْ هذه السور من القرآن العظيم بكلمات التنبيه، وجاءت أول سورة منه بعد الفاتحة مفتتحة به.

فلتكن عند قراءته في انتباه، وإقبال على استيعاب لفظه وتفهم معناه، فإن التالي للقرآن والسامع له في حضرة الرب، على بساط القرب. والغفلة في هذا المقام من قلة الأدب.

ومن قلّ أدبه في مقام الإحسان والكرامة، استوجب أضعاف ما يستوجبه غيره من العتب والملامة، وتعرض لموجبات الحسرة والندامة.

فاللَّه نسأل أن يجعلنا من قرائه على انتباه واستحضار، آناء الليل وأطراف النهار، العاملين به بالعشي والإبكار. إنه الجواد الكريم الستار[1][2].

* * *

(١) أسماء اللَّه توقيفية، وليس من أسمائه تعالى الثابتة في الكتاب والسنة الصحيحة اسم «الستار»، واللَّه أعلم.

(٢) الشهاب (ج١، م١٠) رمضان ١٣٥٢هـ - جانفي ١٩٣٤م.

﴿وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ ءَابَاؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [يس: الآيات ٢- ٦].

بيان المفردات:

الحكيم: هو الموصوف بالحكمة، وأصل اللفظ من حكم، بمعنى أمسك.

فالحكمة هي العلم الصحيح الذي يمسك صاحبه عن الجهالات، والضلالات، والسفالات، فيكون ذا إدراك للحقائق قويم، وخلق كريم، وعمل مستقيم، لا يحكم إلّا عن تفكير، ولا يقول إلّا عن علم، ولا يفعل إلّاعلى بصيرة، فإذا نظر أصاب، وإذا فعل أطاب، وإذا نطق أتى بفصل الخطاب.

ووُصِف القرآنُ بالحكيم لأنه هو العلم الصحيح المثمر لهذا كلِّه.

و«الصراط المستقيم»: هو دين الإسلام، الذي جاء به جميع المرسلين، قبل النبي- صلىٰ اللَّه عليه وعليهم وآل كلٍّ وسلم-.

تنزيل: بمعنى مُنَزَّل، وهو الصراط المستقيم.

العزيز: القوي الغالب، الممتنع الذي لا نظير له.

الرحيم: المنعم الدائم الإنعام والإحسان(١).

«الإنذار»: الإعلام بوقوع ما يخاف منه، وهو الهلاك والعذاب العاجل

---

(١) انظر لزامًا ما علقناه (ص١٥-١٦ و٨٢).

والآجل.

و«الغافل عن الشيء»: التارك له المعرض عنه، مع حضوره لديه، لاشتغال باله بسواه.

المعنى:

أقسم اللَّه تعالى بالقرآن الحكيم على أن محمدًا ﷺ من المرسلين ردًّا على من قالوا له: ﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾ [الرّعد: الآية ٤٣]، في حال أنه على دين الإسلام الذي بعثه اللَّه به، ثابتًا عليه في عقده، وقوله، وفعله، وجميع أمره.

وأخبر تعالى أن هذا الإسلام الذي جاء به النبي ﷺ نزَّله عليه اللَّه القوي الغالب، الذي لا يُغالَب، العديم الشبيه والنظير، والمنعم الدائم الإنعام المستمر الإحسان.

وبيّن تعالى أنه كان من المرسلين لينذر الأمة العربية ويعلمها سوء عاقبة ما هي عليه من الشرك والضلال، تلك الأمة التي ما أنذر آباؤها، فهي مشتغلة بما توارثته من آبائها من عبادة الأوثان، وارتكاب الإثم والعدوان، وأنواع الضلال والخسران، معرضة عن توحيد خالق الأرض والسموات، وعن النظر فيما نصب للدلالة عليه من الآيات، طال عليها أمد الجهالة، واستولت عليها أسباب الضلالة، فتمكنت منها الغفلة، التمكن التام، فذهبت في أوديتها البعيدة المدى، كالأنعام أو أضل من الأنعام.

أصل المعرفة والسلوك من هذه الآيات الكريمة:

تمهيد:

خلق اللَّه الخلق حنفاء موحدين، فأتتهم الشياطينُ فأضلّتهم عن سواء السبيل، فمن رحمته تعالى بهم، أن أرسل إليهم رجالًا منهم لهدايتهم، وأنزل عليهم كتبًا منه، لدلالتهم.

فاللَّه هو المرسِل، وتلك الكتب هي رسائله، وأولئك الرجال هم رُسُلُه، والخَلْقُ هم المرسَلُ إليهم.

المعرفة:

فللمرسِل العلو والكمال، وله الخلق، والأمر، ومنه الرحمة والعدل، والإحسان والفضل، وله الربوبية، والألوهية دون شريك ولا مثال.

وفي تلك الرسائل الحق، والحكمة والنور المخرج من كل ظلمة، والفرقان في كل شبهة، والفصل في كل خصومة.

بها تفتح البصائر، وتطهر الضمائر، وتعرف طريق الحق والهدى، من طرائق الباطل والضلال.

ولأولئك الرسل- عليهم الصلاة والسلام- أكمل ما يمكن للإنسان من كمال، وأكمل المعرفة بالمرسِل- تعالى- وأعظم الخشية، وأكمل الرحمة بالخلق، وأشد الشفقة عليهم، وأكمل العلم بما جاءوا به، وأعظم التمسك به، وأكثر الاتباع له.

فلا كمال إلا بالاقتداء بهم، ولا نجاة إلا باتباعهم، ولا وصول إلى اللَّه

تعالى إلا باقتفاء آثارهم.

وللمرسَل إليهم عجزُ المخلوق وضعفُه أمام خالقه، وحاجتُه وافتقارُه إليه، وعليه حق عبادته، وطاعتُه والرجاءُ لفضله، والخوف من عقابه، والفكرُ في آياته، ومخلوقاته، والنهوضُ للعمل في مرضاته، واستثمارُ أنواع نعمائه، والشكر له على جميع آلائه.

فبمعرفة هذه الأربعة حق معرفتها، ومعرفة مقام كل واحد منها، وما له فيه- كمالُ الإنسان العلمي الذي هو أصل كماله العملي، والشرط اللازم فيه.

وقد اشتملت هذه الآيات على هذه الأربعة في حق الأمة المحمدية.

فالمرسِل هو العزيز الرحيم.

والرسالة هي القرآن الحكيم.

والرسول هو محمد ﷺ المخاطب بـ ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

والمرسل إليهم هم العرب الذين ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾.

تمهيد:

لما ضلَّ الخلق عن طريق الحق، والكمال، الذي يوصلهم إليه إلى مرضاته والفوز بما لديه، أرسل إليهم الرسل ليعرِّفوهم بأن ذلك الطريق هو الإسلام، ويكونوا أدلتهم في السير وقادتهم إلى الغاية، وأنزل عليهم الكتب لينيروا لهم بها الطريق، ويقودوهم على بصيرة، ويتركوهم على البيضاء ليلها كنهارها، لا يهلك عليها إلا من ظلم نفسه، فحاد عن السواء، أو تخلف عن القافلة فكان من الهالكين.

فالقافلة هم الخلق، والطريق هو الإسلام، والأدلة هم الرسل، والمصابيح هي الكتب، والغاية هو اللَّه ﷻ.

السلوك:

فعلى مريد النجاة من المهالك، والفوز بأسمى المطالب، وأعلى المراتب- أن ينضم إلى القافلة الربانية، يتعاون مع أفرادها، ويقوم بحق الرفقة فيها، ويعدّ نفسه جزءًا منها، لا سلامة له إلا بسلامتها.

فهو يحب لكل واحد منها ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لها، ويهديه إلى ما يهديها إليه من خير، ويقيه مما يقيها منه من سوء.

وأن يطيع أولئك الأدلة ويقتفي آثارهم، وينزل بنزولهم، ويرتحل بارتحالهم، وأن يرجع في معرفة وجوه السير وأصنافه وأوقاته ومراحله ومنازله إليهم دون أدنى اعتراض، ولا مخالفة.

ويقابل ما يتحملونه من مشاق الدلالة، ومتاعب القيادة، بغاية ما يستطيع من الأدب معهم، والتعظيم، والانقياد لهم والمحبة فيهم، وحسن الثناء عليهم، وطلب عظيم الجزاء من اللَّه تعالى لهم على عظيم إحسانهم.

وأن يلتزم ذلك الطريق، ويسير في سوائه غير مائل إلى جنباته، ولا ذاهب في بُنياته[1]، لا مفرطًا في السير يسبق الرفقة، فينفرد بلا دليل، ولا مفرِّطًا فيه، فيتخلف عنها بلا معين، نمطًا وسطًا مع الجماعة، لا من الغلاة ولا من

(١) بُنيات الطريق: جمع بُنية، تصغير بنت، هي ما يخرج من نواحيه من طرق صغيرة تضل السائر عن الغاية وتبعده عن الرفقة وتتعبه في السير. [المصنف].

المقصرين.

وأن يستنير بما رفعه أولئك الأدلة من مصابيح الهداية، وأن يسير تحت أنوارها الساطعة، مفتح البصر للاستضاءة بها، غير مغلق الأجفان عنها، متعرفًا بها أديم الأرض ومواقع قدمه منها.

وأن يعرف عظم الغاية التي هو سائر إليها، فيقصر همّه كلّه في الوصول إليها، ويحضرها قلبه في كل لحظات سيره ليسرع مع الرفقة إليها، وتخف عليه مشاق الطريق وأتعابها، ويعذب لديه كل ألم في الانتهاء إليها.

فبسلوك هذا الطريق القويم، بدلالة الرسول الكريم، وأنوار الكتاب المبين، إلى رب العالمين الرحمن الرحيم، كمالُ الإنسان العملي المبني على الكمال العلمي.

وقد اشتملت هذه الآيات على ذكر السالكين وهم المنذرون، وعلى الدليل وهو الرسول ﷺ، وعلى الطريق وهو الصراط المستقيم المنزل من اللَّه، وعلى ما بيَّن الطريق وهو القرآن الحكيم.

الحكمة في هذه الآيات:

قال ابن وهب: سمعت مالكًا[1] رضي الله عنه يقول: «الحكمة: الفقه في دين اللَّه والعمل به»[2].

ففي الفقه في دين اللَّه الكمال العلمي، وفي العمل به الكمال العملي.

---

(١) في الأصل «مالك».

(٢) تقدم في (١/ ٢٨٢).

وهذه الآيات- على إيجازها- قد اشتملت على أصول ما به كمال الإنسان العلمي وكماله العملي، اللذان بهما كماله الروحي والبدني، ونعيمه الدنيوي والأخروي.

وما كماله العلمي وكماله العملي إلا بالمعرفة الصحيحة والسلوك المستقيم، وهما اللذان تقدم في الفصل السابق بيانهما.

وفسّر مالك الحكمة بهما؛ إذ الفقه في دين اللَّه هو المعرفة الصحيحة، والعمل به هو السلوك المستقيم، وهما الحكمة التي وُصف به في الآية الأولى القرآنُ العظيم؛ لأنه كتاب العلم والعمل اللذين لا يكون بدونهما حكيم.

فكما اشتملت هذه الآيات على أصول الحكمة، دلت على أصلها، ومأخذها، وما يكون الإنسان بعلمه والعمل بما فيه من أهلها، وهو القرآن الحكيم.

توجيه القسم في الآيات:

أقسم اللَّه بالقرآن الحكيم على أن محمدًا من المرسَلين، لينذر الغافلين حال أنه على صراط عظيم مستقيم منزَّل من العزيز الرحيم؛ لأن القرآن هو كتاب محمد ﷺ الذي كان يتخلق به، ويهتدي بما فيه، وينذر به، ويدعو إليه، ويبينه للناس بقوله، وفعله، وهو برهانه، وحجته، وآيته، ومعجزته.

كما أنه كتاب الإسلام، الذي هو الصراط المستقيم، فيه حجته، ودلائله، فيه أحكامه وحِكمه، فيه آدابه وشمائله.

فيه بيان حقيقته وما هو منه ونفي ما ليس منه عنه.

فيه بيان تاريخه، وتاريخ الإنسانية معه.

فيه ذكر أوليائه، وحسن بلائهم في سبيله، وحسن أثره فيهم، والعود بالعاقبة المحمودة عليهم، وذكر أعدائه وجهدهم في مقاومته، وسقوط شُبهِهم أمام حُجَّته، وذهاب باطلهم أمام حقِّه، وشدة أخذه لهم على ظلمهم، ونزول نقمته بهم، وحلول دائرة السوء عليهم.

فيه الإسلام كله، فمن طلبه فيه وجده ونجا به، ومن طلبه في غيره[1] ضلّ، وكان من الهالكين.

عقائد وأدلتها من هذه الآيات:

العقيدة الأولى: محمد رسول اللَّه ﷺ.

دليلها الأول: القرآن الحكيم الذي جاء [به][2] رجل أُمِّيٌّ، ما قرأ ولا كتب، ولا دارس العلماء، ولا عرف الكتب.

ودليلها الثاني: موافقة دعوته ﷺ لدعوة المرسَلين- صلوات اللَّه عليهم- إلى عبادة اللَّه وحده، وتصديق ما جاءهم به من عنده دون أن يسألهم على ذلك أجرًا.

وهذا من قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فهو من المرسلين من جهة إرساله؛ لأنه منهم في أقواله وأفعاله، نظير قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: الآية ٩]، وقوله: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصَّافات: الآية ٣٧]،

---

(١) بيان النبي ﷺ للقرآن من القرآن، لقوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النّحل: الآية ٤٤]، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: الآية ٧]. [المصنف].

(٢) سقطت من الأصل.

وقوله: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [النِّساء: الآية ١٦٣] .

ودليلها الثالث: هذا الدين الكامل الجامع الذي هدى به النوع الإنساني أفرادًا وجماعاتٍ إلى ما فيه سعادته، فأطلق فكره، وسدد نظره، وقوّم عقائده، وهذّب أخلاقه، ونظم اجتماعه، ووضع له قواعد الحياة والعمران على العدل والإحسان، ووجههم إلى خالقهم، وما أعدَّ لهم عنده- إن آمنوا وعملوا الصالحات- من النعيم المقيم والرضوان التام.

ودليلها الرابع: سلوكه هو في حياته على هذا الصراط المستقيم من يوم عرف الدنيا حتى فارقها، فكان يمثله على أكمل وجه لا يخلُّ بشيء منه، ثابتًا عليه لا يحيد قيد شعرة عنه دون أن تحفظ عنه زلَّة، ولا تعرف منه في القيام به والدعوة إليه فترة، ولا تقف أمامه قوة، ولا ترد له حادثة عزمة، ولا تحمله على هوادة فيه رغبة ولا رهبة، ولا تبدل حاله رخاء ولا شدة.

فكان في كرمِ خُلقِه، وتمامِ زُهده، وعظيم تألُّهه، وتوجُّهه لربه، بعد ما فتح اللَّه له الفتح المبين، ودخل الناس أفواجًا في الدين، كما كان أيام كان وحيدًا بين أعظم أعدائه من المشركين.

وما هذا من شأن البشر وطبعهم لولا عصمة وتأييد رب العالمين.

العقيدة الثانية: القرآن كلام اللَّه ووحيه.

ودليلها: أنه حكيم، فما فيه من العلم وأصول العمل، لا يمكن أن يكون إلا من عند اللَّه في عقائده ودلائلها، وأحكامه وحكمها، وآدابه وفوائدها، إلى ما فيه من حقائق كونية كانت مجهولة عند جميع البشر، وما عرفت لهم إلا في هذا العصر الأخير.

ومن أشهرها مسألة الزوجية الموجودة في جميع هذا الكون حتى أصغر جزء منه، وهو الجوهر الفرد المركب من قوتين موجبة وسالبة.

جاءت هذه المسألة في آيات كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: الآية ٤٩].

ومنها: مسألة حياة النبات التي جاءت في مثل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: الآية ٣٠].

ومنها: مسألة تلاقح النباتات بواسطة الرياح التي تنقل مادة التكوين من الذكر إلى الأنثى، جاءت في آيات كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحجر: الآية ٢٢].

فهذه حقائق علمية كونية أجمع علماء العصر أنها من المكتشفات الحديثة، ولم تكن معلومة عند أحد من الخلق قبل اكتشافها، ولا كانت عندهم الآلات الموصلة إلى معرفتها.

وكفى بهذا القل من الكثر دليلًا على أن هذا القرآن ما كان إلا من عند اللَّه الذي خلق الأشياء ويعلم حقائقها.

العقيدة الثالثة: الإسلام دين اللَّه الذي شرعه وارتضاه.

ودليلها مستفاد من وصفه بأنه صراط مستقيم، فهو تشريع تام عام لجميع أعمال الإنسان: أعمال قلبه، وأعمال لسانه، وأعمال جوارحه، وجميع معاملاته الخاصة والعامة بين أفراده وأممه، ولا تخرج كلية من كلياته ولا جزئية من جزئياته عن هذا الأصل العام المتجلي في جميع الأحكام وهو

«الحق والخير والعدل والإحسان».

وقد وضع عقلاء الأمم شرائع في بعض نواحي أعمال الإنسان، ولكنها بإجماع المتشرعين لا تخلو من نقص واعوجاج واضطراب، فهم ما يفتئون يتبعونها بالتكميل والتقويم والتعديل على ممرِّ الأيام.

ولو عرضت كل حكم من أحكامه على الأصل العام الذي ذكرناه؛ لوجدته منطبقًا عليه، ظاهرًا فيه، حتى ما خفي وجهه على الأمم الأجنبية من الإسلام أيام تأخرها، وقد ظهر لها فضله ونفعه أيام تقدمها، فجاء كبراء عقلائها يعترفون فيها بصواب ما شرعه فيها الإسلام.

ثم هم يعجزون عن تطبيقها على أممهم للعادة الغالبة والوراثة القديمة، منها مسألة الطلاق وتعدد الزوجات وتحريم الربا تحريمًا باتًّا.

فكم من عالم غير مسلم صرح بأن الحق والعدل والخير للإنسانية في هذه المسائل هو ما شرعه الإسلام على الوجه الذي شرعه الإسلام.

فهذه الاستقامة التامة العامة المطردة في شرع جاء به رجلٌ أُمِّيٌّ من أُمَّةٍ أُمِّيَّةٍ جاهلية، يجزم كل عاقل بأنه ليس من وضع العباد، وإنما هو من وضع خالق العباد[1].

* * *

(١) الشهاب (ج٢، م١٠) غرة شوال ١٣٥٢هـ - جانفي ١٩٣٤م.

الوحي مصدر الإسلام

جملة(١) ﴿تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [يس: الآية ٥] بيّنت وجه استقامة ذلك الصراط الذي هو الإسلام بأنه تنزيل العزيز الرحيم.

وأفادت أن جميع هذا الدين وحي من اللَّه منزل على نبيه ﷺ، وهذا لأن مرجع الإسلام في أصوله وفروعه إلى القرآن، وهو وحي من اللَّه، وإلى السنة النبوية، وهي وحي أيضًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: الآية ٣- ٤].

وكل دليل من أدلة الشريعة فإنه يرجع إلى هذين الأصلين، ولا يقبل إلا إذا قبلاه ودلا عليه.

وكل شيء ينسب للإسلام ولا أصل له فيهما فهو مردود على قائله، وقد قال ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»[١٨٢].

الإسلام دين العز والرحمة:

ذكر من أسمائه تعالى في هذا الموطن ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ للتنبيه على أن هذا

(١) في الأصل: «جملة هو».

[١٨٢] صحيح:

رواه البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

ورواه مسلم بلفظ: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد».

وقد تقدم برقم (١١٩).

الدين الذي نزله الرب الموصوف بالعزة والرحمة هو دين عزة ورحمة.

ومن مقتضى العزة: القوة والمنعة والرفعة، ومن مقتضى الرحمة: الفضل والخير والمصلحة، وهذه كلها متجلية في أحكام الإسلام.

والعدل والإحسان اللذان أمر اللّٰه بهما وانبنت أحكام الإسلام عليهما لا يكونان إلا عن العزة والرحمة، فالذليل لا ينهض بالحكم ولا يقيم ميزان العدل، والقاسي لا يكون منه إحسان.

اهتداء واقتداء:

فالمسلم المتحقق بالإسلام المهتدي بهدايته لا يكون إلا عزيزًا رحيمًا.

فالذلة من المسلم نقص في إسلامه، والقساوة مثلها نقص فيه.

وقد ذكر اللّٰه تعالى سادات المسلمين في عزتهم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشّورى: الآية ٣٩]. وذكرهم في رحمتهم فقال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحَشر: الآية ٩].

ونِعْم القدوة هم لجميع المسلمين.

النذارة ثمرة الرسالة:

كان من المرسلين لينذر الغافلين، فالأول كمال، والثاني تكميل.

وقد فطر اللّٰه رسله- صلى اللّٰه عليهم وسلَّم- على الرحمة وحب الخير، فكانوا أحرص الناس على نجاة الناس وكمالهم وسعادتهم، فصبروا على تكذيبهم وإذايتهم حتى أدوا أمانة اللّٰه إليهم، وأقاموا حجته عليهم، وكان اللّٰه ينجيهم ومن آمن بهم، وينزل عقوبته بالمكذبين لهم، وينصرهم عليهم؛ فأعلم

محمدًا ﷺ - بأنه من المرسَلين لينذر - ليأتسي بهم، ويصبر صبرهم، ويرجو من نصر اللَّه له وإهلاك أعدائه ما كان منه تعالى لهم.

اقتداء:

العلماء ورثة الأنبياء، وما ورَّث الأنبياء دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورَّثوا العلم(١).

والعلم مستمد من الرسالة، فعلى أهله واجب التبليغ والنذارة، والصبر على ما في طريق ذلك من الأذى والبلايا، والعطف على الخلق والرحمة، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: الآية ١٢٢].

التدريج في الإنذار:

أرسل اللَّهُ محمدًا ﷺ للعالمين بشيرًا ونذيرًا، ودرَّجه في النذارة على مقتضى الحكمة من القريب إلى البعيد.

فأمره بإنذار عشيرته بقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشُّعراء: الآية ٢١٤]. فصعد الصفا فنادى بطون قريش حتى نادى العباس عمه، وصفية عمته، وفاطمة ابنته، وقال لهم: «**اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من اللَّه شيئًا**»[١٨٣].

---

(١) هذه الجمل من مشكاة النبوة، وردت في حديث ثابت تقدم بتمامه في هامش (ص٢٠٥).

[١٨٣] **صحيح:**

فعن أبي هريرة قال:

قام رسول اللَّه ﷺ حين أنزل اللَّه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشُّعراء: الآية ٢١٤] قال: =

وأمره بإنذار من حول مكة من العرب بقوله تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشّورى: الآية ٧] . على الوجه الأقرب في معنى ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ المؤيد بصدر الكلام وهو قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الشّورى: الآية ٧] .

ومثلها في إنذار العرب ما في هذه الآية وهو قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [يس: الآية ٦] .

فكان يعرض نفسه على قبائل العرب في المواسم[١٨٤] .

وأمره بتعميم الإنذار بمثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: الآية ١٥٨] .

= «يا معشر قريش - أو كلمة نحوها - اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من اللّه شيئًا، يا بني عبد مناف، لا أغني عنكم من اللّه شيئًا، يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من اللّه شيئًا، ويا صفية عمة رسول اللّه لا أغني عنك من اللّه شيئًا، ويا فاطمة بنت محمد، سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من اللّه شيئًا».

رواه البخاري (٢٧٥٣و٣٥٢٧و٤٧٧١) ومسلم (٢٠٦).

وله شاهد عن عائشة أخرجه مسلم (٢٠٥).

[١٨٤] صحيح:

فعن جابر بن عبد اللّه قال:

«كان رسول اللّه ﷺ يعرض نفسه على الناس في الموسم فيقول:

ألا رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشًا منعوني أن أبلغ كلام ربي».

أخرجه أبو داود (٤٧١٩) والترمذي (٢٩٣٠) وقال: «حديث غريب صحيح»، والنسائي في «الكبرى» (٧٧٢٧) والدارمي (٢/ ٤٤٠) وابن ماجه (٢٠١) وأحمد (٣/ ٣٩٠) والحاكم (٢/ ٦١٢-٦١٣) ولفظهما أتمُّ - وقال:

«حديث صحيح على شرط الشيخين» ! ووافقه الذهبي !!

وله طريق آخر عنه بنحوه مطولًا: أخرجه أحمد (٣/ ٣٢٢-٣٢٣و٣٣٩-٣٤٠).

فأرسل رسله إلى الأمم تحمل كتبه إلى ملوكها بالدعوة إلى الإسلام، وكان ذلك هو الإنذار العام.

اندفاع إشكال:

قد كان النبي يُرسَلُ إلى قومه خاصة، وأُرسل نبيُّنا ﷺ إلى الناس عامة بمثل قوله: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: الآية ١٩] أي بالقرآن، كلّ من بلغه القرآن.

ولا يشكل على ذلك مثل ما تقدم من الآيات في إنذار عشيرته الأقربين وقومه العرب، لأنه ابتدأ بهما لحكمة التدريج وحق القريب، لا للتخصيص، بدليل ما جاء من آيات التعميم.

اقتداء:

هكذا على المرء أن يبدأ في الإرشاد والهداية بأقرب الناس إليه ثم من بعدهم على التدريج، وعندما يقوم كل واحد منا بإرشاد أهله وأقرب الناس إليه لا نلبث أن نرى الخير قد انتشر في الجميع.

فمن الأُسر تتركب الأمة، فعندما يُعنى كل واحد بأسرته ترتقي الأمةُ كلُّها بارتقاء أسرها كارتقاء أيِّ كُلٍّ بارتقاء أجزائه، فيكون المعتني بأسرته في الوقت نفسه معتنيًا بأمته.

وعندما يقصد بخدمة أسرته خدمة أمته يُثاب ثواب خادم الجميع، أسرته بالفعل، وأمته بالقصد، أو أسرته مباشرة، وأمته بواسطة، وكل هذا مما يثاب المرء شرعًا عليه.

استطراد واستنباط[1]:

لما كان العرب لم يأتهم نذير قبل النبي ﷺ بنص هذه الآية وغيرها، فهم في فترتهم ناجون لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: الآية

---

(١) في هذا الاستنباط نظر عند المحققين، وبيانه:

أن أهل الفترة قسمان:

الأول: بلغتهم الدعوة، وهم بدورهم قسمان:

١- بلغتهم الدعوة فآمنوا، فهؤلاء ناجون.

وهذا القسم لا خلاف فيه، لثبوت الأحاديث الصحيحة الدالة على أنهم ماتوا على التوحيد.

ومثاله زيد بن عمرو بن نفيل -وهو أبو سعيد بن زيد، أحد العشرة المبشرين بالجنة رضي الله عنه- كما في «صحيح البخاري» (٣٨٢٦، ٣٨٢٧، ٣٨٢٨)، وقد قال ﷺ: «**دخلتُ الجنةَ فرأيتُ لزيد بن عمرو ابن نفيل درجتين**». [صحيح الجامع (٣٣٦٢) للألباني].

٢- بلغتهم الدعوة فكفروا، فهؤلاء غير ناجين.

والأمثلة على هذا القسم كثيرة متوافرة، ثابتة في الأحاديث الصحيحة المستفيضة، منها:

- عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**رأيتُ عمرو بن عامر الخُزاعي يجرّ قصبه في النار، كان أوّل من سيّب السوائب**».

أخرجه البخاري (٣٥٢١، ٤٦٢٣) ومسلم (٢٨٥٦).

- وعن عائشة قالت: قلتُ: يا رسول الله! ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعه؟ قال: «**لا ينفعه، إنه لم يقل يومًا: ربّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين**».

أخرجه مسلم (٢١٤).

- وعن أنس أن النبي ﷺ مرّ بنخل لبني النجار، فسمع صوتًا، فقال: «ماهذا.»، فقالوا: قبر رجلٍ دُفِنَ في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «**لولا أن لا تدافنوا لدعوتُ الله ﷻ أن يسمعكم من عذاب القبر ما أسمعني**».

أخرجه أحمد (٣/ ٢٠١) بسند صحيح على شرط الشيخين كما قال الألباني في «الصحيحة» (١٥٨).

- وعن أبي سعيد الخدري عن زيد بن ثابت -قال أبو سعيد: ولم أشهده من النبي ﷺ ولكن حدثنيه زيد ابن ثابت- قال:

«بينما النبي ﷺ في حائط لبني النجار على بغلةٍ له -ونحن معه- إذ حادت به، فكادت تلقيه، وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة -شك الجريري- فقال: «من يعرف أصحاب هذه الأقبر؟»، فقال رجل: أنا، قال: «**فمتى مات هؤلاء؟**»، قال: ماتوا في الإشراك. فقال: «**إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا لدعوتُ الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه**».. الحديث. =

= أخرجه مسلم (٢٨٦٧).

ويدخل في هذا القسم والدا النبي ﷺ للأحاديث الصحيحة الصريحة في أنهما في النار، منها:

١- عن أبي هريرة قال: زار النبي ﷺ قبر أمّه فبكى، وأبكىَ من حوله، فقال: «**استأذنتُ ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت**».

أخرجه مسلم (٩٧٦) وغيره.

قال الإمام النووي في «شرح صحيح مسلم» (٧/ ٤٥):

فيه جواز زيارة المشركين في الحياة، وقبورهم بعد الوفاة، لأنه إذا جازت زيارتهم بعد الوفاة ففي الحياة أولى، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥]، وفيه النهي عن الاستغفار للكفار».

٢- وعن بُريدة قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر (وفي رواية: في غزوة الفتح)، فنزل بنا ونحن معه قريب من ألف راكب، فصلى ركعتين، ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تذرفان، فقام إليه عمر بن الخطاب، ففداه بالأب والأمّ، يقول: يا رسول اللَّه ما لك؟ قال:

«**إني سألتُ ربي ﷻ في الاستغفار لأمي، فلم يأذن لي، فدمعت عيناي رحمة لها من النار، واستأذنتُ ربي في زيارتها فأذن لي، وإني كنتُ نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، ولتزدكم زيارتها خيرًا**».

أخرجه أحمد (٥/ ٣٥٥، ٣٥٧، ٣٥٩) وابن أبي شيبة (١١٨٠٧) والحاكم (١/ ٣٧٦) وابن حبان (٧٩١- الموارد).

وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي.

وقال الألباني في «أحكام الجنائز» (ص ١٨٨): «وهو كما قالا».

٣- وعن أنس أن رجلًا قال: يا رسول اللَّه! أين أبي؟ قال: «**في النار**»، فلما قفَّى دعاه، فقال: «**إن أبي وأباك في النار**».

أخرجه مسلم (٢٠٣) وغيره.

قال النووي في «شرح صحيح مسلم» (٣/ ٧٩):

«فيه أن من مات على الكفر فهو في النار، ولا تنفعه قرابة المقربين، وفيه أن من مات في الفترة على ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان فهو من أهل النار، وليس هذا مؤاخذة قبل بلوغ الدعوة، فإن هؤلاء كانت قد بلغتهم دعوة إبراهيم وغيره من الأنبياء صلوات اللَّه تعالى وسلامه عليهم».

٤- وعن عامر بن سعد [بن أبي وقاص] عن أبيه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: إنّ أبي كان يصل، وكان، وكان، فأين هو؟ قال: «**في النار**».

قال: فكأن الأعرابي وجد من ذلك، فقال: يا رسول اللّه، أين أبوك؟ قال: «**حيثما مررتَ بقبر كافر فبشره بالنار**». =

= أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» والبزار (٩٣- كشف الأستار) وغيرهما بسند صحيح كما قال الألباني في «الصحيحة» (١٨) و«أحكام الجنائز» (ص ١٩٨- ١٩٩).

قال البيهقي في «دلائل النبوة» بعد روايته لهذه الأحاديث:

«وكيف لا يكون أبواه وجدُّه -عليه الصلاة والسلام- بهذه الصفة في الآخرة، وقد كانوا يعبدون الوثن حتى ماتوا ولم يدينوا بدين عيسى ابن مريم عليه السلام، وكفرهم لا يقدح في نسبه -عليه الصلاة والسلام-؛ لأن أنكحة الكفار صحيحة، ألا تراهم يسلمون مع زوجاتهم، فلا يلزمهم تجديد العقد ولا مفارقتهن، إذ كان مثله يجوز في الإسلام، وباللَّه التوفيق».

وقال الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ٢٨١):

«وأمَّا الحديث الذي ذكره السُّهيلي وذكر أن في إسناده مجهولين إلى ابن أبي الزناد عن عروة عن عائشة رضي الله عنها «أن رسول اللَّه ﷺ سأل ربّه أن يحيي أبويه، فأحياهما وآمنا به»، فإنه حديث منكر جدًّا، وإن كان ممكنًا بالنظر إلى قدرة اللَّه تعالى، لكن الذي ثبت في «الصحيح» يعارضه، واللَّه أعلم».

القسم الثاني: لم تبلغهم الدعوة، وهم غالب أهل الجاهلية الذين وردت فيهم النصوص بعدم إتيان النذير إليهم.

والأصل في هؤلاء امتحانهم في عرصات القيامة، لحديث الأسود بن سريع رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«أربعة يحتجون يوم القيامة: رجلٌ أصمّ لا يسمع، ورجل هرم، ورجل أحمق، ورجل مات في الفترة.

أمَّا الأصم فيقول: ربّ لقد جاء الإسلام وأنا ما أسمع شيئًا.

وأمَّا الأحمق فيقول: ربّ لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفونني بالبعر.

وأمَّا الهَرِمُ فيقول: ربِّ قد جاء الإسلام وما أعقل.

وأمَّا الذي في الفترة فيقول: ربّ ما أتاني رسول.

فيأخذ مواثيقهم لَيُطيعنّه، فيرسل إليهم رسولًا أن ادخلوا النار، فوالذي نفسي بيده لو دخلوها لكانت عليهم بردًا وسلامًا».

رواه أحمد (٤/ ٢٤٤) والبزار (٢١٧٤- كشف الأستار) بإسنادٍ صحيح، كما قال ابن القيم في «طريق الهجرتين» (ص ٥٨٨):

وصححه ابن حبان (١٨٣٧- الموارد)، والبيهقي في «كتاب الاعتقاد» كما في «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٨٨)، وعبد الحق الإشبيلي كما في «طريق الهجرتين» (ص ٥٨٨- ٥٨٩).

وقواه ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٢٩١) وفي «البداية والنهاية» (٢/ ٢٨١)، وابن حجر العسقلاني في «فتح الباري» (٣/ ٣١٣) والألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٤٣٤، ٢٤٦٨) وغيرها.

* أمَّا ما ذكره العلَّامة ابن باديس فجوابه كما يلي: =

= ١- قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾.
فهذه الآية تدل على عدم حصول الإنذار لأهل الفترة، وهذا واضح، وليس فيها الحكم عليهم بالنجاة ودخول الجنة، فالذين لم تبلغهم الدعوة لا يؤخذ حكمهم من مثل هذه النصوص العامة لورود أحاديث خاصة تدل على امتحانهم في الآخرة كما تقدم.
٢- قوله: «لما كان العربُ لم يأتهم نذيرٌ قبل النبي ﷺ بنصّ هذه الآية وغيرها فهم في فترتهم ناجون لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ و﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾».
جوابه من وجهين:
أ - لا دليل على أن عدم مجيء النذير يدل على النجاة، وغاية الأمر أنه يدل على أنهم من أهل الفترة الذين لم تبلغهم الدعوة، وحكم هؤلاء الامتحان لثبوت الدليل الخاص.
ب - قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ يدل على حصول العذاب لمن وصلته الدعوة وكفر، أمَّا من لم يبعث إليه الرسول ولم تبلغه الدعوة فلا يؤخذ حكمه من مفهوم هذه الآية، بل من منطوق النصوص النبوية الصريحة بصيرورتهم إلى الامتحان.
٣- قوله: «وغيرهما، وكلها آيات قواطع في نجاة أهل الفترة».
جوابه: هي قواطع في حصول العذاب على من بلغته الدعوة، أمَّا من لم تبلغه فلا دلالة في هذه الآيات على النجاة ودخول الجنان، وغايتها دلالتها على انطباق وصف الفترة عليهم، وحكم هؤلاء مأخوذ من نصوص الامتحان فلا إشكال.
٤- قوله: «ولا يستثنى من ذلك إلَّا من جاء فيهم نصٌّ ثابتٌ خاصٌّ، كعمرو بن لحي أول من سيّب السوائب وبدّل شريعة إبراهيم وغيرّ، وحلّل للعرب وحرّم».
جوابه من وجهين:
أ - عمرو بن لُحّي وغيره ممن جاء النص بعذابه مندرج تحت القسم الأوّل، وهم من بلغتهم الدعوة فكفروا، أمَّا من لم تبلغهم فحكمهم الامتحان ولا إشكال.
ب - لازمه استثناء والدي النبي ﷺ من النجاة لأنهما ممن جاءت فيهما نصوص ثابتة خاصة كما تقدم من حديث أبي هريرة وبُريدة وأنس وسعد بن أبي وقاص ﵃.
٥- قوله: «فأبوا النبيّ ﷺ ناجيان بعموم هذه الأدلة».
جوابه من وجوه:
أ - أن والدي النبي ﷺ مندرجان تحت القسم الأوّل وهم من بلغتهم الدعوة فكفروا، وقد وردت فيهما نصوص خاصة، فلا يستدل على حكمهما بعموم تلك الأدلة ويترك الدليل الخاص الوارد فيهما.
ب - أن تلك الأدلة العامة ليس فيها التصريح بالنجاة، وغايتها دلالتها على حصول وصف الفترة عليهم، وحكمهم الامتحان كما سبق. =

= ج - أن إخباره ﷺ عن أبويه بأنهما من أهل النار في الأحاديث الصحيحة المتقدمة لا ينافي الحديث الصحيح في أن أهل الفترة يمتحنون في عرصات القيامة، فيكون منهم من يجيب، ومنهم من لا يجيب، فيكون هؤلاء من جملة من لا يجيب، فلا منافاة، كما أفاده ابن كثير في «البداية والنهاية».
٦- قوله: «ولا يعارض تلك القواطع حديث مسلم عن أنس مرفوعًا: «**إن أبي وأباك في النار**» لأنه خبر آحاد، فلا يعارض القواطع».
جوابه من وجوه:
أ - أن خبر الآحاد إذا صحّ فهو حجة في العقائد والأحكام، في القطعيات والظنيات، والتفريق بينهما بدعة من المعتزلة وبعض أهل الكلام، لم يعرفها الصحابة والتابعون وأئمة السلف الصالح، كما تقدم تعليقه في (١/ ١١).
ب - أن التفريق قائم على أن خبر الآحاد لا يفيد إلَّا الظن الغالب، ولا يفيد القطع، وهذا ليس مسلَّمًا على إطلاقه كما حققناه في الموضع المشار إليه قريبًا.
ج - أن حديث أنس ومثله حديث أبي هريرة أخرجهما مسلم في «صحيحه» ولم ينتقدا عليه من حفاظ الحديث وأساطين هذا العلم، فهما من الأحاديث الصحيحة المتلقاة بالقبول، فتفيد العلم والقطع عند المحققين، كما أشرنا إليه في الصفحة المذكورة.
د - أن تلك النصوص القواطع المشار إليها تدل على أن بلوغ الدعوة شرط في التعذيب، وليس فيها ما يدل على نجاة أهل الفترة ودخولهم الجنة، ووالدا النبي ﷺ قد بلغتهما الدعوة فلم يؤمنا، ولهذا قال ﷺ: «**إن أبي وأباك في النار**».
٧- قوله: «وهو قابل للتأويل بحمل الأب على العمّ مجازًا، يحسنه المشاكلة اللفظية ومناسبته لجبر خاطر الرجل، وذلك من رحمته ﷺ وكريم أخلاقه».
جوابه من وجهين:
أ - حديث أنس لا يحتاج إلى تأويل، لأن التأويل إنما يصار إليه إذا تعذَّر حمله على الحقيقة، ولا تعذّر هنا، فهو يدل على عدم نجاة من بلغته الدعوة من أهل الفترة فلم يؤمن، وكون الرسول ﷺ يخبر بنفسه أنَّ أباه وأبا الرجل في النار كافٍ لمعرفة أنهما بلغتهما الدعوة فلم يؤمنا.
وعلى احتمال أن أباه ﷺ ممن لم تبلغهم الدعوة من أهل الفترة، فمآله الامتحان كما تقدم في حديث الأسود بن سريع، وإخباره ﷺ عنه أنه في النار دليل على أنه ممن لا يجيب، فلا تعارض ولا منافاة إن شاء اللَّه كما تقدم.
ب - جبر خاطر الرجل يحصل أكثر فيما لو علم أن والد الرسول ﷺ -وليس عمّه فقط- في النار، لأن الوالد أقرب إلى الولد من العمِّ، واللَّه أعلم.
هذا ما يسّر اللَّه تعليقه، وأعان على تقييده، فإن وُفِّقتُ للصواب، فالحمد للَّه على تسديده، وأسأله المزيد من فضله. وإن كانت الأخرى فاللهم غُفرًا.

١٥] ، و﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المَائدة: الآية ١٩] وغيرهما ، وكلها آيات قواطع في نجاة أهل الفترة .

ولا يُستثنى من ذلك إلا من جاء فيهم نصٌّ ثابتٌ خاصٌّ كعمرو(١) بن لُحي ، أول من سيَّب السوائب[١٨٥] ، وبدّل شريعة إبراهيم وغيّر ، وحلّل للعرب وحرّم .

فأَبَوَا النبي ﷺ ناجيان بعموم هذه الأدلة .

ولا يعارض تلك القواطع حديث مسلم عن أنس ﵁ : «أن رجلًا قال للنبي ﷺ : يا رسول اللَّه ، أين أبي؟ قال : في النار ، فلما قَفَّا الرجلُ دعاه فقال : «**إن أبي وأباك في النار**»[١٨٦] . لأنه خبر آحاد ، فلا يعارض القواطع ، وهو قابل للتأويل بحمل الأب على العم مجازًا ، يحسنه المشاكلة اللفظية ، ومناسبته لجبر خاطر الرجل ، وذلك من رحمته ﷺ وكريم أخلاقه .

---

(١) في الأصل : «كعمر»! .

[١٨٥] صحيح :

أخرجه البخاري (٣٥٢١و٤٦٢٣) ومسلم (٢٨٥٦) عن أبي هريرة مرفوعًا :

«رأيت عمرو بن عامر بن لحي الخزاعي يجرُّ قصبه في النار ، وكان أول من سيب السوائب» .

وانظر : تخريج أحاديث «رسالة الشرك» رقم (٣٩)بقلمي .

[١٨٦] صحيح :

رواه مسلم (٢٠٣) وأبو داود (٤٧٠٣) عن أنس .

و (قفّى) : أي ولّى قفاه منصرفًا .

سبب الغفلة ودواؤها:

أفادت الفاء في قوله تعالى: ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ أنّ غفلتهم تسببت عن عدم إنذارهم، فكلُّ أمةٍ انقطع عنها الإنذارُ وتُرِك فيها التذكيرُ؛ واقعةٌ في الغفلة لا محالة.

ولما كان ترك الإنذار والتذكير موقعًا في الغفلة، فالإنذار والتذكير يُزيلانها، فقد عرَّفتنا الآية الكريمة بسبب الغفلة وبعلاجها؛ لنحذر سببها ونعالج أنفسنا وغيرنا بعلاجها.

تطبيق:

كان الناس منذ زمن قريب لا يسمعون ولا يُسمَع منهم لفظُ الاهتداء بهداية القرآن العظيم، والاقتداء بهدي الرسول الكريم ﷺ والسير بسيرة السلف الصالح في النهوض بأعباء الدنيا والدين، وهم- إلا قليلًا- عن هذا غافلون.

أما اليوم بعد أن نهض العلماء المصلحون بواجبهم، ونشروا دعوة الحق في قومهم، فقد أصبح ذلك معروفًا عند أكثر الناس محلّ عناية طلاب العلم ومناط رغبتهم، وفي متناول الناس بجميع طبقاتهم.

وإنا لنرجو من فضل اللّه المزيد، ونشاهد ذلك- والحمد للّه- كل يوم يزيد، فالحمد للّه على ما علّم وألهم، وبصّر ويسّر.

نسأله دوام التوفيق والتسديد، يارب العالمين[1].

* * *

---

(١) الشهاب: (ج٣، م١٠) غرة ذي القعدة ١٣٥٢هـ - فيفري ١٩٣٤م.

لا يُؤمن مَن سبق في علم اللَّه عدم إيمانه

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: الآية ٧] .

المناسبة:

عَلِمَ اللَّهُ أنّ نبيَّه ﷺ يقوم بالنذارة لقومه، ويبذل غاية جهده في تنبيههم من الغفلة، وإنقاذهم من الهلكة.

وعَلِمَ أنهم لا يؤمن به إلّا أقلهم، وعلم أن ذلك يكون من أعظم ما يؤلم النبيّ ﷺ لشدة حرصه على إيمانهم، وعظيم شفقته عليهم. ولعدم ظهور ثمرة ما بذله من جهد في هدايتهم؛ فأراد تعالى أن يقوي قلب نبيه ﷺ على تحمل ذلك بإعلامه به من أول الأمر، إذ ليس المؤلم المتوقع كالمؤلم الذي يصدم عن مفاجأة، وأعظم منه الذي يصدم مع توقع ضده، كما هنا، فإن المتوقع منهم بعد الإنذار البالغ بالبرهان الساطع هو إيمان أكثرهم لا كفره.

المفردات:

حقَّ: وجب وثبت.

القول: قول اللَّه فيهم بما سبق في علمه أنهم لا يؤمنون.

فهم: أي: أكثرهم.

التراكيب:

نفي الإيمان عنهم نفيًا مؤكدًا بالإخبار عن ضمير «هم» بجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وقرنت الجملة بالفاء السببية لتفيد أن من سبق في علم اللَّه عدم إيمانه لا يرجى إيمانه بحال، فارتباط الثاني بالأول ارتباط لا انفكاك له.

المعنى:

لقد وجب وثبت ما سبق في علم اللَّه في أكثرهم، وما كان من قوله بعدم إيمانهم، فلا يرجى من ذلك الأكثر الذي سبق في علم اللَّه عدم إيمانِه إيمانٌ.

سؤال:

ما مات النبي ﷺ حتى عمَّ الإسلامُ جزيرة العرب، ودخل الناسُ في دين اللَّه أفواجًا، ولا شك أنّ الذين ماتوا على الكفر هم الأقل بالنسبة لمن آمنوا، فما معنى قوله تعالى: ﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾؟

جوابه:

الذين قام النبي ﷺ بإنذارهم، وأقام بين ظهرانيهم، مُكَرِّرًا للنذارة عليهم صباح مساء مدة ثلاث عشرة سنة، هم أهل مكة. فهم الذين تتعين إرادتهم من الضمير في قوله تعالى: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ ولا شك أن أكثر من أنذرهم النبي ﷺ من أهل مكة ماتوا على الكفر.

سؤال على هذا الجواب:

هذا يقتضي أن المراد بلفظة ﴿قَوْمًا﴾ المتقدمة أهل مكة، مع أن المفسرين فسّروها بالعرب.

جوابه:

نسلِّم هذا، ويكون تفسير ﴿قَوْمًا﴾ بالعرب، نظرًا لمماثلتهم لأهل مكة في وجوب إنذارهم، باعتبار مشاركتهم لهم في الوصف، وهو غفلتهم، لعدم إنذار آبائهم.

لا حجة لمن مات على كفره بما سبق من علم اللّه فيه:

قامت حجة اللّه على خلقه بما ركَّب فيهم من عقل، وما مكّنهم من اختيار، وما نصب لهم من آيات مشاهدات، وما أرسل إليهم من رسل بآيات بينات.

وهذه كلها أمور معلومة لديهم، ضرورية عندهم، لا يستطيعون أن ينكروا شيئًا منها، فلا يمكنهم أن يجحدوا ما عندهم من عقل ومن اختيار، ولا أن ينفوا ما يشاهدونه من الآيات في المخلوقات، ولا أن ينكروا مجيء الرسل إليهم، وما تلوا عليهم من آيات.

وبهذه الأشياء قامت حجة اللّه عليهم، وكان جزاؤهم على ما اختاروه بعدها لأنفسهم.

فأما ما سبق من علم اللّه فيهم، فهو أمر مغيب عنهم، غير مؤثر فيهم- لأن العلم ليس من صفات التأثير- ولا دافع لهم.

فليس لهم أن يحتجوا به لأنفسهم لأنهم لم يعملوا لأجله، كيف وهو مغيب عنهم. وإنما عملوا باختيارهم الذي يجدونه بالضرورة من أنفسهم.

توجيه للترتيب:

تقوم حجة اللَّه على العبد أوَّلًا ، ويعمل هو- كاسِبًا ومُكتسِبًا- باختياره ثانيًا ، ويظهر لنا ما سبق من علم اللَّه فيه بعد أن اختار ما اختار ثالثًا .

ولهذا قدمت النذارة وما يرتبط بها على هذه الآية التي فيها بيان ما سبق من علم اللَّه فيهم .

تقريب:

قد يكون لرجل وَلدان، هو عالِمٌ بنفسيتهما وأخلاقهما وسيرتهما ، ثم يأمرهما بأمر فيه الخير لهما ، وهو يعلم- بما علم من أحدهما- أنه يمتثل ، ويعلم- بما علم من الآخر- أنه يخالف، ويقول لأهل بيته إن فلانًا سيمتثل ، وإن فلانًا سيخالف .

فيظهر ما قاله وما علمه في كل واحد منهما ، فجازى الممتثل على طاعته ، وجازى المخالف على عصيانه .

فلا شك أنّ هذا الرجل قد أحسن إلى ولديه بما أمرهما به من خير ، وفعل ما تقتضيه أبوته من النصح والإرشاد، ولا يقدح في ذلك علمه بما سيكون منهما .

كما أنّ هذين الولدين قد نال كل واحد منهما ما يستحق دون أن يكون للمخالف منهما حجة على مخالفته بما كان يعلمه منه أبوه .

لِلَّهِ المثلُ الأعلى، فقد أحاط بكل شيء علمًا ، فعلم من سيطيعه ومن سيعصي ، ولكنه الحَكَمُ العدلُ ، فلم يكن ليجازيهم على سابق علمه فيهم الذي

لا دخل لهم فيه، بل جعل جزاءهم بعد إقامة الحجة عليهم بما يكون من اختيارهم، ليكون جزاؤهم على ما عملوا، وما قدمت أيديهم، ومالهم دخل فيه بالكسب والاكتساب.

تعليم:

أرأيت كيف أنّ اللَّه تعالى لم يُجاز الخلق على مقتضى علمه فيهم، وهو العلم الذي لا يتخلف، وإنما جعل جزاءهم على أعمالهم.

فهذا تعليم لنا كيف تكون معاملتُنا بعضنا لبعضٍ، فلا نجازي على مجرد الظن، بل ولا على مجرد اليقين، وإنما تكون المجازاة بعد صدور الأعمال.

فَرُبَّ شخصٍ قدّرت فيه الخير أو الشر، ففعل ضد ما قدّرتَ، فلو جازيته قبل الفعل لما طابق جزاؤُك موضعَه، ولنال كل ما لا يستحقه.

فالحكمة والعدل والمصلحة في ربط المجازاة بالأعمال، وهذا ما كان من اللَّه في مجازاة خلقه، وهذا ما ينبغي أن نربط به المجازاة بيننا.

* * *

تمثيل حال المعرضين عن الحق المعاندين فيه

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: الآية ٨، ٩].

المناسبة:

لما ذكر عدم إيمانهم، وكان مبدأ ذلك بإعراضهم عن الحق، واختيارهم الكفر على الإيمان، ذكر ما عاقبهم اللّه به من منعهم الخير ودوام الإعراض عنه.

المفردات:

«الغل»: ما يجعل في العنق محيطًا به.

«الذقن»: مجمع اللحيين، ملتقى عظميهما تحت الفم.

مقمحون: رافعون رؤوسهم، يقال: قمح البعير قموحًا، إذا رفع رأسه عند الحوض وامتنع من الشرب.

ويقال: أقمحه الغل إذا ترك رأسه مرفوعًا لضيقه.

«السد»: الحاجز بين الشيئين.

فأغشيناهم: جعلنا عليهم غشاء أي غطاء، أحاط بجميع الذات، فمنع العيون من الإبصار.

التراكيب:

فهي إلى الأذقان: أي الأغلال منتهية من أسفل الأعناق إلى الأذقان. وهذا كناية عن عرضها، ولذا فرع عليه ﴿فَهُم مُّقۡمَحُونَ﴾.

فرع عدم إبصارهم على جعل سدّ أمامهم وسدٍّ خلفهم، لالتزاق السدين بهم، وضغطهما عليهم، فكما لا يستطيعون معهما تحركًا لا يستطيعون إبصارًا، وكيف يبصر من وجهه ملتزق بالحائط مثلًا؟

المعنى:

إنا جعلنا في أعناق هؤلاء الذين لا يؤمنون أغلالًا ضيقة عريضة، تركتهم رافعين رؤوسهم عن مناهل الإيمان، لا يستطيعون أن يطأطئوا رؤوسهم إليها فيرتووا، وجعلنا أمامهم حجابًا وخلفهم حجابًا، محيطين وملتزقين بهم، ومغطِّين لجميع ذواتهم، فلا يستطيعون معهما تحركًا ولا إبصارًا.

توجيه التمثيل:

دُعوا إلى الإيمان والتوحيد ومكارم الأخلاق، وهذه أمور مدرك حسنها بالفطرة السليمة، فهي كالماء الذي تُقْبِلُ عليه الحيوانات بفطرتها، فلما أعرضوا عنها شُبِّهوا بالإبل المقمحة عن الماء.

ثم إنّ هذه الأمور كما يدرك حسنها بالفطرة السليمة، تدرك باستعمال النظر فيما بين يدي الإنسان من الآيات التي يراها ويشاهدها، وما خلفه من أيام اللَّه في الأمم التي بلغته أخبارها وأنباؤها.

فلما أعرضوا عما يرون وما قد سمعوا، شُبِّهوا بمن جُعِل بين سدّين

ملتزقين ومحيطين به، فجمد في مكانه، فلا هو يتحرك إلى ناحيةٍ، ولا هو يبصر شيئًا.

ترهيب:

كل ما دعا إليه الإسلام من عقائد وأخلاق وأعمال، فهو مما تقبله الفطر السليمة، وتدركه العقول بالنظر الصحيح.

فمن قابل دعوة الإسلام بالإعراض والعناد، وخالف فطرته، وعاكس عقله؛ كان حقيقًا بهذا العقاب الشديد من طمس البصيرة والطبع على القلب.

فذكر اللَّه لنا هذه العقوبة بهذا التمثيل البليغ الذي صورها في أبشع وأفظع صورة، ليحذرنا من الإعراض عن الحق والعناد له، ويخوفنا بعاقبة ذلك على أهله.

تعليم:

لكل إنسان فطرته وعقله، فعلينا إذا دُعينَا إلى شيء أن نعرضه عليهما راجعين إلى الفطرة الإنسانية، وإلى العقل البشري، منزهين عن الأغراض والأهواء والأوهام والشبهات.

فإذا كان هلاك هؤلاء بعدم الاستفادة منهما، فإن النجاة- عندما تعرض الأمور- بالرجوع إليهما.

وتجد القرآن العظيم يخاطب العقل والفطرة، ليعلمنا الرجوع إليهما، والاستفادة منهما.

* * *

من استوى عنده الإنذار وعدم الإنذار لا يرجى منه إيمان

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يس: الآية ١٠] .

المناسبة:

لما ذكر- تعالى- عدم إيمانهم لما سبق من علم اللَّه فيهم، ذكر هنا سببًا آخر لذلك، وهو استواء الإنذار وعدمه لديهم.

الترتيب:

ذكر هذا السبب إثر ما تقدم من وصف حالهم في شدة الإعراض، للتنبيه على أن من فسدت فطرته، وانطمس عقله، يستوي عنده الإنذار وعدمه، فلا يكون منه إيمان على كل حال.

المفردات والتراكيب:

سواء: بمعنى مستو.

والهمزة الأولى أصلها للاستفهام وليس مرادًا هنا، وتسمى في مثل هذا التركيب همزة التسوية لوقوعها بعد لفظها ودخولها على الأول من أمرين يراد التسوية ما بينهما.

وهي حينئذ من أدوات السبك، ولذا يكون تأويل الكلام هكذا: «سواء إنذارك وعدم إنذارك».

المعنى:

إن أكثر أهل مكة الذين حكم اللَّه بعدم إيمانهم بلغوا من شدة الإعراض والعناد إلى حيث استوى عندهم الضدان: الإنذار وعدم الإنذار، فمحقق منهم عدم الإيمان، ومأيوس من صدوره من ناحيتهم.

تحذير:

يذكر اللَّه تعالى حالة هؤلاء الذين استوى عندهم الشيء وضده، يحذرنا منها ومما يؤدي إليها من إهمال الفطرة وترك النظر، فإن الإنسان إنما يمتاز على بقية الحيوان بتمييزه بين الحقائق بالفطرة والفكرة، وإدراكه الفوارق ما بينها. فإذا سُلب هذه المزية التحق بالعجماوات، بل كانت العجماوات خيرًا منه لبقاء فطرتها سليمة لإدراك ما فيها استعداد لإدراكه.

* * *

تجديد الإنذار للمنتفعين به وتبشيرهم

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: الآية ١١] .

المناسبة:

لما ذكر تعالى المأيوس من انتفاعهم بإنذار النبي ﷺ؛ ذكر الذين ينتفعون به تأنيسًا له بهم، وتقويةً له بظهور ثمرة إنذاره فيهم .

المفردات والتراكيب:

الذكر: القرآن، وهو من أسمائه التي تكررت في التنزيل[1] ، و«ال» فيه للعهد .

الغيب: الخلوة عندما يغيب الإنسان عن عيون البشر .

«التبشير»: الإخبار بما يسرّ .

«المغفرة»: ستره الذنب بالتجاوز عنه وعدم المؤاخذة به .

«الأجر»: الجزاء على العمل .

«الكريم»: الطيب الشريف في نفسه، النافع في أثره، الذي لا يشوب ذاته

---

(١) في مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: الآية ٦] ، وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: الآية ٩] ، وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: الآية ٤٤] ، وغيرها من الآيات .

نقص، ولا منفعته ضرر.

وأفاد المضارع في ﴿تُنذِرُ﴾ تجديد الإنذار للمتبعين، وذكر اسم الرحمن ليفيد التركيب أنهم يخشونه مع العلم برحمته، وذلك يقتضي جمعهم بين الخوف والرجاء.

الترتيب:

ذكر المنتفعين بعد المأيوس من انتفاعهم ترقيًا من الأدنى إلى الأعلى، ولأنهم كالزبدة التي يحصل عليها بعد طرح غيرها، ولإراحة القلب من أولئك لتتوجه العناية التامة إلى هؤلاء.

وذكرت الخشية بعد الاتباع لأنها لا تحصل إلا به.

وجيء بعدُ بالتبشير مقرونًا بالفاء لأنه إنما يكون لأهل الاتباع والخشية بسبب اتباعهم وخشيتهم، وذكر الأجر بعد المغفرة لأن التحلية بعد التخلية، والتزين بعد إزالة الأدران.

المعنى:

إنما يتجدد إنذارك وينتفع به الذين آمنوا، وهم الذين اتبعوا القرآن، وخافوا اللَّه في خلواتهم، لصدق إيمانهم، خاشين نقمته، راجين رحمته.

وهؤلاء كما تنذرهم وينتفعون بإنذارك؛ بَشِّرهم على اتباعهم للقرآن، وخشيتهم بالغيب للرحمن، بمغفرة ذنوبهم، وجزاء- شريف رفيع طيب نافع، لا نقص فيه ولا تنغيص- على أعمالهم.

دفع إشكال:

أُمر النبيُّ ﷺ بالإنذار العام، ثم كان ممن أنذرهم قوم مأيوس منهم، وهؤلاء هم المراد بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ [يس: الآية ٧] الآيات، وهم الذين جاء فيهم قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ [النّجم: الآية ٢٩] الآية، إذ لا فائدة من إنذارهم.

وكان قوم آخرون آمنوا، وهؤلاء هم المرادون بقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ الآية.

فلا منافاة بين قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ الذي يقتضي التعميم، وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ الذي يقتضي التخصيص؛ لأن الأول في مقام الإنذار العام، والثاني في مقام تجديد الإنذار والانتفاع به.

وأما الإعراض فلا يكون إلا عن المأيوس منه من الكافرين.

إرشاد:

طريق السلوك الشرعي إنما هي اتباع القرآن.

وأكمل أحوال العبد أن يخشى اللَّه ويرجو رحمته.

وأهل الاتباع والخشية لا يستغنون عن تجديد الإنذار، وذلك بدوام التذكير المشروع في الإسلام.

وتذكير المؤمنين بإنذارهم وتبشيرهم، فلا يُؤَمَّنُونَ من عذاب اللَّه، ولا يُقَنَّطون من رحمته.

صفة المؤمن من هذه الآيات:

المؤمن الكامل هو من سلمت فطرته، وصحّ إدراكه، واتبع القرآن في عقده وخلقه وعمله، واستوت خلوته وجلوته، وسره وعلنه، وعبد اللَّه راجيًا رحمته، خائفًا عذابه، يخوفه الإنذار، وترجيه البشرى بالمغفرة والأجر الكريم.

ثبتنا اللَّه والمسلمين على الإيمان مع هذه الصفات إلى الممات، آمين يا رب العالمين[1].

* * *

(١) الشهاب: (ج٥، م١٠) غرة محرم ١٣٥٣هـ - أفريل ١٩٣٤م.

الحياة بعد الموت

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [يس: الآية ١٢] .

المناسبة:

اشتملت الآيات المتقدمة على ذكر الرسول وصفته، ورسالته التي جاء بها- وهي القرآن- ووصفها، والمرسِل وهو العزيز الرحيم، والمرسَل إليهم، وتعميمهم بالنذارة، وانقسامهم إلى معرضين معاندين، ومقبلين متبعين.

فجاءت هذه الآية مشتملة على ما تكون فيه نتيجة ذلك وثمرته، وهو يوم القيامة.

ووجه آخر وهو أن أمهات أصول العقائد ثلاثة: الإيمان بالله، والإيمان برسول الله، والإيمان باليوم الآخر.

وقد انتظمت الآيات المتقدمة تقرير الأصل الثاني بالقَسَم عليه على ما تقدم من البيان، وانتظمت الأصل الأول ضمنًا بذكر العزيز الرحيم، فجاءت هذه الآية لتقرير الأصل الثالث.

سؤال:

كيف لم يُذكَر الأصلُ الأولُ- وهو الأصل الأول- إلا بما ذُكِر به من الذكر الضمني؟

الجواب:

ذلك لأمرين:

الأول: أن هذه الأصول الثلاثة تذكر في أكثر السور، غير أن بعض السور تخصص بالحديث على بعض الأصول أكثر من غيره، ولا يذكر فيها غيره إلا ضمنًا كما هنا.

الثاني: أن تقرير الأصل الثاني هو تقرير للأصل الأول، إذ جميع دلائل النبوة دلائل على وجود الخالق، وقدرته، وعلمه، وحكمته، ورحمته.

المفردات:

«الإحياء»: إيجاد الحياة في الجسم، ولا يكون إلا من اللَّه.

«والميت»: الجسم الذي يقبل الحياة ولا حياة فيه، سواء أكانت فيه وزالت، أمْ لم تكن فيه بعدُ كالجنين قبل نفخ الروح فيه.

التراكيب:

أُكِّدت الجملةُ لأن الخطاب مع منكري البعث والنشور.

وأُكِّد اسم «إنّ» بنحن ليفيد الاختصاص، فهو المحيي دون غيره.

وعبَّر بـ ﴿نُحۡيِۦ﴾ فعلًا مضارعًا ليفيد تجديد الإحياء واستمراره، فيشمل إحياءه للأجنَّة في الدنيا، وإحياءه الإحياء الثاني في الأُخرى، وكثيرًا ما جاء في القرآن الاستدلال على الإحياء الثاني بالإحياء الأول، فتكون كلمة ﴿نُحۡيِۦ﴾ قد اشتملت على العقيدة، وهي الإحياء الثاني، ودليلها، وهو الإحياء الأول.

المعنى:

يعرِّفُ اللَّهُ- تعالى- عباده بأنه هو الذي يحيي الموتى دون غيره،

ويذكِّرهم بما يشاهدونه من ذلك فيهم وهم أَجِنَّةٌ في بطون أمهاتهم، فيؤمنون بأنه يحييهم كذلك بعد موتهم، فيستعدّون من حياتهم الأولى لحياتهم الثانية.

* * *

إحصاء الأعمال المباشرة وغير المباشرة

﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ [يس: الآية ١٢] .

المناسبة:

لما أعلم الخلق بأنهم يحيون بعد الموت؛ أعلمهم بأن أعمالهم المباشرة وغير المباشرة مكتوبة عليهم، لأن حياتهم بعد الموت لنيل جزاء ما كتب عليهم من أعمالهم .

المفردات:

«قدّم الشيء»: جعله قدّامه، وأعمال المرء التي يباشرها قدّمها قبله في طريقه إلى الآخرة، فهي محفوظة حتى يلحقها .

و«الأثر»: ما يحصل من العمل، كالذي يحصل على وجه التراب من وضع الأقدام ويبقى بعد رفعها، فآثار الإنسان ما يحصل من أعماله التي باشرها .

التراكيب:

عبَّر بنكتب مضارعًا ليفيد التجدد والاستمرار، فما من عمل أو أثر يتجدد إلا ويكتب .

وأسند الكتابة إليه، والكاتبون الملائكة، لأنهم بأمره يكتبون .

المعنى:

يُعلم اللَّهُ تعالى عبادَه بأنه يكتبُ كلَّ أعمالهم التي يعملونها ويباشرونها بأنفسهم، ويكتب كذلك ما يعمله غيرهم إذا كان متسببًا عن أعمالهم وأثرًا لها.

تنظير:

مِثلُ هذه الآية في الدلالة على أن العبد مؤاخذٌ بما عمل مباشرة وما عمله غيره وكان من آثار عمله؛ قولُه تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القِيَامَة: الآية ١٣].

فالذي أخَّره هو أثره المذكور في هذه الآية.

تأييد وبيان:

في «صحيح مسلم» من طريق جابر[(١)] بن عبد اللَّه رضي الله عنهما قال:

«جاء ناسٌ من الأعراب إلى رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم، عليهم الصوف، فرأى سوء حالهم قد أصابتهم حاجة، فحثّ الناس على الصدقة، فأبطئوا عنه حتى رؤي ذلك في وجهه، قال: ثم إنّ رجلًا من الأنصار جاء بِصُرَّةٍ من وَرِقٍ، ثم جاء آخر، ثم تتابعوا حتى عُرف السرورُ في وجهه، فقال رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم:

«**من سنّ في الإسلام سنة حسنة، فعمل بها بعده، كُتب له مثل أجر من عمل بها، ولا ينقص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة،**

---

(١) كذا في الأصل، والصواب: «جرير»، كما في «صحيح مسلم» والمصادر التي خرجته.

فعمل بها بعده، كتب عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شيء»[١٨٧].

وفيه من طريق أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم قال:

«من دعا إلى هُدًى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا. ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا»[١٨٨].

---

[١٨٧] صحيح:

رواه مسلم (٢/ ٧٠٤-٧٠٥ و٤/ ٢٠٥٩-٢٠٦٠/ حديث رقم: ١٠١٧) عن جرير بن عبد اللَّه البجلي رضي الله عنه.

ورواه أيضًا النسائي في «المجتبى» (٥/ ٧٥-٧٧) وفي «الكبرى» (٢٣٣٥) والدارمي (١/ ١٣١) وأحمد (٤/ ٣٥٨-٣٥٩ و٣٦٠و٣٦١و٣٦١- ٣٦٢).

ورواه مختصرًا دون القصة: الترمذي (٢٦٨٠) والدارمي (١/ ١٣٠) وابن ماجه (٢٠٣).

وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

وللحديث شواهد:

١- عن أبي هريرة: أخرجه مسلم (٢٦٧٤) وأبو داود (٤٥٩٦) والترمذي (٢٦٧٩) والدارمي (١/ ١٣٠-١٣١) وابن ماجه (٢٠٦) وأحمد (٢/ ٣٩٧).

وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

٢- عن حذيفة: أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٧) والحاكم (٢/ ٥١٦-٥١٧) وقال: «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي، وأقره المنذري.

٣- عن أبي جحيفة: أخرجه ابن ماجه (٢٠٧) بإسناد حسن.

٤- عن أنس بن مالك: أخرجه ابن ماجه (٢٠٥) أيضًا.

٥- عن واثلة بن الأسقع: أخرجه الطبراني في «الكبير» بإسناد لا بأس به كما قال المنذري في «الترغيب».

[١٨٨] صحيح:

رواه مسلم (٢٦٧٤) وغيره عن أبي هريرة.

وقد تقدم في الذي قبله.

فتأيّد بهذين الحديثين فهمُ المعنى المتقدِّم من الآية، وهو أنّ العبد له وعليه من آثار أعماله مما لم يباشره بنفسه مثل ما له وعليه من أعماله التي باشرها.

وبيّن الحديثُ الأوَّلُ أنّ ما تسبب عن عمل المرء يعدّ أثرًا لعمله عندما يُعمل به في حياته مثلما يُعمل به بعد مماته، إذ الذي جاء بالصُّرَّةِ أوَّلًا قد تسبّب عن مجيئه مجيء مَن بعده على أثره. والحديثُ سيق في شأنهم، فتكون حالتهم أول ما يشمل.

كما بيَّن الحديث الثاني أنّ أثر القول كأثر الفعل، إذ الكلُّ عمل.

وبيَّن الحديثان أن نيل المرء جزاء عمله الذي لم يباشره، لا ينقص من جزاء العامل المباشر شيئًا.

تنبيه:

من صورة الواقعة التي ورد فيها الحديث الأوّل، علمنا أن المراد بـ «**من سن سنة حسنة أو سيئة**» هو من ابتدأ طريقًا من الخير في أعمال البِرِّ والإحسان، وما ينتفع به الناس من شؤون الحياة، ولا يشمل ذلك ما يحدثه المحدثون من البدع في العبادات من الزيادات والاختراعات، إذ الزيادةُ على ما وضعه الشرع من العبادات وحدّده، افتياتٌ عليه واستنقاصٌ له، وهذه هي البدعة التي قال فيها النبي ﷺ: «**كلُّ بدعة ضلالة، وكلُّ ضلالة في النار**»[١٨٩].

---

[١٨٩] صحيح:

قطعة من حديث أخرجه بهذا اللفظ النسائي في «المجتبى» (٣/ ١٨٨-١٨٩) وفي «الكبرى» (٥٨٩٢) وابن خزيمة في «صحيحه» (١٧٨٥) عن جابر بن عبد اللّٰه قال: =

تحذير:

على العاقل، وقد علم أنه محاسب عن أفعاله، وعلى آثار أقواله، أن لا يفعل فعلًا، ولا يقول قولًا، حتى ينظر في عواقبه، فقد تكون تلك العواقب أضرّ عليه من أصل القول وأصل الفعل، فقد يقول القولَ مرَّةً ويفعل الفعلَ مرَّةً، ثم يقتدي به فيه آلافٌ عديدةٌ في أزمنةٍ متطاولةٍ.

حقًّا إنَّ هذا لَشيْءٌ تنخلعُ منه القلوبُ، وترتعدُ منه الفرائصُ، وصدق القائلُ من السلف ﵁: «السعيدُ من ماتت معه سيئاته».

* * *

= كان رسول اللَّه ﷺ يقول في خطبته يحمد اللَّه ويثني عليه بما هو أهله، ثم يقول:
«من يهده اللَّه فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، إن أصدق الحديث كتاب اللَّه، وأحسن الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار» ثم يقول:
«بعثت أنا والساعة كهاتين».
وكان إذا ذكر الساعة احمرت وجنتاه، وعلا صوته، واشتد غضبه، كأنه نذير جيش يقول: «صبحكم مساكم» ثم قال:
«من ترك مالًا فلأهله، ومن ترك دينًا أو ضياعًا فإلي أو علي، وأنا أولى بالمؤمنين».
وإسناده صحيح.
وأخرجه مسلم (٨٦٧) والدارمي (١/ ٦٩) مختصرًا وابن ماجه (٤٥) وأحمد (٣/ ٣١٠-٣١١و٣١٩و٣٣٨و٣٧١) مختصرًا ومطولًا، وابن الجارود (٢٩٧و٢٩٨) وأبو يعلى (٢١١١) وغيرهم، دون قوله: «وكل ضلالة في النار».
وللجملة الأولى «كل بدعة ضلالة» شاهد من حديث العرباض بن سارية تقدم برقم (٣٩)، وآخر عن ابن مسعود عند ابن ماجه (٤٦) وابن أبي عاصم في «السنة» (٢٥).

الإحصاء العام في الكتاب الإمام

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: الآية ١٢]

المناسبة:

لما أعلم العباد بأنه يكتب لهم وعليهم أعمالهم؛ أعلمهم بأنه تعالى قد كتب كلَّ الأشياء، لا خصوص أعمالهم، تعميمًا بعد تخصيص.

المفردات:

«الإحصاء»: تحصيلُ الشيء بالعَدِّ وضبطهُ والإحاطةُ به.

«الإمام»: ما يُؤتم ويُقتدى به. والكتاب إمام لأنه يتبع فيؤخذ بما فيه ويعتمد عليه.

و«المبين»: المُظهِر لما فيه، فكل ما فيه ظاهر فيه.

التراكيب:

أصل الكلام: أحصينا كُلَّ شيء أحصيناه، فحذف أحصينا الأول لدلالة الثاني، فكان هذا أقوى في ثبوت الإحصاء ووقوعه على كل شيء.

المعنى:

يعلم اللَّه عباده بأنه حصل كل شيء من ذوات وأقوال وأفعال، وجميع ما كان في العالَم وما يكون، وأثبته فردًا فردًا في كتاب إمام معتمد مظهر للأشياء التي فيه، فهي فيه ثابتة ظاهرة جلية.

اعتبار:

قد أحاط اللَّه بكل شيء علمًا، فهو غنيٌّ بعلمه عن هذه الكتابة، ولكنه جعل هذا الكتاب إظهارًا لعظمة ملكه، وليعلِّم عباده الضبط والإحصاء في جميع أمورهم، وليبالغوا في محاسبة أنفسهم، وليعلموا أن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم، وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم، فيزول من قلوبهم الخوف من الحوادث والمخلوقات، وتعظم ثقتهم باللَّه، وفي ذلك أعظم قوة في هذه الحياة، وأكبر راحة للقلب مِن صروفها.

نسأل اللَّه أن يقوي قلوبنا بالإيمان، وأن يريحنا باليقين، وأن يعيذنا من الخوف إلا منه، ومن الخضوع إلا له. آمين يا رب العالمين[1].

* * *

---

(١) الشهاب (ج٦، م١٠) غرة صفر ١٣٥٣هـ - ماي ١٩٣٤م.



تفسير الآيات (٤٧ - ٥١)



الفرار إلى الله

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ۝٤٨ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الذاريات: الآيات ٤٧- ٥١].

تمهيد:

المقصود الأساسي من الآيات هو تحذير الخلق من الهلاك، وترغيبهم في النجاة، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالفرار إلى اللَّه. فمهد لذلك بالآيات الثلاث الأُوَل للترغيب فيه، وختم بالخامسة لبيان الفرار الصحيح المنجي عند اللَّه.

الآية الأولى:

الألفاظ والتراكيب:

السماء: هي الجرم الأعظم الذي أحاط بالأجرام السابحة في الفضاء كلها، وعلا عليها.

بنيناها: ضممنا أجزاءها بعضها إلى بعض، بغاية الدقة والإحكام، فكانت كالقبة فوق الجميع.

بأيدٍ: بقوة[1].

---

(١) وبه فسرها ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم، كما أسندها عنهم ابن جرير في «تفسيره» (٢٧/ ٧).
وهو قول: «سائر المفسرين واللُّغويِّين» كما في «زاد المسير» (٨/ ٤٠).
وانظر «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ٣٠٣) للشيخ العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.

لموسعون: لمقتدرون ومطيقون، على احتمال أن يكون الوسع بمعنى القدرة والطاقة. أو لموسعون ومبعدون بين أرجائها، على احتمال أن يكون من السَّعة.

وقُدِّمت السماء لأنها المشاهد المحسوس الذي تقوم به الحُجَّة. وليقع البناء عليها مرتين على لفظها وعلى ضميرها، لأن الأصل: وبنينا السماء بنيناها، لتحقيق أنها مبنية، وأن بناءها لم يكن إلا من اللَّه القادر الحكيم، ولذلك علق بالفعل قوله: ﴿بِأَيۡيْدٍ﴾، والجملة الحالية تدل على أن الإيساع ثابتٌ له عند البناء، فذلك البناء العظيم لم ينقص من قدرته أو لم يمنع من توسيعه.

المعنى:

إنّ هذه القبة التي أحاطت بكم من جميع الأرجاء، نحن بنيناها بقدرتنا ذلك البناء المحكم المتقن، بنيناها[1] ونحن على قوتنا وقدرتنا نقدر على بناء أعظم منها لو شئنا. أو ونحن على قدرتنا وطاقتنا في إفاضة الخيرات والبركات منها عليكم- هذا على أنه من الوسع-.

أو بنيناها وقد وسعنا أديمها حتى أحاطت بهذه الأجرام السابحة التي منها ما لا يكون معه جرم الكرة الأرضية إلا كحمصة فوق مائدة كبيرة- هذا على أنه من السَّعة-.

(١) في الأصل «بُنيانها».

تحقيق آية كونية من الآيات القرآنية:

السماء في اللغة: هي كلُّ ما علاك.

فكل ما علا الأرض من سحب وطبقات هواء وكواكب تسبح في الفضاء وما وراء ذلك من القبة المحيطة الكبرى هو للأرض سماء.

وكل هذه متقنة الصنع، محكمة الوضع، متلاحمة الأجزاء، مرتبط بعضها ببعض ارتباطًا مقدرًا بالمسافات المدققة التي لا يكون معها تصادم ولا ارتخاء، ووضعها على هذه الصورة المنظمة المحكمة هو البناء.

وعليها كلها ينبغي أن يحمل لفظ السماء في الآية المتقدمة.

وقد جاء لفظ السماء في القرآن مُرادًا به القبة المحيطة في مثل: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [المُلك: الآية ٥]، ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصَّافات: الآية ٦].

وجاء مرادًا به السحاب في مثل: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ [الزّخرُف: الآية ١١]، فإن المطر ينزل من السحاب لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النُّور: الآية ٤٣].

وجاء مُرادًا به طبقات الجو في مثل: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ [النُّور: الآية ٤٣] والبرد يتكوّر في طبقات الجو.

والمتتبع لمواقع لفظة السماء من الكتاب العزيز يتحقق هذا.

الآية الثانية:

الألفاظ والتراكيب:

الأرض: هي هذه الكرة التي نعيش عليها.

فرشناها: بسطناها بزينتها ومنافعها.

الماهدون: مِن مهّد الشيء، وضعه وسوّاه، وهيأه للنوم والجلوس والراحة.

ويجري في تقديم الأرض ما تقدم في تقديم السماء.

ومن يسير على هذا البساط المفروش، ويطلع على ما هُيِّئَ فيه من أسباب الحياة لكل ما فيه من حيوان لا يتمالك أن ينطق بالمدح والثناء على من هيأ هذه التهيئة، ومهد هذا التمهيد، ولذا قرنت الجملة الأخيرة بالفاء فقيل: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾.

ولا يغني فرش الأرض عن مهدها، لأن المهد يتضمن ما حصل فيها من مرافق ومواد وأسباب للعيش على أديمها والتنعم بخيراتها.

المعنى:

إن الأرض التي أنتم متمكنون من الوجود على ظهرها، والسير في مناكبها، والانتفاع بخيراتها، نحن فرشناها لكم، وهيأنا لكم أسباب الحياة والسعادة فيها على أكمل وجه وأنفعه وأبدعه، مما نستحق به منكم الحمد والثناء.

دقيقة كونية في الآية القرآنية:

شأن الفراش أن يكون ما تحته لا يصلح للجلوس والنوم عليه، وما تحت وجه الأرض هو كذلك لا يصلح للحياة فيه، فإن تحت القشرة العليا من الأرض المواد المصهورة والمياه المعدنية والأبخرة الحارة مما تنطق به البراكين المنتشرة على وجه الأرض في أماكن عديدة، فكانت القشرة العليا مثل الفراش تمامًا.

الآية الثالثة:

الألفاظ والتراكيب:

«من كل شيء»: من كلِّ جنس من الأجناس.

خلقنا: كوَّنا.

زوجين: فردان متباينان يكمل أحدهما الآخر في عالم الحيوان وعالم النبات وعالم الجماد.

تذكَّرون: تذكرون ما أودع في فطرتكم من المعرفة لما تنظرون بعقولكم في عجائب الخلق، فتدركون ما له ﷻ من الألوهية والربوبية والوحدانية.

وقدّم ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٍ﴾ لأن الأشياء هي المستدل بها، ولبعث الهمم على النظر فيها.

المعنى:

إنّا خلقنا الأشياء التي تشاهدونها على الزوجية والتركيب من شيئين متضادين، لتكونوا بحيث يرجى منكم أن تعلموا أن النقص والعجز عمَّ

المخلوقات كلها، لحاجة كل شيء منها إلى ضده وقصوره بنفسه.

فالقدرة والكمال للخالق وحده، فلا يستحق العبادة سواه فاعبدوه ووحّدوه.

توسُّع في التذكر:

النظر في الأزواج مُفْضٍ للعلم بما ذكرنا، وللعلم بأن الخلق غير صادر عن طبيعة الأشياء، فإن النار- مثلًا- لا يصدر عنها التبريد والتسخين، لأن السبب لا ينتج الضدين، فالمخلوقات كلها صادرة بطريق الخلق عن فاعل مختار.
وللعلم بوجوه كثيرة من إحاطة علمه، وشمول حكمته، وعموم نعمته.

حقيقة نفسية في نكتة بلاغية:

إذا نظر العاقل في هذه الأزواج وفكّر انكشفت له وجوه سر دلائل الربوبية والألوهية والتوحيد، وإذا حصل الانكشاف الأول تبعته انكشافات، فإذا حصل منه التذكر أفضى به إلى تلك الوجوه الكثيرة، ولهذا نزل الفعل منزلة اللازم الذي لا يراد منه إلا حصول الحدث.

آية كونية في الآية القرآنية:

من الأزواج ما هو ظاهر مشاهد معلوم من قديم، مثل السماء والأرض، والليل والنهار، والحَرّ والبرد، والذكر والأنثى، في الحيوان وبعض النبات.

ومنها ما كشفه العلم بما مهد اللَّه له من أسباب كالجزء الموجب والجزء السالب في القوة الكهربائية وفي الذرة التي هي أصل التكوين.

فلا فردية إلا لخالق هذه الأزواج كلها الذي أنبأنا بها قبل أن تصل إلى

تمام معرفتها العقول، فكان من معجزات القرآن العلمية التي يفسرها الزمان بتقدم الإنسان في العلم والعمران.

بلاغة التنويع والتنزيل:

لما كانت السماء متلاحمة الأجزاء في العلاء، ثابتة على حالة مستمرة في هذه الدنيا على البقاء؛ ناسَبَها لفظ البناء.

ولما كانت مظهر العظمة والجلال ناسبها لفظ القوة.

ولما كانت الأرض يطرأ عليها التبديل والتغيير بما ينقص البحر من أطرافها، وبما قد يتحول من سهولها وجبالها، وبما يتعاقب عليه من حرث وغراسة وخصب وجدب؛ ناسبها لفظ الفراش الذي يُبسط ويُطوى ويُبدَّل ويُغيَّر.

ولما كانت أسباب الانتفاع بها الميسرة ضرورية للحياة عليها، وكلها مهيأة، وكثير منها مشاهد، وغيره معد يتوصل إليه بالبحث والاستنباط- ناسب ذكر التمهيد.

ولما كانت الأزواج مكونًا بعضها من بعض؛ ناسبها لفظ الخلق.

ولما كان النظر في الزوجين هو نظر في أساس التكوين لتلك المذكورات السابقة، وهو محصل للعلم الذي يحصل من النظر فيها؛ قرن بلفظ التذكر.

الآية الرابعة:

الألفاظ والتراكيب:

«الفاء» للترتيب، لأن ما قبلها على ما فيه من عظمة وكمال وجمال فهي

مخلوقة موسومة بسمة العجز والنقصان، فلا يصلح شيء منها للتعويل عليه، فلم يبق إلا الخالق القادر ذو الجلال والإكرام، فهو الذي يفر إليه دون جميع المخلوقات.

فروا: اهربوا.

النذير: المعلم بما فيه هلاك لتجتنب الأسباب المؤدية إليه.

المبين: الذي يوضح ما أنذر منه، والأسباب المؤدية إليه، والوسائل المنجية منه، مع إقامة الحجة على صدقه ونصحه.

وقدم ﴿لَكُم﴾ ليفيد اهتمامه بهم، وذلك ليجلبهم إليه فيستمعوا لنصحه، وبعده ﴿مِّنْهُ﴾ ليبين مصدر رسالته، وذلك ليبين لهم أنه مأمور، فلا يستكبروا من قبول دعوته.

وأكد الجملة لأنهم في مقام التردد أو الإنكار.

المعنى:

هذه المخلوقات كلها عاجزة في نفسها مفتقرة- ابتداءً ودوامًا- إلى خالقها، فاهربوا من شرها إلى خالقها، فهو الذي ينجيكم من شرِّها، ويهديكم إلى خيرها، ولا تغتروا بشيء منها فإنها لا تملك حفظًا لنفسها فكيف تملكه لغيرها؟

إنني أحذركم الهلاك إذا اغتررتم بها، وقطعتكم عن خالقها، ولم تهربوا إلى اللّه منها، وقد أبنت لكم مصدر الهلاك وطريق النجاة.

نكتة التنويع:

جاءت الثلاث الآيات الأُوَل كما يكون قولها من اللَّه.

وجاءت هذه الآية كما يكون قولها من النبي ﷺ، تنويعًا للخطاب وتفننًا، فإنه لما كان ما في هذه الآية هو المقصود؛ حوّل أسلوب الكلام من الإخبار إلى الأمر، تجديدًا لنشاط السامع، وبعثًا لاهتمام المخاطبين، وحثًّا لهم وتوكيدًا عليهم.

وفيه تنبيه على أن ما يقوله النبي ﷺ مثل ما يقوله اللَّه في وجوب الإيمان والامتثال.

تبيان وتوحيد:

هذا العالَم بسمائه وأرضه وأزواجه هو فتنة للإنسان بما فيه من لذائذ ومن جمال، وما فيه من قوة، وما فيه من سلطان.

وقد ركبت في الإنسان شهواته وأهواؤه، وسلّط عليه الشيطان يغويه ويزين له.

فكل هذا العالَم، إذا ذهب فيه الإنسان مع أهوائه وشهواته تحت إغواء الشيطان وتزيينه، فإنه ينحط إلى أسفل السافلين، ويصير عبدًا لأهوائه وشهواته وشيطانه، ولكل ما فتنه من العالم وذهب بلُبِّهِ. وقد ينتهي به ذلك إلى عبادته من دون خالقه.

فالعالَم بهذا الاعتبار شر وبلاء وهلاك يجب الفرار والهروب منه، ولا يكون هذا الفرار منه إلا إلى خالقه بالإيمان به، والتصديق لرسله،

والدخول تحت شرعه .

فبذلك يعرف الإنسان كيف يجعل حدًّا لأهوائه وشهواته، وكيف يضبطها بنطاق الشرع وزمامه، وكيف يدفع عنه كيد شيطانه، وكيف يتناول سماء العالم وأرضه وأزواجه بيد الشرع، فيعرف ما فيها من نعمة وحكمة، فيستغلها بهداية الشرع، مفرقًا علميًّا وعمليًّا بين منافعها ومضارها، فيعظم بها انتفاعه، ويزداد فيها اطلاعه واكتشافه، فتتضاعف عليه منها الخيرات والبركات، ويزداد علمه وعرفانه، ويقوى يقينه وإيمانه، ويعظم للّٰه بره وشكرانه، فيكون له ذلك العالم جنّة الدنيا، وقنطرة لجنّة الأخرى، ويفوز من الدارين بالمبتغى .

كل هذا بفراره من المخلوقات إلى خالقها، فسلم من شرها وفاز بخيرها .

فمن هرب من المخلوقات إلى خالقها نجا، ومن فر من الخالق إلى شيء من مخلوقاته كان من الهالكين .

إرشاد وتعميم:

كل ما يصيب الإنسان من محن الدنيا ومصائبها وأمراضها وخصوماتها، ومن جميع بلائها؛ لا ينجيه من شيء منه إلا فراره إلى اللّٰه .

ففي العدالة الشرعية ما يقطع كل نزاع، وفي المواعظ الدينية ما يهوّن كل مصاب، وفي الهداية القرآنية والسيرة النبوية ما ينير كل سبيل من سبل النجاة والسعادة في الحياة، يعرف ذلك الفقهاء القرآنيون السنيون، واسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون .

تنبيه على وهم:

ليس الفرارُ من الأمراض بمعالجتها، ومن المصائب بمقاومتها، فرارًا من اللَّه، لأنّ الأمراضَ هو قدّرها، والأدويةَ هو وضعَها، ودعا إلى استعمالها والتعالج بها.

وكذلك المصائب، وما شرع من أسباب مقاومتها، فكلها منه بقدره.

والإنسان مأمور منه بأن يعالج ويقاوم، فما فرّ من قدره إلا إلى قدره.

ولهذا لما قال أبو عبيدة لعمر رضي الله عنهما في قصة الوباء: أفرارًا من قدر اللَّه يا عمر؟ قال عمر: نفر من قدر اللَّه إلى قدر اللَّه[١٩٠].

---

[١٩٠] صحيح:

قطعة من حديث رواه البخاري (٥٧٢٩) عن عبد اللَّه بن يوسف، ومسلم (٢٢١٩) عن يحيى بن يحيى التميمي: كلاهما عن مالك - وهذا في «الموطأ» (٤/ ٢٣٦-٢٣٨/ ١٧٢٠) - عن ابن شهاب عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عن عبد اللَّه بن عبد اللَّه بن الحارث بن نوفل عن عبد اللَّه بن عباس أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ لقيه أمراء الأجناد - أبو عُبيدة بن الجراح وأصحابه - فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام.

قال ابن عباس: فقال عمر بن الخطاب: ادع لي المهاجرين الأولين فدعاهم فاستشارهم واخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام فاختلفوا فقال بعضهم: قد خرجْتَ لأمرٍ ولا نرى أن ترجع عنه، وقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول اللَّه ﷺ ولا نرى أن نقدمهم على هذا الوباء.

فقال عمر: ارتفعوا عني، ثم قال: ادع لي الأنصار، فدعوهم فاستشارهم فسلكوا سبيل المهاجرين واختلفوا كاختلافهم فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادع لي من كان هاهنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فدعوهم فلم يختلف عليه منهم رجلان فقالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء، فنادى عمر في الناس: إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه، فقال أبو عبيدة: أفرارًا من قدر اللَّه!؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! نعم، نفر من قدر اللَّه إلى قدر اللَّه، أرأيت لو كان لَكَ إِبِلٌ فهبطت واديًا له عدوتان إحداهما مخصبة والأخرى جدبة أليس إن رعيت المخصبة رعيتها=

وفي الحقيقة كان الفرار من شر في مخلوق إلى اللَّه يرجو منه الخير في غيره.

تحذير من جهالة:

ليس المقصود بالفرار من الدنيا ترك السعي والعمل وتعاطي الأسباب المشروعة لتحصيل القوت ورغد العيش وتوسيع العمران وتشييد المدنية، بل المقصود الفرار من شرورها وفتنتها.

وتناول ذلك كله على الوجه المشروع هو من الفرار إليه والدخول تحت شرعه كما قدمناه.

وقد ضل قومٌ فزعموا ذلك طاعة وعبادة؛ فعطَّلوا الأسباب، وخالفوا الشريعة، وحادوا عما ثبت من السنة.

وفيهم سئل إمام الحديث والسنة أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ، سئل عن القائل: أجلس لا أعمل شيئًا حتى يأتيني رزقي. فقال:

«هذا رجل جهل العلم، أما سمع قول النبي ﷺ: «**إن اللَّه جعل رزقي تحت ظل رمحي**»[١٩١].

= بقدر اللَّه وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر اللَّه. فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان غائبًا في بعض حاجته فقال: إن عندي من هذا علمًا: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول:
«إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرضٍ وأنتم به فلا تخرجوا منها فرارًا منه».
قال: فحمد اللَّه عمر ثم انصرف.

[١٩١] صحيح:

قطعة من حديث أخرجه البخاري (٦/ ١٢٠-فتح الباري) تعليقًا، ووصله أحمد (٢/ ٥٠و٩٢) وابن=

وقوله: «**تغدو خماصًا وتروح بطانًا**»[١٩٢]. وكان الصحابة يتجرون في البر والبحر، ويعملون في نخيلهم، وبهم القدوة».

= أبي شيبة (٤/ ٢١٨/ ١٩٣٩٤) والبيهقي في شعب الإيمان (١١٩٩) والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ١٤٢/ ٧٦٦) من طريق عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان: حدثنا حسان بن عطية عن أبي منيب الجرشي عن ابن عمر مرفوعًا: «بُعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد اللَّه وحده لا شريك له، وجُعل رزقي تحت ظل رمحي، وجُعل الذل والصَّغار على من خالف أمري، ومن تشبَّه بقوم فهو منهم».

وليس عند البخاري الجملة الأولى والأخيرة، ولأبي داود (٤٠٢٤) الجملة الأخيرة.

وإسناده جيد، رجاله ثقات غير ابن ثوبان ففيه كلام لكن لا ينزل حديثه عن رتبة الحسن وقد قال فيه الحافظ في «التقريب»:

«صدوق يخطئ، وتغير بآخره»، وقال الذهبي في «سير النبلاء» (٧/ ٣١٤):

«صالح الحديث».

وله شاهد مرسل بإسناد حسن - كما في «الفتح» (٦/ ١٢٠) والتغليق (٣/ ٤٤٦) - أخرجه ابن أبي شيبة (١٩٤٣٠) عن طاوس مرفوعًا.

وله طريق آخر أخرجه الطحاوي في «مشكل الآثار» (١/ ٨٨) بإسناد فيه ضعف كما في «الإرواء» (٥/ ١٠٩-١١٠) للألباني.

والحديث صححه وقواه جمع من أساطين هذا الفن، منهم ابن حبان كما في «بلوغ المرام» لابن حجر وشيخ الإسلام ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٢٦٩) وفي «مجموع الفتاوي» (٢٥/ ٣٣١) والحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٢/ ٦٣) والحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٦/ ١٢٠و١٠/ ٣٣٤) والسخاوي كما في «عون المعبود» (١١/ ٥٢) والعلامة الألباني في «الإرواء» (١٢٦٩) وفي«الجلباب» (ص٢٠٣-٢٠٤) و «صحيح الجامع الصغير» (٢٨٢٨).

(فائدة):

والحديث أفرده الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ برسالة شرحه فيها شرحًا ممتعًا وهي مطبوعة وللَّه الحمد.

[١٩٢] صحيح:

قطعة من حديث أخرجه الترمذي (٢٣٤٩)وابن ماجه (٤١٦٤) وأحمد (١/ ٣٠و٥٢) وابن حبان (٢٥٤٨-الموارد) والحاكم (٤/ ٣١٨) عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

وقال الحاكم: «صحيح الإسناد». وأقره الذهبي!

تطبيق:

إذا رأينا طائفتين من المؤمنين تنازعتا:

فأما إحداهما فالتجأت إلى السلطان تستغيثه، وتستعين به، وتحطب في حبله[1]، فأغاثها، وانتقم لها، وأمدّها، وقرّبها، وأدناها!.

وأما الأخرى فلم تستغث إلا باللَّه، ولم تستنصر إلا به، ولم تعتمد إلا عليه، ولم تعمل إلا فيما يرضيه من نشر هداية الإسلام، وما فيها من خير عام لجميع الأنام، وتحمّلت في سبيل ذلك كل ما تسببت لها فيه الطائفة الأخرى، ومن تولته وهربت إليه.

إذا رأينا هاتين الطائفتين عرفنا منهما - يقينًا - الفارة من اللَّه، والفارة إليه، فكنا - إنْ كُنّا مؤمنين - مع مَن فر إلى اللَّه.

الآية الخامسة:

الألفاظ والتراكيب:

ولا تجعلوا: ولا تضعوا من عند أنفسكم ما لا وجود له.

إلهًا: معبودًا تخضعون له، وترجون منه التصرف في الكون، ليجلب لكم النفع، ويدفع عنكم الضر.

وتقدمت ألفاظ آخر الآية.

---

(١) يقال: حطب في حبلهم يحطب، أي: نصرهم. «القاموس المحيط».

المعنى:

ولا تجعلوا في فراركم إلى اللَّه شيئًا معه من مخلوقات تعتمدون عليه وتلتجئون إليه، فتكونوا قد أشركتم به سواه، فإني أحذركم ما في ذلكم من هلاككم بالشرك الذي لا يقبل اللَّهُ معه من عمل، وإنني قد أبنت لكم لزوم توحيده في الفرار إليه كما بينت لكم لزوم ذلك الفرار.

نكتة التكرير:

أعاد ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ مع الآية الخامسة ليبين لهم أن عبادة اللَّه مع الإشراك به كتعطيل عبادته، فهلاك المشرك كهلاك الجاحد، والنجاة أن تعبدوا اللَّه ولا تشركوا به شيئًا، لا في ربوبيته، ولا في ألوهيته.

تنبيه وتحذير:

جاء في الحديث فيما رواه أصحاب السنن أن «**الدعاء هو العبادة**»[١٩٣].

فمن دعا غير اللَّه فقد عبده، ومن دعا مخلوقًا مع الخالق فقد أشرك.

فإذا دعوتَ، فادع ربك ولا تدع معه أحدًا، وكيف تدعو من لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا؟

وإذا توسلتَ، فتوسّل بأعمالك، بإيمانك وتوحيدك، وباتباعك لمحمد ﷺ، ومحبتك فيه، واعتقادك ما له عند اللَّه من عظيم المنزلة وسموّ المقام عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

---

[١٩٣] صحيح:

تقدم برقم (٥٥).

بيانٌ نبويٌّ قوليٌّ:

قال- عليه الصلاة والسلام- فيما يقال عند النوم: «**لا ملجأ ولا منجى إلا إليك**»[١٩٤].

والملجأ هو المهربُ الذي يُهرَبُ إليه، والمنجى هو مكان النجاة.

فبين لنا أنه لا يكون الهرب إلا إلى اللَّه، ولا تكون النجاة إلا بالهرب إليه، فمن هرب لغيره كان من الهالكين.

كما بيّن لنا أنّ كل ما يجري في هذا العالَم فهو بخلقه [و](١) بقدره، فلا مهرب ولا نجاة مما خلق وقدر إلا إليه.

بيانٌ نبويٌّ عمليٌّ:

روى أحمد وابن جرير عن حذيفة بن اليمان «أن رسول اللَّه ﷺ كان إذا حَزَبَه أمرٌ صلى وفزع للصلاة»[١٩٥] يعني إذا نزل به مهم أو أصابه غم فزع للصلاة.

---

[١٩٤] صحيح:

قطعة من حديث تقدم تخريجه برقم (١٤٥).

(١) سقطت من الأصل.

[١٩٥] حسن:

أخرجه أبو داود (١٣١٥) وأحمد (٥/ ٣٨٨) والطبري في «تفسيره» (١/ ٢٦٠) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣/ ١٥٤/ ٣١٨١و٣١٨٢) والخطيب البغدادي في «تاريخه» (٦/ ٢٧٤) من طرق عن عكرمة بن عمار عن محمد بن عبد اللَّه الدؤلي عن عبد العزيز ابن أخي حذيفة عن حذيفة.

وهذا إسناد ضعيف: الدؤلي - هو ابن أبي قدامة - مجهول، قال الذهبي في «الميزان»: (٣/ ٥٩٥): «ما أعلم روى عنه غير عكرمة بن عمار»، وفي «التقريب» (٦٠٤٢): «مقبول» يعني عند المتابعة.

وشيخه عبد العزيز «لا يعرف» كما قال الذهبي، وقال الحافظ:

فبين لنا بالفعل أنّ الفرار إلى اللَّه بالتلبس بطاعته، وصدق التوجه إليه، والدعاء والتضرع والخشوع له، والاستسلام لدينه وشرعه، والإخلاص في عبادته، والاعتماد عليه، وذلك كله موجود على أكمله في الصلاة التي هي عمود الدين ومظهر كماله.

جعلنا اللَّه والمسلمين من الفارين إليه والمقبولين لديه. آمين[1].

* * *

«وثقه ابن حبان، وذكره بعضهم في الصحابة».

لكن للحديث شاهد يتقوى به: أخرجه النسائي في «الكبرى» (١٠٤٥٠) وفي «عمل اليوم والليلة» (٦١٤) وأحمد (٤/ ٣٣٣) وغيرهما بإسناد صحيح عن صهيب ﷺ، واللَّه أعلم.

(١) الشهاب (ج١، م١٥) غرة محرم ١٣٥٨هـ - فيفري ١٩٣٩م.



تفسير المعوّذتين



تفسير المُعَوِّذتين

خلاصة تفسير المُعَوِّذَتَيْن
من درس الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس
الذي ختم به تفسير القرآن

كلمة بين يدي التلخيص[1]:

أكمل طرائق المتقدمين من علماء هذه الملة في تلقين العلوم طريقة الإملاء.

والإملاء نتيجة لاستحكام الملكة في العلم واستقلال الفكر فيه، أو سَعة المحفوظ ورحابة آفاق الحافظة.

واستحكام الملكة، واستقلال الفكرة، وقوة الحافظة، مزايا تكاد تكون خالصة لعلماء سلف هذه الأمة، لم يبلغ علماء الأمم الأخرى مُدَّ أحدهم فيها ولا نصيفه[2].

وكانت وظيفةُ السامعين كتابةَ ما يملى عليهم كله أو خلاصته، وكانت المحابر والأقلام والأوراق هي الأدوات اللازمة لرواد مجالس العلم إلَّا في مقامات مقابلة الأصول وضبطها، فهنا لابد من إحضار النسخ الكاملة من الكتب.

---

(١) بقلم الإمام الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رَحِمَهُ اللهُ كما سيأتي التنبيه عليه من المجلة.

(٢) في الأصل: «نصيبه»!

ومن ثمرات تلك الطريقة المثلى في التلقين والتلقي كتبُ الأمالي في الحديث واللغة والأدب، وفي تراجم المحدِّثين والأدباء الشيء الكثير من ذلك، وإنْ لم يُبْقِ لنا الدهرُ منها إلَّا الأقل من القليل.

ولما انتهى عصر الرواية بجمع روايات السلف في التفسير، ورواياتهم للأحاديث والسنن، ودوّنت أصول اللغة والأدب والعلوم المتفرعة عنها، وجاء دور الاستغلال لها، نشأت عواملُ الانحطاط في العلوم الإسلامية، وكان من أظهر مظاهرها جفاف القرائح، وجدب الأفكار، وضعف القوى الحافظة، وانحطت طرائق التلقين تبعًا لذلك، وانحصرت في الطريقة الشائعة إلى اليوم، وهي التزام كتاب تتعدد نسخه بتعدد المتلقين له، يحلِّل الشيخ عباراته، ويشرح معانيه. وانحطت وظيفة السامعين من الكتابة والتقييد إلى الاستماع المجرد.

ولسنا نعيب طريقة التزام الكتب وشرح معانيها بالكلام، فذلك في حقيقته نوع قاصر من الإملاء. وإنما ننعى على السامعين إهمالهم لكتابة ما يسمعون، فتضيع عليهم الفوائد التي يلقيها الأستاذ، وقد تكون قيِّمة، كما تضيع في عصرنا هذا الخُطب والمحاضرات المرتجلة التي لا يكتبها ملقيها ولا متلقيها.

ولسنا بصدد التأريخ لهذه الطرائق والمقارنة بينها وبيان وجوه النقص والكمال فيها. وإنما ننبه في هذا المقام إلى أن أسوأ أثر لهذه الطريقة الشائعة اليوم هو القضاء على الملكة العلمية؛ لأنها شغلت المعلِّم والمتعلِّم معًا بالكتاب عن العلم؛ إذ أصبح همُّهما كله مصروفًا إلى تحليل الكتاب، وفك عباراته، والقيام على اصطلاحاته الخاصة، وفي بعض هذا ما يستغرق الوقت ولا يبقي سعة لإدراك قواعد العلم وتطبيق جزئياته على كلياته، وبعيد جدًّا على

من يدرس علمًا على هذه الطريقة أن تستحكم ملكته فيه.

وكيف تستحكم ملكة الفقه - مثلًا - لمن يقرأه من مثل «مختصر خليل» على هذه الطريقة، فيمضي وقته في تحليل عباراته وتراكيبه المعقدة التي ذهب الاختصار بكثير من أجزائها، وفي بيان التقديم والتأخير في الألفاظ، وربط المعمولات بالعوامل البعيدة، وإرجاع الضمائر المختلفة إلى مراجعها، والطفرة بالذهن من مذكور إلى مقدر؟

وهذا هو كل ما يشغل وقت المعلِّم والمتعلِّم، وهم في الحقيقة لا يدرسون علم الفقه، وإنما يدرسون كتابًا في الفقه، ودراسة الكتب لذاتها أصبحت اليوم فنًّا كماليًّا من التاريخ، لا أصلًا في تعلُّم العلوم.

والدارس لتاريخ العلوم الإسلامية يتجلَّى له هذا في تراجم علماء تلك العلوم؛ إذ يجد فيها دائمًا أشباه هذه العبارة: كان أقوم الناس على كتاب «الجمل» للخونَجي[1]، أو على كتاب «التهذيب» للبراذعي[2]، أو على كتاب «الشامل» لابن الصباغ[3]، كان نافذًا في إقراء «المحصل» للرازي، كان سديد البحث في «مختصر ابن الحاجب» الأصلي[4]، كثير المناقشة لعباراته.

---

(١) توفي سنة (٦٤٦هـ)، و«الجمل» اختصار «نهاية الأمل» في المنطق لابن مرزوق التلمساني. «الأعلام» (٧/ ١٢٢).

(٢) فقيه من كبار المالكية، من كتبه «التهذيب» في اختصار المدوَّنة. توفي سنة ٣٧٢هـ. «الأعلام» (٢/ ٣١١).

(٣) فقيه شافعي، من كتبه «الشامل» في الفقه، توفي سنة (٤٧٧هـ). «الأعلام» (٤/ ١٠).

(٤) يعني كتابه «منتهى السول والأمل في علمي الأصول والجدل» في أصول الفقه، مقابل «مختصره» الفرعي المسمَّى «جامع الأمهات». وقد توفي ابن الحاجب سنة (٦٤٦هـ). «الأعلام» (٤/ ٢١١).

وأين سداد البحث وكثرة المناقشة في عبارة كتاب من تحصيل الملكة في علم؟

إنَّ الأصولي الحقيقي هو الذي ينفق مما عنده، أو يقرأه من أيِّ كتاب كان، ولا يفتتن بكتاب معيَّن هذا الافتتان.

وأن الفقيه الحقيقي هو الذي يفهم الفقه، لا الذي يفهم كتابًا في الفقه.

وفي وقتنا هذا نسمع علماء المعاهد المشهورة يتمدحون بمثل هذا، ويصفون من يحسن إقراء «التنقيح» للقرافي على هذه الطريقة بالأصولي المحقق.

ولقد حاول جماعة من العلماء الحفاظ في القرون الأخيرة إصلاح هذه الحالة، وإحياء طريقة الأمالي، فلم ينجحوا؛ لافتتان جمهور المتعلمين بالكتب وانصرافهم عن العلم إلى كتب في العلم.

حاول ذلك الحافظ ابن حجر، وهو أهل لذلك، ولكن أهل زمنه لم يكونوا أهلًا له.

ونعى معاصرُه ابن خلدون المؤرخ طرق التلقين في زمنه وكثرة المؤلفات والمختصرات في العلم، وعدَّها عائقة عن التحصيل.

وحاول ذلك بعد ابن حجر تلميذه الحافظ السيوطي، وهو أهل لذلك، على ما فيه من تبجح واستطالة، وقد شكا في بعض رسائله إخفاقه في هذه المحاولة بعبارةٍ مُرَّةٍ، ووصف انصراف الجمهور عنها بأنه من غلبة الجهل وكلال الهمم وضعف العزائم.

نجمت في هذه العهود الأخيرة ناجمة اضطراب وتبرم من طرائق التعليم المتبعة وكتبه الملتزمة، وارتفعت الأصوات بالشكوى من أضرارها وسوء عواقبها.

وكان الأستاذُ الإمامُ الشيخُ محمد عبده أعلى الحكماء صوتًا بلزوم إصلاحها، وأبلغهم بيانًا لأضرارها وسوءاتها ومعايبها، وأسدّهم رأيًا في تغييرها بما هو أجدى منها وأنفع، وأكثرهم عملًا جِدِّيًّا في ذلك.

وكان من إصلاحاته العملية في هذا الباب درسه لكتاب اللَّه بأسلوب حكيم لم يسبقه إليه سابق.

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ وهو مَن هو في استقلال الفكر واستنكار الطرائق الجامدة، يجاري الطريقة الأزهرية بعض المجاراة لاعتبارات خاصة، ومن هذه المجاراة السطحية أنه كان يلتزم في تلك الدروس العامرة بالحكم العليا «تفسير الجلالين» ويستهلها بقراءة عبارته.

ولكن السامعين لتلك الدروس- على كثرتهم وجلالة أقدارهم في العلم والمعرفة، وتساويهم في الاعتقاد بأن تلك الدروس فيضٌ من إلهام اللَّه أجراه على قلب ذلك الإمام وعلى لسانه، وأنها مما لم تنطو عليه حنايا عالم ولا صحائف كتاب- لم تتسابق أقلامهم لتقييد تلك الدروس إلَّا قليلًا. ولو أنهم فعلوا لما ضاع من كلام ذلك الإمام حرف واحد.

ولو لم يقيض اللَّه محمد رشيد رضا لهذا العمل الجليل لضاع كله، ولكن اللَّه وفقه لحفظ معاني تلك الدروس، وسدد قلمه في أدائها، ثم نهج نهجه بعد موته وسار على شعاع هديه في تفسير كلام اللَّه، فأبقى لهذه الأمة تلك الأسفار

القيمة المعروفة بـ «تفسير المنار».

مدَّت حركة الإصلاح العلمي مدّها بعد موت الإمام، وانتشرت في الأقطار الإسلامية، وأسفرت عن إصلاح حقيقي لأساليب التعليم في المعاهد الحرة، وعن إصلاح صوري في المعاهد الرسمية، ولا تزال الحرب قائمة في هذه المعاهد بين طلاب الإصلاح وبين أنصار الجمود، وستكون العاقبة للمصلحين بإذن اللَّه.

ولقد كان من حسن حظ الجزائر أنَّ باعث النهضة العلمية فيها الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس قد وضع أساس هذه النهضة على قواعد صحيحة من أول يوم، فسلك في درس كلام اللَّه أسلوبًا سلفي النزعة والمادة، عصري الأسلوب والمرمى، مستمدًّا من آيات القرآن وأسرارها أكثر مما هو مستمد من التفاسير وأسفارها.

وقد قرأنا له في بعض افتتاحيات (مجلة الشهاب) أنه يعتمد في هذه الدروس على تفاسير مخصوصة في مواضيع مخصوصة، كالطبري في المأثور، والكشاف في أسرار الإعجاز، وذلك صحيح ومفيد لمن يجعل فهوم الرجال مقاييس لفهمه، ولا يعطيها أكثر من أنها فهوم تصيب وتخطئ، أما المعنى الصحيح لكتاب اللَّه فيستجليه من البيان العربي، والشرح النبوي، ومن مقاصد الدين، وأسرار التشريع، ومن عجائب الكون، وسنن اللَّه فيه، ومن أحكام الاجتماع الإنساني، ومن تصاريف الزمن، ونتائج العقول، وثمرات العلوم التجريبية.

وإذا كان من دواعي الغبطة ختم تفسير القرآن على هذه الطريقة في القطر

الجزائري، فإن من دواعي الأسف أنه لم ينتدب من مستمعي هذه الدروس من يقيدها بالكتابة، ولو وُجد من يفعل ذلك لربحت هذه الأمة ذُخرًا لا يُقَوَّم بمال، ولاضطلع هذا الجيل بعمل يباهي به جميع الأجيال، ولتمخض لنا ربع قرن عن تفسير يكون حُجَّة هذا القرن على القرون الآتية. ومن قرأ تلك النماذج القليلة المنشورة في «الشهاب» باسم: «مجالس التذكير» عَلِمَ أيَّ عِلْمٍ ضاع، وأيَّ كنز غطى عليه الإهمال.

ولما كان اليوم المشهود بختم هذه الدروس جمع أحد الحاضرين[1] ما وعته ذاكرته وأمكنه تقييده من معنى درس الختم في تفسير المعوذتين، وتصرف في ألفاظه بما لا يخرج عن معانيه، إذ لم يكن من الميسور أن يلتقط الألفاظ كلها. فجاء بهذه الخلاصة التي ننشرها على الناس في هذا العدد (الخاص بالاحتفال) لافتين أنظارهم إلى أن هذه الخلاصة محيطة بمعاني الدرس مع تصرف ضروري اقتضته مساوقة ما كتب لما قيل.

* * *

استهل الأستاذ الدرس بعد الاستعاذة والتسمية بالتحميد المأثور:

الحمد للَّه، إن الحمد للَّه، نحمده ونشكره ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يضلل اللَّه فلا هادي له، ومن يهد فما له من مضل، ونشهد أن لا إله إلا اللَّه ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله[١٩٦].

(١) الشهاب: هو الأستاذ البشير الإبراهيمي كاتب التلخيص.

ثم عقب بما ثبت أن رسول اللَّه ﷺ كان يبدأ به خطبه. وجرت عادة المحدِّثين والمفسرين أن يفتتحوا به مجالس التحديث والتفسير، وإن اختلفت الروايات في ألفاظه، وهو قوله ﷺ:

«أمَّا بعد، فإن أصدق الحديث كتاب اللَّه، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»[١٩٧].

---

[١٩٦] صحيح:

ورد نحوه من طريق جماعة من الصحابة ﷺ، منهم:

١- عبد اللَّه بن مسعود: أخرجه أبو داود (٢١١٨- عون المعبود) والترمذي (١١٠٦)والنسائي في «المجتبى» (٦/ ٨٩- بشرح السيوطي) وفي «الكبرى» (٥٥٢٧و٥٥٢٨) والدارمي (٢/ ١٤٢) وابن ماجه (١٨٩٢) وأحمد (١/ ٣٩٢-٣٩٣و٤٣٢) وغيرهم، وقال الترمذي: «حديث حسن».

٢- ابن عباس: أخرجه مسلم (٨٦٨) والنسائي في «المجتبى» (٦/ ٨٩-٩٠) وفي «الكبرى» (٥٥٢٩) وابن ماجه (١٨٩٣) وأحمد (١/ ٣٠٢و٣٥٠) وغيرهم.

٣- جابر: أخرجه مسلم (٨٦٧) وغيره، وقد تقدم بلفظه برقم (١٨٩).

٤- أبو موسى الأشعري: «رواه أبو يعلى والطبراني في «الأوسط» و «الكبير» باختصار ورجاله ثقات، وحديث أبي موسى متصل».

قاله الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٢٨٨).

(تنبيه):

ليس في شيء من طرق هذه الخطبة النبوية المعروفة عند العلماء بـ«خطبة الحاجة» من زيادة بعضهم فيها: «ونشكره»، و «ونتوب إليه» بل الثابت بدل هذه العبارة الأخيرة: «ونعوذ باللَّه من شرور . . . .»، مع تقديم جملة الهداية على الإضلال، وذكر الشهادتين بصيغة الإفراد لا الجمع، فينبغي التقيد بتعليمه ﷺ، واللَّه ولي التوفيق والهداية.

[١٩٧] صحيح:

تقدم قريبًا في (١٨٩).

ثم قال توطئة للدخول في تفسير المعوذتين ما معناه مع تصرف وتوضيح :

بُني هذا الكون الدنيوي على أن يقترن فيه الخير بالشر ، وأن يتصلا ، وأن يشتبها ، وأن يحيطا بالإنسان من جميع جهاته فتكون أعماله الكسبية في الحياة مكتنفة بهما ، دائرة بينهما ، موصوفة بأحدهما ولابد، ذلك من قدر اللّه ومن سننه العامة في هذا العالم الإنساني .

وحكمته المبيَّنة في وحيه هي ابتلاء خلقه ليجازوا على ما يكون من كسبهم وسلوكهم بعد أن وهبهم العقل والتمييز ، وأكمل عليهم نعمته بهداية الدين ، عدلًا منه تعالى ورحمة .

وحكمة أخرى : وهي تمرين هذا الإنسان في حياتيه العلمية والعملية ، وتدريب فكره على اختيار الأنفع على النافع ، والنافع على الضار ، ثم سوق الجوارح إلى العمل على ذلك الترتيب وترويضها عليه .

والإنسان يكتسب القوة والدربة بتمرُّسه على ما يلقاه من الخير والشر بعمله وبفكره ، وللفكر الإنساني عمل سابق لأعمال الجوارح المجترحة ، وسائق لها ومُهَيِّئٌ لما يظهر أنه من بدواتها .

وهذا العمل الفكري تظهر قوته في نواح ؛ منها- وهو أهمُّها- التمييز بين الخير والشر . وأدق منه التمييز بين خير الخيرين وشر الشرين ، فإن الخير درجات وأنواع ، والشر كذلك دركات وأنواع .

والإنسان في هذا الخضم الذي تلاطمت أمواجه ، وفي هذا الفضاء الذي تشابهت أفواجه ، محتاج إلى معونة إلهية في تمييز الخير من الشر . وقد أمده اللّه بهذه المعونة من دينه الحق .

ومحتاج إلى تأييد إلهي يعصمه من الشر ويقيه من الوقوع فيه عن جهالة أو عمد، وقد هداه اللّٰه إلى أسبابه ووسائله بما شرع له من المنبهات عند طروق الغفلة، والمبصرات عند عروض الشبهة، والمعوذات المحصنات عند إلمام لمة الشيطان وطواف طائفه.

ومن هذه المعوذات عقائد تدفع عن صاحبها الشكوك وهي شر، وحقائق تقي صاحبها الوهم وهو شر، وعبادات تربي مقيمها على الخير وتنهاه عن الفحشاء والمنكر، وأعمال تثبت فاعلها على الحق، وأقوال يمليها القلب العامر بتقوى اللّٰه والخوف من مقامه على الألسنة لتكون شهادة لها وعنوانًا عليها، والألسنة تراجمة القلوب.

فكان مما شرع اللّٰه لنا في كتابه وعلى لسان نبيه التعوذ باللسان من الشر والباطل، وأنزل اللّٰه عليه هاتين السورتين وفيهما الاستعاذة باللّٰه من أنواع من الشرور هن أمهات لما عداهن.

وكان نبينا عليه السلام يكثر التعوذ باسم اللّٰه وكلماته من أنواع أخرى من الشرور مفصلة في صحاح السنة[1].

أما السورتان فيكفي في فضلهما ما أخرجه مسلم في «صحيحه» عن عقبة ابن عامر الجهني قال: قال رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله وسلم:

«ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير خير منهن قط: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾.

---

(١) انظر «صحيح البخاري» (٣٣٧١)، و«صحيح مسلم» (٢٧٠٨)، و«صحيح الترغيب» (١٦٠١ و١٦٠٢) للألباني.

و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»[١٩٨].

وفي رواية أخرى في «مسلم» عنه تسميتهما بالمعوذتين.

وفي رواية أبي أسامة في «مسلم» أيضًا وصف عقبة بن عامر بأنه كان من رفعاء أصحاب محمد ﷺ.

فتسمية هاتين السورتين بالمعوذتين تسمية نبوية مأثورة كأسماء جميع سور القرآن، وقد يقال: المعوذات ويراد بها ما يشمل سورة الإخلاص.

وكفى بما فيها من أصول العقائد معاذًا من الشرك، وهو أصل الشرور كلها.

وحديث مسلم هو أصح ما ورد في نزولهما.

وأما ما يذكر في نزولهما في قصة سحر النبي ﷺ، فإن ذلك لم يصح سببًا لنزولهما[١٩٩]، وإن كان لقصة السحر وصاحبها لبيد بن الأعصم أصل ثابت

---

[١٩٨] صحيح:

أخرجه مسلم (٨١٤)عن عقبة بن عامر مرفوعًا بلفظ «مثلهن» مكان «خير منهن».

والرواية الأخرى له (٨١٤) (٢٦٥).

ورواية أبي أسامة أخرجها عقبها فقال:

وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا وكيع (ح) وحدثني محمد بن رافع أبو أسامة كلاهما عن إسماعيل بهذا الإسناد، مثله.

وفي رواية أبي أسامة عن عقبة بن عامر الجهني، وكان من رفعاء أصحاب محمد ﷺ.

[١٩٩] صحيح:

وله طرق عن جماعة من الصحابة ﷺ، منهم:

١- زيد بن أرقم: أخرجه عبد بن حميد (٢٧١) والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٥٩٣٥)، وسنده صحيح كما قال الألباني في «الصحيحة» (٦/ ٦١٧). =

في الصحيح»[٢٠٠].

وقد تساهل كثير من المفسرين في حشر هذا السبب في تفسيرهما، وفي حشر كثير مما لم يصح في فضائلهما، ولنا فيما صح غنية عما لم يصح.

وهذه الخيرية التي أثبتها لهما حديث عقبة عند مسلم هي خيرية نسبية في ناحية مخصوصة، وهي ناحية التعوذ بهما من الشرور العامة والخاصة المذكورة فيها.

ودليل هذه النسبية ما أخرجه النسائي في «سننه» عن ابن عابس الجهني أن رسول اللّه ﷺ قال له:

«يا ابن عابس ألا أدلك -أو: - ألا أخبرك بأفضل ما يتعوذ به المتعوذون؟» قال: بلى يا رسول اللّه. قال: «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾. و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾. هاتين السورتين»[٢٠١].

= ٢- عائشة: أخرجه سفيان بن عيينة في «تفسيره»: رواية أبي عبيد اللّه عنه، عن هشام بن عروة عن أبيه عنها كما في «التخليص الحبير» (٤/ ٤٠) للحافظ، وصححه.

وله طريق آخر عنها: أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٧/ ٩٢-٩٤) بإسناد فيه متروك.

٣- ابن عباس: أخرجه أيضًا البيهقي في «الدلائل» (٦/ ٢٤٨) من طريق محمد بن السائب عن أبي صالح عنه، ومحمد بن السائب هو الكلبي متهم بالكذب.

[٢٠٠] صحيح:

أخرجه البخاري (٥٧٦٣و٥٧٦٥و٥٧٦٦) ومسلم (٢١٨٩) عن عائشة رضي الله عنها.

[٢٠١] صحيح:

أخرجه النسائي في «المجتبى» (٨/ ٢٥١-٢٥٢) وفي «الكبرى» (٧٨٤١) وأحمد (٤/ ١٥٣) عن يحيى بن أبي كثير عن محمد بن إبراهيم بن الحارث أخبرني أبو عبد اللّه أن ابن عابس الجهني أخبره=

فبيَّن ﷺ أن خيريتهما وأفضليتهما من جهة ما تشتملان عليه من معنى التعوذ، وهو من المعاني الداخلة في دائرة ما كلفنا اللَّه به.

ولهاتين السورتين خصوصية غير المناسبات التي يذكرونها في ارتباط بعض السور بالبعض، ويستخرجون منها بالتدبر ما لا يحصى من الأنواع، وهذه الخصوصية هي ختم القرآن بهما، وهما كالسورة الواحدة.

فما هي الحكمة في ختم القرآن بهما؟ وترتيب السور توقيفي ليس من صنيع جامعي المصحف، كما ذكره السيوطي في «الإتقان»[1] وجماعة.

يستطيع ممارس القرآن ومتدبره، ومتلقيه بالذهن المشرق والقريحة الصافية، أن يستخرج من الحِكم في هذا الختم بهما أنواعًا، ولكن أجلاها وأوضحها أنهما ختم على كنوز القرآن في نفس المؤمن. وتحصين لهذه النعم المنشالة[2] من القرآن عليه أن يكدرها عليه كيد كائد أو حسد حاسد، فإنَّ من

= أن رسول اللَّه ﷺ قال له: فذكره.

وهذا إسناده ضعيف، أبو عبد اللَّه «لا يعرف» كما قال الذهبي، لكن الحديث صحيح فإن له طرقًا كثيرة عن عقبة بن عامر - وهو ابن عابس الجهني - عند النسائي في «المجتبى» (٨/ ٢٥١-٢٥٤) و«الكبرى» (٧٨٣٨-٧٨٤٨ و٧٨٥٢ و٧٨٥٥ و٧٨٥٦) وأبي داود (١٤٥٩و١٤٦٠) وأحمد (٤/ ١٤٤ و١٤٨ و١٤٩ و١٤٩ -١٥٠ و١٥١ و١٥٢و١٥٣و١٥٥و١٥٨و١٥٩) وابن خزيمة (٥٣٥) والحاكم (١/ ٢٤٠).

ورواه ابن حبان (١٧٧٦و١٧٧٧-الموارد) والحاكم (٢/ ٥٤٠) وقال: «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي.

وليس عندهما ذكر ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾.

وللحديث شاهد عن جابر: أخرجه النسائي في «المجتبى» (٨/ ٢٥٤) وفي «الكبرى» (٧٨٥٤) وابن حبان (١٧٧٨).

(١) في (١/ ٨٢- ٨٤).

(٢) في آثار الإبراهيمي: «المنثالة».

أُوتي الشيء الكريم ورزق النعمة الهنية هو الذي تمتد إليه أيدي الأشرار وألسنتهم بالسوء، وتقذفه عيونهم بالشرر، وتتطلع إليه نفوسهم بالحسد والبغضاء، ويشتد عليه تكالبهم سعيًا في سلبه منه أو تكديره عليه، وبقدر النعمة يكون الحسد، وعلى مقدار نفاسة ما تملك تكون هدفًا لمكائد الكائدين، وتأتيك البلايا من حيث تدري ولا تدري.

ومن أوتي القرآن فقد طوى الوحي بين جنبيه، وأوتي الخير الكثير، فهو لذلك مرمى أعين الحاسدين، ومهوى أفئدة الكائدين.

فكان حقيقًا وقد ختم القرآن حفظًا أو مدارسةً أو تلاوةً أن يلتجئ إلى اللَّه طالبًا منه الحفظ والتحصين من شرِّ كلِّ كيدٍ وحسدٍ يصيبه على هذا الخير العظيم الذي كمل له، وهذه النعمة الشاملة التي تمت عليه.

هذه حكمة.

وأخرى: وهي أن من أوتي القرآن وتفقَّه فيه فقد أوتي الحكمة وفصل الخطاب، وأحاط بالعلم من أطرافه، وملك كنزه الذي لا ينفد.

وإنَّ من آفات العلم اغترار صاحبه به، وقد يتمادى به الغرور حتى يسوِّل له أنَّ ما أوتيه من العلم كافٍ في وقايته من الأضرار ونجاته من الأشرار، فكان من رحمة اللَّه بصاحب القرآن ولطف تأديبه له وحسن عنايته به، أن ختم بهاتين السورتين كتابه لتكونا آخر ما يستوقف القارئ المتفقه، وينبهه إلى أنَّ في العلم والحكمة مسألة لم يتعلمها إلا الآن، وهي أنه مهما امتدَّ في العلم باعه واشتد بالحكمة اضطلاعه، فإنه لا يستغني عن اللَّه، ولابد له من الالتجاء إليه، والاعتصام به، يستدفع به شر الأشرار وحسد الحاسدين، وكفى بهذه التربية

قامعًا للغرور، وإنه لشرُّ الشرور.

هذه هي المناسبة العامة بين جميع القرآن مرتبًا ترتيبه التوقيفي وبين هاتين السورتين في اتحاد موضوعهما.

وأما المناسبة الخاصة بين السورتين وبين سورة الإخلاص، فهي أن سورة الإخلاص قد عرَّفت الخلق بخالقهم بما فيها من التوحيد والتنزيه والتمجيد. فإذا قرأت القرآن وتدبرته على ترتيبه، ووجدت توحيد اللَّه منبثًّا في آياته وسوره، متجليًا ذلك التجلي الباهر بمعارضه وصوره، سادًّا ببراهينه على النفوس كُلَّ ثنيةٍ وكُلَّ مطلعٍ؛ كانت آخر مرحلة يقطعها فكرك من مراحل التوحيد في القرآن هذه السورة المعجزة على قصرها، فكأنها توكيد لما امتلأت به نفسك من معاني التوحيد، وكأنها وصيَّة مودِّع مشفق بمهمّ يخشى عليك نسيانه، فيعمد فيها من الكلام إلى ما قلّ ودلّ ولم يملّ.

ومِنْ صِدْقِكَ في توحيدك للَّه في ربوبيته وإلهيته، أن تنقطع عن هذا الكون وتكون منه وكأنك لست منه، بصدقِ معاملتك للَّه وإخلاص توحيدك إياه.

فأنتَ وقد آمنتَ وصدَّقتَ وخرجتَ من سورة الإخلاص متشبِّعًا بمعانيها، ومنها معنى الصمد، تستشعر أنَّ العالم كله عجز وقصور، وأنَّ خيراته مكدرة بالشرور، وأن لا ملجأ إلا ذلك الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤًا أحد، فتجيءُ المعوذتان بعد الإخلاص مبينتين ذلك الالتجاء الذي هو من تمام التوحيد.

ولأجل هذه المناسبة والارتباط بين السور الثلاث جمع بينهن في التسمية.

ففي «الصحيح» عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان ينفث عن نفسه بالمعوذات[٢٠٢].

وسياق النسائي لحديث عقبة بن عامر المتقدم: «أن رسول الله [صلى الله عليه وآله وسلم] قرأ وقرأت معه الإخلاص ثم ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾. و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾. فلما ختمهن قال:

«**ما تعوذ بمثلهن أحد**»[٢٠٣].

وكما جمع صلى الله عليه وآله وسلم بينهن في التسمية والتعوذ؛ جمع بينهن عمليًّا في قراءة الوتر(١).

هذا إجمال المناسبة الخاصة بين السور الثلاث.

---

[٢٠٢] صحيح:

أخرجه مالك (٤/ ٣٢٧/ ١٨١٩) ومن طريقه البخاري (٥٠١٦) ومسلم (٢١٩٢) وأبو داود (٣٨٩٦) والنسائي في «الكبرى» (٧٥٤٤و٧٥٤٩و١٠٨٤٧) وابن ماجه (٣٥٢٩) وأحمد (٦/ ١٠٤ و١٨١و٢٦٣) من طريق ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة «أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث».

قالت: فلما اشتد وجعه كنت أنا أقرأ عليه وأمسح عليه بيمينه رجاء بركتها.

تابع مالكًا معمر: أخرجه البخاري (٥٧٣٥).

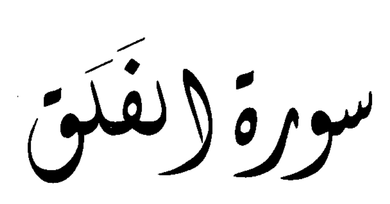
[٢٠٣] صحيح:

تقدم قريبًا في (٢٠١).

(١) ثبت ذلك في حديث عائشة رضي الله عنها قالت:

«كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ في الركعة الأولى من الوتر بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وفي الثانية: بـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وفي الثالثة بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾».

رواه ابن حبان (٦٧٥ و٦٨٢- موارد الظمآن) والحاكم (١/ ٣٠٥) وقال: «صحيح على شرط الشيخين». ووافقه الذهبي.



تفسير الآيات (١- ٥)



سورة الفلق

قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ . . .﴾ [الفلق: الآيات: ١- ٥].

الأمر المفرد للنبي ﷺ.

ومن حسن الأدب في مقدرات القرآن أن تقدر في مثل هذا الأمر: أيها الرسول. أو: أيها النبي. لأنهما الوصفان اللذان نطق بهما القرآن في نداء النبي ﷺ، وألا تقدر: يا محمد[1]. كما هو جار على الألسنة وفي التصانيف، فإن القرآن لم يخاطبه باسمه.

والأمر لنبينا أمر لنا؛ لأننا المقصودون بالتكليف، ولا دليل على الخصوصية، فهو في قوة: قل أنتَ، وقل لأمتك يقولون.

وأعوذ: أستجير وألتجئ، ويتعدى هو وجميع تصاريفه بالباء، كأستجير.

والعوذ والعياذ مصدران منه كالصوم والصيام، وفي القرآن مما جاء على المعنى اللغوي: ﴿يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: الآية ٦] ومن كلام العرب: (قد استعذتَ بمعاذ).

و«الرب»: الخالق المكوِّن المربي، ومواقع استعمال هذه الكلمة في القرآن هي التي تكشف كل الكشف عن معناها الكامل.

---

(١) على هذا التقدير جرى الإمام فيما تقدَّم من «تفسيره» الذي بين أيدينا، فلعلَّ ما أبداه هنا من تغير الاجتهاد، والله أعلم.

والفلق: الفجر المفلوق المفري.

ومن لطائف هذه اللغة الشريفة أن الفتح والفلح والفجر والفلق والفرق والفري والفأ والفقأ والفقه كلها ذات دلالات واحدة، وتخصيصها بمتعلقاتها باب من فقه اللغة عظيم.

ومما وصَفَ به ربُّنا نفسَه في القرآن ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: الآية ٩٦]. و﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: الآية ٩٥]. فهما من أسمائه تعالى(١).

ومواقع هذه الألفاظ التي تضاف إلى كلمة «رب» في القرآن كمواقع أسماء المخلوقات التي أقسم بها اللَّه، كلاهما عجيب معجز، فكل لفظة تستعمل في المقام الذي يناسبها وتناسبه، وكل لفظة تبعث في الأسلوب الذي وقعت فيه متانة وقوة وفي معناه وضوحًا وجلاءً.

وسر إضافة (الفلق) إلى (رب) هنا أن الفجر بمعناه العرفي هو تشقق الظلمة عن النور، فإنَّ الليل يكون مجتمع الظلمات مسدول الأرواق. فإذا جاء الصبح حصل الانفلاق. والذي يبقى بعد ذلك الانفلاق هو النور الذي نفى الظلمة. ولا ينفي ظلمات الشر والضلال والباطل إلَّا أنوار الخير والهدى والحق من خالقها، وفالق أنوارها.

وكما أضيف (الفلق) بمعنى الفجر، إلى كلمة (رب) هنا أقسم به في آية

---

(١) أسماء اللَّه توقيفية، ومن الغلط أن نجعل له من كل صفةٍ اسمًا يُشتَق له منها، فإن باب الأخبار والصفات أوسع من باب الإنشاء والأسماء، كما قرره المحققون.

انظر «طريق الهجرتين» (ص٤٨٦ - ٤٨٧) لابن القيم، و«تيسير العزيز الحميد» (ص٥٧٩) لسليمان بن عبد الوهاب.

أخرى وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ﴾ [الفجر: الآية ١].

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفَلَق: الآية ٢]:

من كل مخلوق فيه شر، فلا يدخل في عمومه إلا كل شرير من أيِّ العوالم كان، كما يدخل في عموم الناطق كل ذي نطق، أو من شر كل مخلوق.

ومن مخلوقات اللَّه ما هو خير محض كالأنبياء والملائكة.

ومعلوم أن المخلوقات كلها خلقت بحق ولحكمة فهي في نفسها خير، فإن كان لا ينشأ من أعمالها أو آثارها إلا الخير فهي الخير المحض، وإن كان ينشأ عنها الشر أحيانًا أو دائمًا فعملها هو الشر وهو المستعاذ منه.

وتصح نسبة هذا القسم إلى اللَّه من حيث الخلق والحكمة، ونسبة أعماله إليه من حيث التقدير والتكوين لا من حيث الرضى والتكليف، فاللَّه لا يرضى بالشر ولا يكلف به، وقصارى إبليس- وهو مادة الشر في هذا الوجود- أن يزيِّن الشر ويلبسه بالخير، فالشر بيد اللَّه خلقةً وحكمةً، لا رضًا وتكليفًا. والخير بيد اللَّه خلقة وحكمةً ونعمةً وأمرًا.

وقد يكون الشر ذاتيًّا لا ينفك، وقد يكون نسبيًّا باعتبار حالة تعرض واتجاه يقصد، ونعم اللَّه على عباده قد تنقلب عليهم شرًّا وبلاء بسبب سوء تصرفهم فيها، كالمال الذي سماه اللَّه خيرًا في القرآن؛ يكسبه صاحبه من الوجوه المشروعة، وينفقه في الوجوه المشروعة، ويتحرى رضا اللَّه في جمعه وتفريقه، فيكون خيرًا بذاته وبعمل صاحبه، ويتصرف فيه بعكس ذلك، فيكون شرًّا لا من ذاته بل من عمل صاحبه.

وهذا العالم الإنساني المكلف هو الذي يتجلى الخير والشر في أعماله، ويتصلان بحياته اتصالًا وثيقًا، وإنما عيب عليه الشر وقبح منه؛ لأنه قادر على تمييزه واجتنابه ومكلف بذلك، وقد وضع له الدين قوانين ثابتة للخير والشر، ووضح له أن الخير ما نفع وأن الشر ما أضر.

ولكنه وإن أوتي قوة التمييز لم يؤت قوة الاستعصام ابتلاء من اللَّه.

فأما المخذول فيأتي الشر عامدًا متعمدًا وهو يعلم أنه شر.

وأما الموفَّق فيواقع الشر في مواقف يشتبه عليه فيها الخير بالشر، ويعسر التمييز.

والخير والشر لا يوزنان بميزان حسِّيٍّ يستوي الناس كلهم في إدراكه، وقد تدق الفوارق بينهما حتى تخفى، وفي هذه المواقف يجب الالتجاء إلى اللَّه ليرينا الخير خيرًا، ويكشف لبصائرنا عن حقائق الشر، فلا يلتبس علينا شيءٌ بشيءٍ، وبعد أن يوجه الاضطرار نفوسنا هذا التوجيه الصحيح؛ تندفع ألسنتنا، وتقول: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾.

وبهذا تظهر المناسبة الدقيقة بين (رب) و(الفلق).

فإن ربَّ الناس ومربيهم وسائقهم إلى ما يكمل وجودهم هو الذي تنكشف لعلمه سرائرهم.

والفلق نور يكشف للعيان كل المبصرات فتُرى على حقائقها ومقاديرها، لا يزيغ البصر في شيء منها، ولا يطغى.

والإنسان مهما يكن عالمًا فقد تخفى عليه حقائق المعقولات، فيزيغ فكره ويطغى.

ومناسبة أخرى: وهي أن الشر ظلام، وقد أجرى اللَّه في فطر البشر تصور الشر كالظلام، وأجرى على ألسنتهم تشبيه الشر بالظلام، ذلك أن ما يلابس إحساسهم من الأنس بالنور والبشاشة له، هو عين ما يلابسه من الأنس والبشاشة للخير، وأن ما يضايقهم من وحشة الظلام، وتوقع الهلاك فيه، هو عين ما يضايقهم من ذلك في الشر.

هذا كله في الشر على عمومه، ثم خصص تعالى من هذا العموم ثلاثة أنواع من الشر لشدة تعلقها بحياة الإنسان، وكثرة عروضها له، ويجيء أكثرها من أخيه الإنسان، ورتبها ترتيبًا بديعًا لا يستغرب في جنب بلاغة القرآن ودقته في رعاية المراتب وتنسيقها في العرض على الأذهان.

هذه الثلاثة هي: «الغاسق إذا وقب»، و«النفاثات في العقد»، و«الحاسد إذا حسد».

و«الغاسق»: الليل المظلم. والمراد هنا: المصيبة تطرق ليلًا وعلى غِرَّة.

ووقب: دخل في الوقب، وهو النقرة في الشيء.

والنفاثات: السواحر ينفثن الريق واللفظ، جمع نفاثة، كثيرة النفث.

والعُقد: جمع عقدة؛ بيان لعادة السواحر المعروفة من عقد الخيوط ونفث الريق عليها.

والجامع بين الثلاثة هو اشتراكها في الخفاء؛ فإن «الغاسق» ظلام تخفى فيه الشرور، والنفاثات مبني أمرهن على الإخفاء تخييلًا وإيهامًا، و«الحسد» داء دفين.

فالثلاثة- كما ترون- شرّها خفي، وكل شر يخفى عمله أو يخفى أثره يجلُّ خطبه ويعظم خطره، فيعسر التوقي منه والاحتياط له؛ لأنك تتقي ما يظهر ويستعلن، لا ما يخفى ويستتر، لا جرم كانت الثلاثة جديرة بالتخصيص.

أما نكتة الترتيب فإن الليل ليس شرًّا في نفسه ولا الشر من عمله، وإنما هو ظرف للشرور، والعلاقة بين الشيء وظرفه مكينة في النفوس، قوية في الاعتبار، مسببة للحكم على أحدهما بحكم الآخر.

بخلاف النفاثات والحساد فإن الشر من عملهما ومن وصفهما، ولانطباعهما عليه صار ذاتيًّا لهما.

ولا شك أن الشر الذاتي أمكن من العرضي، كما أن بين الاثنين تفاوتًا في ذاتية الشر وقوته وعسر التوقي منه.

فالنفاثات وإن كن يتحرَّين إخفاء عملهن، ولكنه مما يمكن ظهوره وافتضاحه، بخلاف الحاسد، فإنه يخفى شره ويبالغ فيظهر بمظهر الخير، فشره أشد والتوقي منه أعسر، ففي الترتيب بين الثلاثة تَرَقٍّ من الأخفِّ إلى الأشدِّ.

ومن جهة أخرى نجد التناسب ظاهرًا بين الثلاثة: «الغاسق» و«النفاثات» و«الحاسد»؛ فإن الجميع ظلام، ظلام الزمن وظلام السحر وظلام الحسد.

وفي تقييد الغاسق بالوقوب احتمالان، كلاهما صحيح، مفيد للمراد.

الأول: أن وقوب الغاسق عبارة عن اعتكار الظُّلَم وتكاثفها، فكأن بعض أجزائها يدخل بعضًا، والظلام يبدأ خفيفًا مشوبًا بإسفار من الشفق أو من طبيعة

الأرض، ثم يشتد ويحلولك حتى يغطي على كل شيء، فتلك التغطية هي الوقوب.

والوقوب على هذا الاحتمال منظور فيه إلى ظرفه الزماني.

وفائدة القيد حينئذ أن تلك الحالة المصورة بهذه الجملة هي التي تقع فيها الشرور من الآدميين وغيرهم.

فالطارق يطرق، والسارق يسرق، والحيات تنتهش، والضواري تفترس، وظلام الليل يستر ذلك كله، ويعين عليه، ويعوق عن الاستصراخ والاستنجاد. والعرب تقول في ما يشير إلى هذا: الليل أخفى للويل.

فالمستعاذ منه على هذا الاحتمال شر يقع في زمان.

والاحتمال الثاني: أن الوقوب في حقيقته هو دخول شيء في شيء دخولًا حِسِّيًّا، فيقتضي ظرفًا مكانيًّا، وما هذا الظرف إلا الأبنية والمساكن، والظلام حين يهجم يدخل المساكن فيملأها، ويكون دخوله فيها أبين من دخوله في الفضاء، وملؤه إياها أشد.

فالوقوب على هذا منظور فيه إلى ظرفه المكاني؛ لأن الشرور التي ترتكب في البيوت حين يغمرها الظلام أكثر مما يرتكب منها في الفضاء، خصوصًا من الآدميين، والمستعاذ منه شر يقع في مكان.

وعلى الاحتمالين لما كان الليل معوانًا لذوي الشر على شرهم أُضيف الشر إليه واستعيذ باللَّه منه.

والنفاثات: صفة إمَّا للنفوس، فتشمل الرجال والنساء، وتكون

الاستعاذة من شر كل من يتعاطى هذا الفعل، رجلًا كان أو امرأة، وإمَّا للنساء، وخصصن بذلك لأن وقوع هذا الفعل منهن أكثر، وهن به أشهر.

و«النفث»: إخراج الهواء من الفم مدفوعًا بالنفس بدون بصاق، أو مع قليل منه تتطاير ذراته وهو دون التفل.

والنفث وإن كان عامًّا لكنه اشتهر فيما يفعله السحرة؛ يعقدون خيطًا، ويتمتمون عليه بِرُقًى معروفة عندهم، وينفثون على كل عقدة منه بقصد إيصال الشر من نفوسهم الخبيثة إلى نفس المسحور. ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٠٢].

وما أمرنا اللَّه بالاستعاذة من شره إلا لأنه يؤثر في بعض النفوس القابلة للتأثر به. حاشا النفوس المعصومة كنفوس الأنبياء، فإن شرور الدنيا وأسوأها لا تعدو أبدانهم إلى أرواحهم.

ولا يتعاصى على هذه القاعدة ما ورد في سحر لبيد بن الأعصم اليهودي لرسول اللَّه ﷺ[٢٠٤]، وما يوهمه لفظ الرواية، فإن ذلك كله لا يخرج عن التأثر البدني.

ونحن نعتقد دينًا أن تأثير المؤثرات هو من وضع اللَّه وحده. ونقطع علمًا وتجربة أن للقوى النفسية تأثيرًا أعظم من تأثير القوى الجسمانية. وأن من مظاهر هذا التأثير النفساني تأثير العين في المعيون وتأثير التنويم في المنوَّم،

[٢٠٤] صحيح:
تقدم برقم (٢٠٠).

وأن التأثير والتأثر النفسانيين يختلفان باختلاف النفوس الفاعلة والمنفعلة قوةً وضعفًا، وأن تأثير العين ليس من ذاتها وإنما هو من النفس التي من وراء العين، ولو كان التأثير من ذات العين لكانت كل عين ناظرة تحدث ذلك الأثر، وأن هذا التأثير لون من ألوان النفس، فإن كانت خيِّرة كان تأثيرها خيرًا، وإن كانت شرِّيرة كان شرًّا.

فالنفث المذكور في الآية إن أثَّر فإنما يؤثر بالقوة النفسية التي من ورائه، والساحر لا ينفث من نفسه الخبيثة إلا نفث الشر؛ لأن الشر هو صفته الطبيعية، كالحية لا تنفث الترياق وإنما تنفث السم. وكالعدوِّ يلقاك بطعن الأسل(١)، لا بطعم العسل، إذ كان ذلك من طبيعة العداوة.

هذا نفث الشر من النفوس الشريرة كنفوس السحرة.

وأمَّا النفوس الخيِّرة الطيبة كنفوس المؤمنين، فإنها تنفث الخير للخير.

وفي الصحيح عن عائشة ﵂: «أنَّ النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه جمع بين كفيه ثم نفث فيهما وهو يقرأ المعوذتين ثم مسح بهما ما استطاع من بدنه، يبدأ برأسه ووجهه، يفعل ذلك ثلاث مرات»[٢٠٥].

---

(١) أي الرماح والنبل، كما تقدم.

[٢٠٥] صحيح:

أخرجه البخاري (٥٠١٧) عن عائشة: «أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات».

فهذا نفث الخير من خيرِ نفسٍ خلقها اللَّه.

ثم قالت في تمامه: فلما اشتكى كان يأمرني أن أفعل ذلك[٢٠٦].

وفي رواية: كان يقرأ بالمعوذات، فلمَّا ثقل كنتُ أنفثُ عليه بهذا، وأمسح بيد نفسه؛ رجاء بركتها[٢٠٧].

وفي رواية مسلم عنها: أنه كان يفعل ذلك إذا مرض أحد أهله[٢٠٨].

فهذه الأحاديث- وهي ثابتة صحيحة- تثبت أن رسول اللَّه ﷺ كان يقرأ المعوذات وينفث حين القراءة نفث الخير قطعًا. وتُبيِّن لنا أن كل نفس تنفث ما وقر فيها. وأن النفث: إيصال للقوة الروحانية إلى ما يراد وصول الأثر إليه.

وهي دليلنا على ما أسلفنا من أن في النفث خيرًا وشرًّا. ولولاها لما كان النفث إلا من فعل السحرة.

والنفوس إذا استفزها شيء من ملابستها تتفشى فيها الروحانية وتضطرب، فكأنها بذلك النفث تنفض جزءًا من روحانيتها على نفس أخرى أو على بدن، وكأن تحريك اللسان بقراءة أو غيرها إثارة لتلك الروحانية واستدعاء لها حتى تتصل بالريق الذي ينفث، كما يتصل السيال الكهربائي

[٢٠٦] صحيح:

أخرجه البخاري (٥٧٤٨) عنها.

[٢٠٧] صحيح:

أخرجه البخاري (٥٧٣٥و٥٧٥١) بنحوه عنها.

[٢٠٨] صحيح:

أخرجه مسلم (٢١٩٢) عنها.

بشيء مادي- وقد علمنا أن السحرة لا ينفثون نفثًا مجردًا بل يغمغمون برقى شيطانية وأسماء أرواح خبيثة.

ومن الشواهد لنفث الريق: ما أخرجه مسلم من حديث عائشة ﵂: «أن رسول اللَّه ﷺ كان إذا اشتكى الإنسان الشيء منه أو كانت به قرحة أو جرح قال النبي [ﷺ] بأصبعه هكذا- تعني: وضعها على الأرض، كما فسرها سفيان بالعمل-، ثم رفعها وقال:

«باسم اللَّه، تربة أرضنا، بريقة بعضنا؛ ليشفى به سقيمنا، بإذن ربنا»[٢٠٩].

«بعد رواية الأستاذ لهذا الحديث سكت لحظة كمن يستجمع خواطره ثم اندفع فقال ما معناه بتوسع»:

إن القرآن كتاب الدهر ومعجزته الخالدة، فلا يستقل بتفسيره إلَّا الزمن، وكذلك كلام نبينا ﷺ المبيِّن له، فكثير من متون الكتاب والسنة الواردة في معضلات الكون ومشكلات الاجتماع لم تفهم أسرارها ومغازيها إلا بتعاقب الأزمنة وظهور ما يصدقها من سنن اللَّه في الكون، وكم فسرت لنا حوادث الزمن واكتشافات العلم من غرائب آيات القرآن ومتون الحديث. وأظهرت منها للمتأخرين ما لم يظهر للمتقدمين، وأرتنا مصداق قوله ﷺ في وصف

---

[٢٠٩] صحيح:

أخرجه مسلم (٢١٩٤) من طريق سفيان عن عبد ربه بن سعيد عن عمرة عن عائشة به، إلا أن فيه «ووضع سفيان سبابته بالأرض ثم رفعها بسم اللَّه . . .».

وهو عند البخاري (٥٧٤٥و٥٧٤٦) من طريقين عن سفيان - وهو ابن عيينة - مختصرًا، وكذا أخرجه أبو داود (٣٨٨٩) والنسائي في «الكبرى» (٧٥٥٠و١٠٨٦٢) وابن ماجه (٣٥٢١) وأحمد (٦/ ٩٣).

القرآن: «**لا تنقضي عجائبه**»[٢١٠].

والعلماء القوَّامون على كتاب اللّه وسنة رسوله لا يتلقونها بالفكر الخامد

---

[٢١٠] **ضعيف**:

قطعة من حديث أخرجه الترمذي (٢٩١١) من طريق أبي المختار الطائي عن ابن أخي الحارث الأعور عن الحارث قال:

مررت في المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث، فدخلت على علي: فقلت: يا أمير المؤمنين، ألا ترى الناس قد خاضوا في الأحاديث، قال: وقد فعلوها؟ قلت: نعم.

قال: أما إني قد سمعت رسول اللّه ﷺ يقول:

«ألا إنها ستكون فتنة!» فقلت: ما المخرج منها يا رسول اللّه؟ قال:

«كتاب اللّه، فيه نبأ ما كان قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه اللّه، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله اللّه، وهو حبل اللّه المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يَخلَق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذا سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجن: ١و٢].

من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم».

خذها إليك يا أعور!.

وقال الترمذي: «هذا حديث غريب: لا نعرفه إلا من حديث حمزة الزيات، وإسناده مجهول وفي حديث الحارث مقال».

قلت: أبو المختار وابن أخي الحارث مجهولان، والحارث ضعيف بل متهم كما في «الميزان» و«الضعفاء والمتروكين» للذهبي.

ومن هذا الوجه أخرجه الدارمي (٢/ ٤٣٥) وابن أبي شيبة (٦/ ١٢٦/ ٢٩٩٩٨).

وللحديث طريقان آخران عن الحارث عند أحمد (١/ ٩١) والدارمي (٢/ ٤٣٥-٤٣٦) وقد تقدم ما فيه.

وروي موقوفًا ومرفوعًا عن ابن مسعود: أخرجه الدارمي (٢/ ٤٣١) بنحوه وابن أبي شيبة (٢٩٩٩٩) وفي سنده إبراهيم بن مسلم الهجري ضعيف.

وراجع تخريجي لأحاديث «رسالة الشرك» (١٦).

والفهم الجامد، وإنما يترقبون من سنن اللَّه في الكون وتدبيره في الاجتماع ما يكشف لهم عن حقائقهما، ويكلون إلى الزمن وأطواره تفسير ما عجزت عنه أفهامهم، وقد أُثر عن جماعة من فقهاء الصحابة بالقرآن قولهم في بعض هذه الآيات: لم يأت مصداقها أو تأويلها بعد. يعنون أنه آتٍ وأن الآتي به حوادث الزمان ووقائع الأكوان، وكل عالم بعدهم فإنما يعطى صورة زمنه بعد أن يكيِّف بها نفسه.

ولو أننا عرضنا حديث التربة والريقة على طائفة من الناس مختلفة الأذواق، متقسمة الحظوظ في العلم، وسألناهم: أية علاقة بين الشفاء وبين ما تعاطاه النبي ﷺ من أسبابه في هذا الحديث؟ فماذا تقولهم[1] يقولون؟

يقول المتخلف القاصر: تربة المدينة بريق النبي ﷺ شفاء ما بعده من شفاء.

ويقول الطبيب المستغرب: هذا محال! في التراب مِكروب[2]، وفي الريق مِكروب، فأنَّى يشفيان مريضًا أو ينفِّسان عن مَكْروب؟!

ويقول الكيماوي: ها هنا تفاعل بين عنصرين، ودعوا التعليل، فالقول ما يقول التحليل.

ويقول ذوو المنازع القومية والوطنية، ولو كانوا يدينون بالوثنية: آمنَّا بأنَّ محمدًا رسول اللَّه. فقد علَّم الناسَ من قبل أربعة عشر قرنًا أنَّ تربة الوطن

---

(١) كذا في الأصل، وفي آثار الإبراهيمي: «تراهم».

(٢) كلمة جارية في اللسان العامي الجزائري، وأصلها فرنسي: Microbe، ومعناها: جرثوم.

معجونة بريق أبنائه تشفي من القروح والجروح، ليربط بين تربته وبين قلوبهم عقدًا من المحبة والإخلاص له، وليؤكد فيها معنى الحفاظ له والاحتفاظ به، وليقرِّر لهم من منن الوطن مِنَّة كانوا عنها غافلين. فقد كانوا يعلمون من علم الفطرة أن تربة الوطن تُغذي وتُروي، فجاءهم من علم النبوة أنها تشفي، فليس هذا الحديث إرشادًا لمعنًى طِبِّيٍّ ولكنه درسٌ في الوطنية عظيمٌ.

ولو أنصف المحدِّثون لما وضعوه في باب الرقى والطبِّ، فإنه بباب حب الوطن أشبه، وما نرى رافع العقيرة بقوله:

ألا ليت شِعري هل أبيتن ليلةً بـوادٍ وحَـوْلـي إذْخِـرٌ وجـلـيـلُ
وهـل أَرِدْنَ يـومًا مِـيَـاهَ مَـجَـنَّـةٍ وهَلْ يَبْدُوَنْ لي شَامَةٌ وَطفِيلُ[1]

إلا سائرًا على شعاعه، وما نرى ذلك الغريب المريض الذي سئل: فيم شفاؤك؟ فقال: شمة من تربة اصطخر، وشربة من ماء نهاوند. إلا من تلامذة هذا الدرس.

ولقد زادنا إيمانًا به بعد إيمان أنه يقول: «**تربة أرضنا بريقة بعضنا**». ولم يقل: تربة الأرض بريق بني آدم. فليس السر في تربة، وريق ومرض، ولكن السر في أرضنا وبعضنا ومريضنا- فهذه- واللَّه ربِّنا- صخرة الأساس في بناء

---

(١) البيتان تمثل بهما بلال ﷺ لما أصابته حُمّى، كما أخرجه مالك في «الموطأ» (١٧١٤- شرح الزرقاني) ومن طريقه البخاري (٣٩٢٦).

وقيل: البيتان لبكر بن غالب الجرهمي أنشدهما لما نفتهم خزاعة من مكة.

و«إذخر وجليل»: نبتان من الكلأ طيب الرائحة يكونان بمكة وأوديتها، لا يكادان يوجدان في غيرها. قاله ابن عبد البر.

و(مجنة): موضع على أميال من مكة، وكان به سوق في الجاهلية.

و(شامة وطفيل): جبلان بقرب مكة.

الوطنية والقومية، لا ما يتبجح به المفتونون.

ويقول الروحانيون: إن هناك روحًا طاهرة تتصل بتربة الأرض التي خُلق المريضُ منها، وتغذى بنباتها ومائها، وتنفس كبده في جوها وهوائها، من ريقة منفوثة نفث الخير من نفس مؤمنة قوية الروحانية طيبتها، فيكمل التكوين بين الريق والتربة مع اسم اللَّه الذي قامت به السموات والأرض، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، فيحصل الشفاء بهذا العمل النفساني. وإذا تجلَّت النفس بعجائبها لم يبق في الوجود عجيب.

ويقول غير هؤلاء ما يقول، وهذه المتون كاسمها متون، وهذه الأصول كاسمها أصول.

وهكذا تأتي بعضُ المتون من كلام اللَّه وكلام رسوله معجزةً للعقول، فتتطاير من حولها الفهوم والآراء تطاير الشعراء، ويظن كل عقل أنَّ حرفته آلة لتفسير تلك المتون، والعلوم حرف العقول. والزمان من وراء الكل يصيح أن انتظروا . . .

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفَلَق: الآية ٥].

«الحاسد»: الذي قامت به صفة الحسد. وهو الذي يحب أن تُسلَب النِّعمُ من غيره، وقد تلج به هذه الصفة الذميمة فتزين له سلب النعم حتى من نفسه إذا توقف على ذلك سلبها من غيره، فهو لا يحب الخير لأحدٍ، ويتمنى ألا يبقى على وجه الأرضِ مُنْعَمٌ عليه.

وإنما ينشأ الحسد من العُجب وحبّ الذات، فتسوّل له نفسه أن غيره ليس أهلًا لنعم اللَّه، وكفى بهذا محادّة للمنعم.

والحسد شرٌّ تلازمه شرور العُجب والاحتقار والكِبْر.

وقد جمع إبليس هذه الشرور كلها؛ حسدَ آدمَ عُجْبًا بنفسه فقال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف: الآية ١٢] و[ص: الآية ٧٦]. ورآه لا يستحق السجود احتقارًا له فقال: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء: الآية ٦٢]. ثم تكبَّر ولم يسجد ورضي باللعنة والخزي، ولا أشنع من صفة يكون إبليس فيها إمامًا.

والحسد شرٌّ على صاحبه قبل غيره؛ لأنه يأكل قلبه ويؤرق جفنه ويقض مضجعه، ولا يكون شرًّا على غيره إلا إذا ظهرت آثاره بأن كان قادرًا على الإضرار أو ساعيًا فيه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾. والمتمني للشيء لا يمنعه من إتيانه إلا العجز.

وأعظم ما ينمِّي الحسد ويغذِّيه امتداد العين إلى ما متَّع اللَّهُ به عباده من متاع المال والبنين، ونعمة العافية والعلم، والجاه والحكم، وقد نهى اللَّه نبيه عن مدِّ العين إلى ما عند الغير فقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾ [طه: الآية ١٣١].

وفي هذه الآية مع النهي إرشادٌ إلى علاج الحسد، فإنَّ الحسدَ مرضٌ نفسانيٌّ معضل، ولكنه كغيره من الأمراض النفسية يُعالَج، وقد وصف الحكماء له أنواعًا من العلاج، فصَّلتها كتب السنة، وكتب الفقه النفسي، ككتاب «الإحياء»[1] للغزَّالي[2].

---

(١) في (٣/ ١٩٦- ١٩٩).

وانظر أيضًا: بدائع الفوائد (٣/ ٢٣٨- ٢٤٦) للعلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) الشهاب (٤ و٥، م١٤) ربيع الثاني وجمادى الأولى ١٣٥٧هـ - جوان وجوليت ١٩٣٨م.

سورة الناس

تفسير الآيات (١- ٦)



سورة الناس

قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ . . .﴾ [الناس: الآيات: ١- ٦].

قد علمنا أن الصفة الجامعة بين هذه السورة وبين التي قبلها- هي المعوذتان-، وعلمنا أنها تسمية نبوية، وقد جرت هذه الصفة مجرى الاسم لهما.

أما الاسم الخاص بهذه السورة فهو: «الناس»، كما أن الاسم الخاص بالسورة الأولى: «الفلق».

والمناسبة بين السورتين يرشد إليها اشتراكهما في الوصف، وهو التعوذ بهما من الشرور المذكورة فيهما.

وفي السورة الأولى الاستعاذة من الشر العام، ومن ثلاثة أنواع منه، ذكرنا الحكمة في تخصيصها بالذكر.

وفي هذه السورة الاستعاذة من شر واحد لكنه سبب في شرور كثيرة.

والمناسبة القريبة بين السورتين هي أن النفوس الشريرة ثلاثة أقسام:

قسم يصدر عنه الضرر ويعمله.

وقسم لا يريد الخير فيسعى في سلبه وانتزاعه، وهو شر من الأول.

وقسم يعمل إلى إيصال الشر إلى سلطان الجوارح ومالك هديها، وهو المضغة التي إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله.

فهو يحسِّن له الأشياء القبيحة ويأتيه من جميع النواحي على وجه النصح وإرادة الخير، ويزيِّن للإنسان كل ما يُرْديهِ من القبائح، ويأتيه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، قريبًا منه متصلًا بهواه.

وهذا القسم الأخير هو الذي يوسوس بكلمة السوء، مزينة الظاهر، مغطاة القبح، حتى تستنزل صاحبها إلى الهلاك.

ولما كان هذا القسم الثالث أعظم خطرًا وأكثر شرًّا وأخسر عاقبةً خصص التعوذ منه بسورة كاملة.

رب الناس: هو مُربِّيهم ومُعطيهم في كل مرتبة من مراتب الوجود ما يحتاجون إليه لحفظها، وهاديهم لاستعمال ما منَّ به عليهم فيما ينفعهم؛ ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: الآية ٥٠].

وأصله من: ربّه يربّه ربًّا، إذا قام على إنشائه وتعاهده في جميع أطواره إلى التمام والكمال.

ولفظه لفظ المصدر، ولكن معناه معنى اسم الفاعل، كالعدل يراد به العادل.

ومالك(١) الناس: هو الذي يملك أمر موتهم وحياتهم، ويشرع لهم من الدين ومن الأحكام ما يوافق حياتهم الدنيوية والأخروية.

وإله الناس: هو الذي يدينون له بالعبادة والعبودية.

---

(١) كذا في الأصل!

وبلاغة الترتيب إنما تظهر جلية عند استعراض أطوار الوجود الإنساني:

فالأول: طور التربية والإعداد، وهما من مظاهر الربوبية.

والثاني: طور القوة والتدبير، وهما من مظاهر الملك.

والثالث: طور الكمال والقيام بوظائف العبودية، وهو من مظاهر الألوهية.

والمستعاذ منه تارة يوسوس للإنسان بما يفسد عليه صلته بربه، وتارة بما يفسد عليه تدبيره وما شرع له لمنفعته وصلاحه، وتارة بما يفسد عليه عبوديته له وهي أشرف علائقه به وأقوى صلاته.

وجماع ذلك أن يبعده عن اللَّه بالوسوسة بواحدة من هذه، أو بكلِّها، أو بما يتفرع عنها مما تضمنته الآيات المبيِّنة لأفعال أصل هذه القوة الموسوسة، مثل قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٦٨].

أو لذلك الشأن الجاري مجرى الحوار بين إبليس وخالقه كقوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [ص: الآية ٨٢]. وكقوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسرَاء: الآية ٦٢]. وكقوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ﴾ [النِّساء: الآية ١١٩].

فهو جاهد في أن يبعد الناس عن اللَّه بإفساد العقيدة الصحيحة فيه، أو بالصرف عن شرع اللَّه، أو بالحمل على عبادة غيره.

فلذلك كله جاء الترتيب على هذا النمط المذكور بتلك العلائق القوية التي

يريد الشيطان أن يقطعها. والربّ ربّ الناس وغيرهم، بل ربّ العالمين، وإنما خصّ الناس بالذكر؛ لأنهم هم هدفه ومرمى وسوسته. ولأنهم هم المأمورون بالاستعاذة منه، ولأن عالَم التكليف أشرف، فإليهم يُوجَّه الخطاب وإليهم يُساق التحذير.

وهذه الوسوسة نتيجة للعداوة بين أصليهما.

فَأَمْرُ اللَّهِ بالاستعاذة منها هو تسليحٌ إلهيٌّ لبني آدم لتثبيت سنة التعمير التي هي حكمة اللَّه من وجودهم.

ونكتة أخرى في تخصيص الناس بالذكر دون بقية أفراد المربوبين: وهي أنهم هم الذين ينطبق عليهم ناموس الهداية والضلال.

وقد ضلوا بالفعل في ربوبية اللَّه وفي ألوهيته..

ضلوا في الربوبية باتخاذ المشرّعين ليشرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به اللَّه ويصدوهم بذلك عما شرع اللَّه.

وضلوا في الألوهية بعبادة غير اللَّه بما لا يعبد به أحد غيره كالدعاء.

واختير لفظ «الناس» من بين الألفاظ المشاركة له في الدلالة، كالبشر والبرية؛ لأنه يَنوسُ ويضطربُ وينساقُ، وهي صفات يلزمها التوجه ويسهل التوجيه، فلا غنى لصاحبها عن توفيق اللَّه للوجهة الصالحة والتسديد فيها ما دام لا يملك لنفسه ذلك، وما دام محاسبًا عليه، وما دامت هناك قوة مسلطة تنزع به إلى الشر.

ففي تخصيص الناس بالذكر تنبيهٌ إلى أنهم أحوجُ المربوبين إلى تأييد اللَّه

وأحقُّهم بطلب ذلك منه، وقد أرشدهم إلى ذلك وله الحمد.

ولو تفقّه الناس في معنى اسمهم واشتقاقه لعلموا بفطرتهم أنهم مخلوقات ضعيفة لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًّا، ولأيقنوا أنه لابد لهم من ربٍّ يربِّيهم ويحميهم، ومالك يدبر أمورهم، وإله يعبدونه ويتخذون العبودية له جُنَّة من استعباد الأقوياء.

ويجوز- إذا راعينا الأدب وكمال التنزيه في حمل الألفاظ التي تضاف إلى كلمة رب على أشرف معانيها- أن تحمل كلمة «الناس» على معنى أخص مما يتناوله عموم الجنس، وهو الأماثل والأخيار منهم، الجامعون لمعاني الإنسانية الفاضلة، وهذا المعنى تعرفه العرب، فإنهم كثيرًا ما يطلقون اسم الجنس على الفرد أو الأفراد الكاملين في حقيقته. وإن كان هذا من المجاز في كلامهم وقد حملوا على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٣].

ونكتة الإعادة والإظهار للفظ «الناس»، توضيح المعنى وإلفات النفس إليه وإيقاظ شعورها به، والتسجيل على الناس بأن لهم ربًّا هو مالكهم وإلههم.

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾:

الوسواس هنا صفة الموسوِس وإن خالف المعهود في أبنية الصفات، أو هو اسم بمعنى الوسوسة، كالزلزال والزلزلة.

وأصل هذه الكلمة دائر على معنى الخفاء. والعرب تسمِّي حركة الحُليِّ وسواسًا، وهذا المعنى واضح في المراد هنا، فإن الموسوِس من الجن في نهاية الخفاء هو وعمله، والموسوِس من الإنس يتحرى الإخفاء ما استطاع،

ويحكم الحيلة في ذلك ولا يرمي رميته إلا في الخلوات.

وإنَّ الناس ليعرفون عرفانًا ضروريًّا من الفرق بين المصلحين والمفسدين أن الأولين يصدعون بكلمة الحق مجلجلة، ويرسلون صيحته داويةً، ويعملون أعمالهم في وضح النهار ومحافل الخلق، وأن الآخرين يتهامسون إذا قالوا، ويستترون إذا فعلوا، ويعمدون إلى الغمز والإشارة والتعمية. ولو وجدوا السبيل لكانت لهم لغة غير اللغات، ولكان الزمن كله ظلمات، والأرض كلها مغارات.

والخناس: وصف مبالغة في الخانس من الخنوس، وهو التأخر بعد التقدم.

ومن ملابسات هذا المعنى ومكمِّلاته في المحسوس أنه يذهب ويجيء، ويظهر ويختفي، إغراقًا في الكيد، وتقصيًا في التطور حتى يبلغ مراده.

فاللَّه تعالى يرشدنا بوصفه بهذه الصفة إلى أن له في عمله كرًّا وفرًّا، وهجومًا وانتهازًا، واستطرادًا على التصوير الذي صوَّره إبليس في ما حكى اللَّه عنه: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ [الأعراف: الآية ١٧].

يرشدنا بذلك لِنُعِدَّ لكلِّ حالة من حالاته عُدَّتها، ولنضيِّق عليه المسالك التي يسلكها.

كما أن وصفه بهذه الصفة يشعر بأنه ضعيف الكيد؛ لأن الخنوس ليس من صفات الشجاع المقدام، وإنما هو كالذباب تذبه بذكر اللَّه من ناحية فيأتيك من ناحية، ثم دواليك حتى تملَّ أو يملَّ.

وأما التهويل في وصفه بما يأتي بعد فهو مبالغة في التحذير منه؛ لأنَّ وصفه بالضعف مظنة لاحتقاره والتساهل في أمره.

﴿ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾:

قال: ﴿يُوَسۡوِسُ﴾ بالمضارع إشعارًا بعد إشعار بتجدد الوسوسة منه وعدم انقطاعها.

وقال: ﴿فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾. والصدر ملتقى حنايا الأضلع، ومستودع القوى التي كان الإنسان إنسانًا بها، ومجمع المضغ التي تحمل تلك القوى، والقلب واحد منها، فالقلب غير الصدر، وإنما هو فيه، ولذلك قال: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحجّ: الآية ٤٦].

ومواقع استعمال القرآن لكلمة «الصدر» مفردًا وجمعًا، والحكم عليها بالشرح والحرج والضيق والشفاء والإخفاء والإكنان- ترشدنا إلى أنه ليس المراد منه الصورة المادية ولا أجزاءها المادية، وإنما المراد القوى النفسية المستودعة فيه، وأنَّ الوسواس الخناس يوجِّه كيده ووسوسته دائمًا إلى هذه القلعة التي هي الصدر لأنها مجمع القوى.

وقال: ﴿فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾. ولم يقل: في قلوب الناس. لأن القلب مجلى العقل ومقر الإيمان، وقد يكون محصنًا بالإيمان فلا يستطيع الوسواس أن يظهره، ولا يستطيع له نقبًا.

﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾.

الجِنَّة: جماعة الجِنِّ. وهم خلاف الإنس، والمراد هنا: أشرار ذلك

الجنس؛ لأن منهم المسلمين ومنهم القاسطين.

واستُعمِل لفظ «الجِنَّة» في القرآن بمعنى المصدر الذي هو الجنون في قوله تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سبأ: الآية ٤٦].

ولما كان الموسوِسون فريقين متعاونين على الشر؛ ذكرهما اللَّه تعالى في مقام الاستعاذة من شر الوسوسة؛ ليلتئم طرفا الكلام، ويحصل التقصي الوصفي في المستعاذ به والمستعاذ منه.

وقد قسم القرآن الشياطين، وهم القائمون بوظيفة الوسوسة، إلى قسمين: شياطين الإنس وشياطين الجن، وذكر أن بعضهم يوحي إلى بعض زخرف القول(١).

وشيطان الجن ميسر للشر، فكل من يعمل عمله من الإنس فهو مثله، ومن شياطين الإنس بطانة السوء وقرين السوء.

وورد في الآثار أنَّ لكلِّ إنسان قرينًا من الجن[٢١١].

(١) كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: الآية ١١٢].

[٢١١] صحيحة:

وردت عن جماعة من الصحابة، منهم:

١- عبد اللَّه بن مسعود: أخرجه مسلم (٢٨١٤) عنه مرفوعًا:

«ما منكم من أحدٍ إلا وقد وكل به قرينه من الجن» قالوا: وإياك يا رسول اللَّه؟ قال: «وإياي: إلا أن اللَّه أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير».

٢- عائشة: أخرجه مسلم (٢٨١٥) عنها أن رسول اللَّه ﷺ خرج من عندها ليلًا، قالت: فغِرتُ عليه، فجاء فرأى ما أصنع، فقال: «ما لكِ يا عائشة! أغِرْتِ؟». فقلتُ: وما لي لا يغار مثلي على=

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزّخرُف: الآية ٣٦].

وقال: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾ [فُصّلَت: الآية ٢٥].

وهو من باب توزيع الجمع على الجمع، أي: لكل واحد قرين.

فهذا الإنسان الضعيف يلازمه قرين من الجن، ثم لا يخلو من قرين أو قرناء من الإنس، يزيِّنون له ما بين يديه وما خلفه، ويصدُّونه عن ذكر اللَّه، فماذا يصنع؟

ما عليه إلَّا أن يلتجئ إلى اللَّه ويستعيذ به ويتذكَّر، فإنه لا يُؤخَذ وهو ذاكر مستيقظ، وإنما يُؤخَذ إذا كان غافلًا.

قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: الآية ٢٠٠] و[فصلت: الآية ٣٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٠١].

= مثلك؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «أقد جاءك شيطانك؟» قالت: يا رسول اللَّه، أوَ معي شيطان؟ قال: «نعم» قلت: ومع كل إنسان؟ قال: نعم. قلت: ومعك يا رسول اللَّه؟ قال: «نعم، ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم».

٣- عبد اللَّه بن عباس: أخرجه أحمد (١/ ٢٥٧) وفي سنده قابوس - وهو ابن أبي ظبيان - فيه لين كما قال الحافظ، لكنه حسن في الشواهد.

وفي الباب عن المغيرة بن شعبة وأبي هريرة وأسامة بن شريك، خرجها الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٢٥).

ومن دقائق القرآن ولطائفه في البلاغة أنه يقدِّم أحد الاسمين المتلازمين في آية لسرٍّ من أسرار البلاغة يقتضيها ذلك المقام، ثم يؤخر ذلك المقدَّم في آية أخرى لِسِرٍّ آخر، فيقدِّم السماء على الأرض في مقام، ويؤخرها عليها في مقام آخر.

ومن هذا الباب تقديم الإنس على الجِنِّ في آية «الأنعام»؛ لأن معرض الكلام في عداوتهم للأنبياء، وهي من الإنس أظهر، ودواعيها من التكذيب والإيذاء أوضح.

وفي آية «الناس» قدَّم الجِنَّة على الناس؛ لأن الحديث عن الوسوسة، وهي من شياطين الجن أخفى وأدق، وإن كانت من شياطين الإنس أعظم وأخطر وأدهى وأمر.

فشيطان الجن يستخدم شيطان الإنس للشر والإفساد، فيربَّى عليه ويكون شرًّا منه؛ لأنه بمثابة السلاح الذي يفتك به، ورُبَّ كلمةٍ واحدةٍ صغيرةٍ يوحيها جنيٌّ لأنسيٍّ ويوسوس إليه بتنفيذها، فتتولد منها فِتَنٌ ويتمادى شرها من قرن إلى قرن، ومن جيل إلى جيل.

وهذا النوع الإنساني المهيأ لقابلية الخير وقابلية الشر، إذا انحط وتسفل كان شرًّا محضًا، وإذا ترقَّى وتعالى شارف أفق الملإ الأعلى، وأوشك أن يكون خيرًا محضًا لولا أنَّ العصمة لم تكتب إلَّا لطائفة منه، وهم الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام-.

فالإنسان إذا انحط يكون شرًّا من الشيطان، وإذا ارتقى يكون أفضل من الملك- أعني: جنس الإنسان- ومن هذا الجنس كان محمد ﷺ أكمل

الخلق الذي ليس لمخلوق رتبة مثله في الكمال.

* * *

انتهى تلخيص الدرس، وقد حرصنا على ما وعته الذاكرة من معانيه، وقيده القلم من ألفاظه، ثم تصرفنا في المواضيع التي طرقها الأستاذ بما لا يخرج عن مراده ولا يخالف طريقته في تفسير كلام اللَّه. واللَّه ينفعنا بالقرآن، ويوفقنا إلى خدمته[1].

* * *

(١) الشهاب (ج٤ و٥، م١٤) ربيع الثاني وجمادى الأولى ١٣٥٧هـ - جوان وجوليت ١٩٣٨م.



مَلاحِق

* حول كلماتٍ لأستاذٍ كبيرٍ في تفسير آيات الزينة والستر (١- ٢).

* حول حديث الشيخ ابن يوسف في مسألة الحجاب ومجلة «الشهاب».

* لا فضل بالمال لمن كان ذا فضلٍ فيه.

* العَرَبُ في القرآن (١- ٣).

* * *



حول كلمات لأستاذ كبير في تفسير آيات الزينة والستر

- ١ -

نشرت جريدة «الزهرة»[1] الغراء حديثًا لفضيلة العلامة الكبير الشيخ محمد ابن يوسف[2] المفتي الحنفي بحاضرة تونس، أفضى به لأحد محرري جريدة «اللواء التونسي»، فرأينا في بعض ما قاله الأستاذ نظرًا لا ينبغي السكوت عليه، فكتبنا عليه ما يلي:

قال المحرِّر: «ثم تلا -الأستاذ- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: الآية ٥٩] الآية.

يُقالُ للمرأة إذا زال ثوبها عن وجهها: أدني عليك من ثوبك. أي: استري وجهك.

وتلا قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور: الآية ٣١] الآية.

---

(١) جريدة تونسية، أُسِّست سنة ١٣٠٧هـ- ١٨٩٠م، لصاحبها الصحافي الكبير عبد الرحمن الصنادلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ. انظر: «أضواء على الصحافة التونسية» لعمر بن قفصية.

(٢) توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة ١٣٥٨هـ، ١٩٣٩هـ.

انظر ترجمته في «تراجم الأعلام» (ص٢٦١- ٢٧٠) لمحمد الفاضل ابن عاشور، ومشاهير التونسيين (ص٦٠٦) لمحمد بوذينة.

قلتُ- المحرِّر-: وما المراد من الزينة؟

قال: الزينة هي الوجه؛ إذ الوجه هو مناط جمال المرأة».

فظاهر من مساق تلاوة الأستاذ للآية أنه يستشهد بها على وجوب ستر الوجه، وظاهر من السؤال أنه عن المراد بلفظ: «الزينة» من: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾. وظاهر من الجواب أنه فسر الزينة بالوجه في قوله: ﴿زِينَتَهُنَّ﴾.

ولو ذهبنا على هذا ا لرأي في الاستشهاد والجواب لكان تقدير الآية هكذا: ولا يبدين وجوههن إلَّا ما ظهر من وجوههن!

وهذا لا قائل به، وتكاد لا تكون فائدة لمعناه.

والصواب: أن الذي فسر بالوجه والكفين- لا بالوجه فقط- هو لفظة: ﴿مَآ﴾ في قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾. وهي واقعة على الزينة الظاهرة. إذ الزينة منها باطن كالسوار للذراع، والدملج للعضد، والقرط للأُذن، والقلادة للنحر، والخلخال للساق، ومنها ظاهر كالكحل للعين، والخاتم للأصبع.

والزينة في الحقيقة هي هاته الأشياء المتزين بها ونحوها. فتعلق بها هذا الخطاب باعتبار محالها، فالمقصود محالها بدليل أنها إذا لم تكن في محالها لا يتعلق بها هذا الخطاب.

وقد جاء تفسير الزينة الظاهرة عن السلف مرة بالوجه والكف، ومرة بالكحل والخاتم، والثاني راجع للأول؛ لأن الوجه محل الكحل، والكف محل الخاتم، فالثاني فسر على حقيقة اللفظ، والأول على المراد.

ولما قال اللّه تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾. عمَّ اللفظُ الباطنةَ

والظاهرةَ، ولما قال: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾. خصَّ الظاهرة، فجاز إبداؤها، وبقيت الباطنة على المنع.

وأفادت الآية منع كشف العنق والصدر والساق والذراع وجميع الباطن، وأباحت كشف الظاهر، وهو الوجه والكفان؛ إذ هما ليسا بعورة من المرأة بإجماع[1].

فبان بهذا بطلان تفسير الأستاذ «الزينة» من ﴿زِينَتَهُنَّ﴾ بالوجه، وبطلان استدلاله بالآية على وجوب ستره؛ إذ هي بالعكس دالة على جواز إبدائه بحكم الاستثناء الصريح.

ونرى أن نزيد المقام تقريرًا وتوضيحًا بما ننقله عن إمامين كبيرين في الحديث والفتوى: الإمام الجصاص الحنفي، والقاضي عياض المالكي. ثم عن إمام دار الهجرة.

قال الجصاص[2] - وهو يريد: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ -:

«وقال أصحابنا: المراد الوجه والكفان؛ لأن الكحل زينة الوجه، والخضاب والخاتم زينة الكف، فإذ قد أباح النظر إلى زينة الوجه والكف فقد اقتضى ذلك لا محالة إباحة النظر إلى الوجه والكفين.

---

(١) في هذا الإجماع نظر، كيف والخلاف فيها قديم، كما في «مراتب الإجماع» (ص٥٣) لابن حزم وغيره. نعم، «على هذا أكثر أهل العلم» كما قال ابن عبد البر في «التمهيد» (٦/ ٣٦٤)، وهو الراجح دليلًا والأقوم قيلًا.

(٢) في «أحكام القرآن» (٣/ ٣١٥- ٣١٦).

ويدل على أن الوجه والكفين من المرأة ليسا بعورة- أيضًا- أنها تصلي مكشوفة الوجه واليدين، فلو كانا عورة لكان عليها سترهما كما عليها ستر ما هو عورة. وإذا كان كذلك جاز للأجنبي أن ينظر من المرأة إلى وجهها ويديها بغير شهوة».

وقال عياض:

«في هذا كله- وهو يعني: حديث نظر الفجأة[٢١٢]- عند العلماء حجة أنه ليس بواجب أن تستر المرأة وجهها، وإنما ذلك استحباب وسنة لها. وعلى الرجل غض بصره عنها»

إلى أن قال:

«ولا خلاف أن فرض ستر الوجه مما اختص به أزواج النبي ﷺ» اهـ.

من الإكمال بنقل المواق. ونقل صدره النووي(١) وأقره.

وفي «الموطأ»(٢):

«سئل مالك: هل تأكل المرأة مع غير ذي محرم منها أو مع غلامها؟

---

[٢١٢] صحيح:

أخرجه مسلم (٢١٥٩) وأبو داود (٢١٤٨) والترمذي (٢٧٨١) والنسائي في «الكبرى» (٩٢٣٣) والدارمي (٢/ ٢٧٨) وأحمد (٤/ ٣٥٨و٣٦١) وغيرهم عن جرير بن عبد الله قال:

«سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجاءة، فأمرني أن أصرف بصري».

وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(١) في «شرح صحيح مسلم» (١٤/ ١٣٩).

(٢) في (٤/ ٣١٦- بشرح الزرقاني). وتمام كلامه: «.. ويكره- أي تحريمًا كما قال الزرقاني- للمرأة أن تخلو مع الرجل ليس بينه وبينها حُرمة».

فقال: ليس بذلك بأس، إذا كان على وجه ما يعرف للمرأة أن تأكل معه من الرجال.

قال: وقد تأكل المرأة مع زوجها ومع غيره ممن يؤاكله أو مع أخيها على مثل ذلك».

فمالك يرى جواز مواكلة المرأة للأجنبي إذا لم تكن في خلوة معه، بأن كان ذلك بحضرة زوجها أو أخيها مثلًا. وهي تقتضي إبداء وجهها وكفيها للأجنبي؛ إذ ذلك لازم عند المواكلة، كما قاله الباجي وأقره[1].

فهذه النقول كلها مفيدة لما دلت عليه الآية من أن الوجه والكفين ليسا بعورة. وأنه لا يجب على المرأة سترهما.

نعم، نصَّ أكثر الفقهاء المتأخرين من جميع المذاهب على أن المرأة يجب عليها ستر وجهها إذا خشيت منها الفتنة، وهذا حكم عارض معلل بهذه العلة فيدور معها وجودًا وعدمًا[2].

ولذا لما كنا نتحقق الفساد بسفور نساء المدن والقرى- وحالتنا هي حالتنا- لا نرى لهن جواز السفور ما دامت هاته الحال، ونعرف نساء جهات في بادية قطرنا لا يسترن وجوههن وليس بهن فساد ولم تقع بهن من فتنة، فلما سئلنا عن سفورهن أجبنا بتركهن على حالهن أخذًا بأصل الجواز.

---

(١) في «المنتقى شرح الموطأ» (٧/ ٢٥٢).

(٢) فيه نظر، ويرده ما ثبت في السنة الصحيحة في قصة الفضل بن عباس رضي الله عنهما مع الخثعمية الحسناء، وتكراره نظره إليها وهو حاجّ! وكيف كان النبي صلى الله عليه وسلم يكتفي بصرف وجهه عنها، ولا يأمرها بأن تسدل على وجهها، وتأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز كما هو مقرر عند العلماء.

إننا بما كتبنا أردنا اعتراض عبارة الأستاذ، وبيان الحكم الأصلي لستر الوجه والكفين، والحكم العارض، وقد بيَّنا ذلك حسب المستطاع، وبقي الكلام على آية الإدناء التي ربما تظن معارضتها لآية الإبداء المتقدمة، وسنتكلم عليها في العدد الآتي - إن شاء اللَّه -[1].

* * *

- ٢ -

نُعيد اليوم - وقد عُدنا إلى تمام هذا الموضوع - ما كنا صرحنا به في القسم الأول من قولنا: «. . . . . فهذه النقول كلها مفيدة لما دلت عليه الآية من أن الوجه والكفين ليسا بعورة، وأنه لا يجب على المرأة سترهما.

نعم، نص أكثر الفقهاء المتأخرين من جميع المذاهب على أن المرأة يجب عليها ستر وجهها إذا خشيت منها الفتنة. وهذا حكم عارض معلل بهذه العلة فيدور معها وجودًا وعدمًا. ولذا لما كنا نتحقق الفساد بسفور نساء المدن والقرى - وحالتنا هي حالتنا - لا نرى لهن جواز السفور ما دامت هاته الحال. ونعرف نساء جهات في بادية قطرنا لا يسترن وجوههن وليس بهن فساد ولم تقع بهن من فتنة. سئلنا عن سفورهن أجبنا بتركهن على حالهن أخذًا بأصل الجواز».

نعيد هذا ليتقرر ما نريده عند قارئنا بجلاء تام.

قد عرفنا في القسم الأول من الكلام على آية الإبداء. وهي آية قوله

(١) الشهاب (ج٢، م٥) غرة شوال ١٣٤٧هـ- مارس ١٩٢٩م.

تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النُّور: الآية ٣١].

ونريد أن نتكلم في هذا القسم على آية الإدناء، وهي آية قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: الآية ٥٩].

وفي هذه الآية تفسيران أخذ الأستاذ بأحدهما، وهو مرجوح في نظرنا بما نقيمه من الأدلة على مرجوحيته.

وسنتكلم على الآية في ثلاثة مباحث.

المبحث الأول
في معنى الإدناء والجلابيب ومِن

الإدناء: من الدنوّ وهو القُرب. فالإدناء: التقريب. فـ ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ﴾ بمعنى: يقربن عليهن.

وأصل فعل «دنا» أن يتعدى بـ«من»، تقول: دنوت منه، وأدنيته منه. وإنما يتعدى بـ«على» إذا كان في الكلام معنى الإرخاء أو الضم كما في قوله تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا﴾ [الإنسان: الآية ١٤]. وكما في ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ﴾.

والجلباب- على اختلاف عبارات اللغويين في تفسيره- هو الثوب الأعلى الذي تجعله المرأة فوق رأسها وترسله على بدنها، كالملحفة ونحوها.

و(مِن) للتبعيض؛ لأن الذي تدنيه عليها من ناحية وجهها إنما هو بعض جلبابها.

فأفادت الآية طلب تقريب المرأة بعض جلبابها وإرخائها وضمه عليها من ناحية وجهها، وهذا محتمل لأن يكون بتغطية جميع الوجه، وبتغطية بعضه.

واختلاف المفسرين من السلف في معنى الآية دليل على وجود هذا الاحتمال.

وما نقله الأستاذ بالمعنى من «تفسير الزمخشري» هو أحد الوجهين المحتملين.

وأجود ما نقل عن أئمة العربية في تفسير الآية قول الكسائي: «يتقنعن بملاحفهن منضمة عليهن».

قال الزمخشري(١): «أراد بالانضمام معنى الإدناء».

والتقنع لا يقتضي ستر الوجه كله.

المبحث الثاني
في اختلاف المفسرين من السلف

في الآية قولان لهم، نقلهما ابن جرير في تفسيره الشهير:

الأول: هو أن يغطين وجوههن ورؤوسهن فلا يبدين منهن إلا عينًا واحدةً، وهذا قول عبيدة، وقول ابن عباس من طريق أبي صالح[٢١٣].

---

(١) في «الكشاف» (٣/ ٢٤٧).

[٢١٣] ضعيف:

أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٤٦) قال: حدثنا علي قال: ثنا أبو صالح قال: ثنا معاوية عن علي عن ابن عباس قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ﴾ [الأحزاب: الآية ٥٩]:

=

الثاني : أُمِرْنَ أن يشددنَ جلابيبهن على جباههن ، وهو قول قتادة ، وقول ابن عباس من طريق محمد بن سعد[٢١٤] .

المبحث الثالث
في الترجيح

قد مضت آية الإبداء مفيدة جواز إبداء الوجه والكفين على مقتضى ما تقدم من البيان ، وجاءت بعدها هذه آية الإدناء محتملة لطلب ستر الوجه كله كما في القول الأول . وتكون عليه معارضة لآية الإبداء المتقدمة ؛ تلك تبيح كشف

= «أمر اللَّه نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجةٍ أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ، ويبدين عينًا واحدة» .

وإسناده ضعيف ، فيه علتان :

الأولى : الانقطاع بين علي - وهو ابن أبي طلحة - وابن عباس ، فإنه لم يسمع منه بل لم يره .

والأخرى : ضعف أبي صالح واسمه عبد اللَّه بن صالح ، كاتب الليث ، وقد تقدم .

وشيخ الطبري هو علي بن داود القنطري ، ومعاوية هو ابن صالح الحمصي ، واللَّه أعلم .

وانظر «جلباب المرأة المسلمة» (ص٨٨) للألباني .

[٢١٤] ضعيف :

أخرجه الطبري أيضًا فقال : حدثني محمد بن سعد قال : ثني أبي ، قال : ثني عمي ، قال : ثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: الآية ٥٩] قال :

«كانت الحرة تلبس لباس الأمة ، فأمر اللَّه نساء المؤمنين أن يدنين عليهن من جلابيبهن ، وإدناء الجلباب : أن تُقَنّع وتشدَّ على جبينها» .

وإسناده ضعيف ، مسلسل بالضعفاء من آل العوفي ، وقد ترجم لهم أخونا الفاضل الشيخ علي رضا - حفظه اللَّه تعالى - في تحقيقه للجزء المفقود من «تهذيب الآثار» (١٠٢٦) للطبري فليراجعها هناك من شاء زيادة الاطلاع ، واللَّه الموفق .

الوجه، وهذه تحظره؛ ومحتملة لطلب الإرخاء والضم لبعض الجلباب على بعض الوجه وهو الجبين، كما في القول الثاني، ولا تكون حينئذ معارضة لآية الإبداء.

وحملها على ما لا تكون به معارضة بين الآيتين- وهو الوجه الثاني- أرجح وأولى إن لم يكن متعينًا.

ثم إن قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾. يفيد أن علة طلب الإدناء هي تمييزهن عن الإماء اللاتي كن يمشين حاسرات، أو بقناع مفرد، فيتعرض لهن أهل الشطارة والسفهاء، وفي الإدناء على الوجه الثاني في الآية تحصيل لهذا المقصود من التمييز، فحملها عليه مناسب للعلة، وسالم من المعارضة فهو المختار.

وبهذا التقرير تكون كل آية مفيدة معنى غير الذي أفادته الأخرى، فآية الإبداء أفادت طلب ستر الأعضاء إلا الوجه والكفين، وآية الإدناء أفادت طلب الستر الأعلى الذي يحيط بالثياب ويعم الرأس وما والاه من الوجه، وهو الجبين، وينضم على البدن؛ ليحصل به تمييز الحرائر بالمبالغة في التستر والاحتشام. وهذا هو المناسب لجوامع كلم القرآن.

والله أعلم[1].

* * *

(١) الشهاب (ج٣، م٥) غرة ذي القعدة ١٣٤٧ هـ - أبريل ١٩٢٩م.

حول حديث الشيخ ابن يوسف في مسألة الحجاب ومجلة «الشهاب»

تحت هذا العنوان جاءتنا مقالة بإمضاء الشيخ «محمد المختار بن محمود[1] المدرس بجامع الزيتونة» فسرَّنا أن تعرَّض أحدُ أساتذة جامع الزيتونة للبحث في هذا الموضوع، وسرَّنا أن ننشر على قراء «الشهاب» بحثًا بقلم أستاذ زيتوني يرون فيه كيف تُقام الأدلة وكيف تُنقَض، وكيف يبحث العلماء بالطريق الفني المبني على النظر والاستدلال، المنزه عن الحشو واللغو وجرح الخصم. فطالعنا المقال بإمعان حتى أتينا على آخره، فإذا بنا نخرج منه بغير ما كنا نعتقده فيه!

لم يَنْفِ حضرةُ الشيخ نقلًا من نقولنا، ولا نقض واحدًا من أدلتنا، وسلك طريق المعارضة بكلام المتأخرين الذي لم نغفل عنه في كتابتنا. ولو كان هذا حدَّ الأمر لهان، ولنشرنا مقاله وردنا عليه.

ولكن حضرته مزج كلامه بتنقيص خصمه، وتحقير آرائه، بمثل قوله في طالعة مقاله: «وحيث كان الاعتراضان أوهى من بيت العنكبوت، فإننا نصطلح على تسميتهما: شبهتين».

ومثل قوله: «فقد تأيَّد عندي أن الكاتب تلهيه محبة الاعتراض عن التوصل

(١) توفي رَحِمَهُ اللَّهُ سنة ١٩٧٣م. انظر ترجمته في «مشاهير التونسيين» (ص٥٧٦)، و«أعلام من الزيتونة» (ص٣٠١- ٣٣٥) لمحمود شمام.

إلى حقائق الأغراض».

ومثل قوله- عن استدلالنا بنقل كلام الأئمة المتقدمين-: «وكأن الكاتب أراد أن يحدث بهذا الصنيع تشويشًا وشغبًا يوقعان العامة في الشكوك التي كثيرًا ما أوقعهم فيها عدم تفقه العلماء».

غير هذا كنا ننتظر من فضيلة الأستاذ في أدبه ومكانته، وغير هذا كان به أنسب، وإلى الحق وتحقيقه أقرب.

وبعد، فينبغي أن يذكر حضرته شرط نشر المقالات في باب: «المباحثة والمناظرة» الذي بيناه في الجزء الأول من «الشهاب» وهو أننا ننشر منها ما يكون يرمي إلى استجلاء الحقيقة من طريق الدليل. وما نقلناه للقراء من مقال فضيلته هو من طريق التنقيص والتحقير، فلذا رفضنا نشر مقاله.

ولفضيلته أن يحرر مقالًا خاليًا عن هذا ومثله، مقتصرًا فيه على ما يتعلق بنفي صحة نقل، أو نقض دليل، أو معارضة صحيحة، ونحن نعده بنشره شاكرين[1].

* * *

(١) الشهاب (ج٤، م٥) غرة ذي الحجة ١٣٤٧هـ - ماي ١٩٢٩م.

لا فضل بالمال لمن كان ذا فضل فيه

الفضل: هو الزيادة.

والفاضل: هو الذي زاد على غيره.

والمفضول: هو الذي زاد عليه سواه.

والتفضيل: هو الزيادة لغيرك أو اعتقادك الزيادة فيه.

واللَّه تعالى قد فضَّل بين عباده- بحكمته- في العطاء؛ في الجسم، في العلم، في العمل، في المال، فزاد بعضهم على بعض في ذلك.

وفضل بينهم- بعدله- في القدر والمنزلة دنيا وأخرى كذلك.

ومما يكون فيه التفضيل من أنواع العطاء ما جعله اللَّه سببًا للتفضيل في القدر والمنزلة، ومنه ما لم يجعله سببًا.

فالفضل في الجسم، والفضل في العلم، سببان في فضل القدر والمنزلة.

وبهما فضل طالوت على بني إسرائيل واختير عليهم مَلِكًا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةً فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٤٧].

وليس المراد هنا من الجسم كبره و ضخامته، بل المراد صحته وقوته بقوة فؤاده، فإن ضخامة الجسم مع السقم أو ضعف القلب بلاء على صاحبها.

وفضل القدر والمنزلة المتسبب عن فضل الجسم والعلم هو فضل يستحق به التقديم في هذه الدنيا، وأما نيل الفضل بهما في منازل الأخرى فمتوقف على العمل بهما.

والرجل فضِّل على المرأة في قوة العقل وقوة البدن، وكانت قوتاه هاتان سببين في فضله في القدر والمنزلة والتقديم عليها في هذه الدنيا.

قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النِّساء: الآية ٣٤].

وظاهر التسبب هنا من حرف الباء.

وأما الفضل في العمل، فإنه سبب في فضل القدر والمنزلة دنيا وأخرى.

قال تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النِّساء: الآية ٩٥].

وتعليق الحكم، وهو التفضيل بالمشتق، وهو المجاهدين، مؤذن بعلية ما منه الاشتقاق، وهو الجهاد، فيستفاد من سببيته في الفضل والتقديم في القدر والمنزلة.

وأما المال فلم يكن- أبدًا- سببًا في فضل القدر والمنزلة، ولذا قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ﴾ [النّحل: الآية ٧١]، فجعل التفضيل فيه، فيزيد فيه حظ بعض الناس على بعض، ولم يقل: «بالرزق» لأن الرزق ليس سببًا لتفاضل الناس في الأقدار والمنازل، لا دنيا ولا أخرى؛ لأن منازل الآخرة يتفاضلون فيها بما قدَّموا من صالح الأعمال، ومنازل الدنيا يتفاضلون فيها- على الحق والعدل- بالكفاءات والأخلاق والأعمال.

وقد رد اللَّه- تعالى- على بني إسرائيل لما قالوا في طالوت: ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٤٧]. منكرين استحقاقه للملك، بأنه ليس من بيت الملك ولا بذي مال، لاعتقادهم أن الفضل بمنزلة الملك، إنما يتسبب عن النسب والمال.

ردَّ اللَّه- تعالى- عليهم بقوله تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٤٧]. ليبين لهم أن منازل الفضل في هذه الدنيا بالكفاءات الشخصية، لا بما هو خارج عنها من النسب والمال.

فالفضل في منازل الدنيا والآخرة، إنما هو بما هو منك من جسمك وأخلاقك وعلمك وعملك، لا بما هو باين عنك، ومباين لك من هذا الحطام، حتى إذا حصلته من حلِّه، وأنفقته في محله، كان لك الفضل العظيم بما كان لك فيه من أعمال[1].

* * *

(١) الشهاب (ج١١، م٥) غرة رجب ١٣٤٨هـ - ديسمبر ١٩٢٩م.

العرب في القرآن

-١-

«الخطاب الذي ارتجله الأستاذ عبد الحميد بن باديس رئيس «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» في اجتماعها العام بنادي «الترقي» لهذه السنة. وموضوعه: «العرب في القرآن» وقد حافظنا على معانيه وعلى الكثير من ألفاظه، وهيهات هيهات لما نود من نقله للقراء بألفاظه وجمله، فإنه خطاب عظيم في موضوع خطير لا يضطلع به غير الأستاذ في علمه بفنون القرآن وغوصه على مغازيه البعيدة ونفاذه في معانيه العالية.

وعلى كُلٍّ فإننا نرجو أننا قدمنا الموضوع للقراء كامل المعاني وحسبنا هذا».

* * *

حق على كلٍّ من يدين بالإسلام ويهتدي بهدي القرآن أن يعتني بتاريخ العرب ومدنيتهم، وما كان من دولهم وخصائصهم قبل الإسلام، ذلك لارتباط تاريخهم بتاريخ الإسلام، ولعناية القرآن بهم، ولاختيار اللَّه لهم لتبليغ دين الإسلام وما فيه من آداب وحكم وفضائل إلى أمم الأرض.

فأما أنهم قد ارتبط تاريخهم بالإسلام فلأنَّ العربَ هُيِّئوا تاريخيًّا لأجل أن ينهضوا بأعباء هذه الرسالة الإسلامية العالمية، ولأن اللَّه الحكم العدل الذي يضع الأشياء في مواضعها بحكمة ويأمرنا أن ننزِّل الناس منازلهم في شريعته؛ ما كان ليجعل هذه الرسالة العظيمة لغير أمة عظيمة؛ إذ لا ينهض بالجليل من

الأعمال إلا الجليل من الأمم والرجال. ولا يقوم بالعظائم إلا العظام من الناس.

وأما عناية القرآن بالعرب، فلأجل تربيتهم؛ لأنهم هم الذين هُيِّئُوا لتبليغ الرسالة، فيجب أن يأخذوا حظهم كاملًا من التربية قبل الناس كلهم، ولهذا نجد كثيرًا من الآيات القرآنية في مراميها البعيدة، إصلاحًا لحال العرب، وتطهيرًا لمجتمعهم، وإثارةً لمعاني العزة والشرف في نفوسهم.

ومن هذا الباب الآيات التي يذكر بها العرب أن القرآن أنزل بلسانهم مثل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: الآية ٣]، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: الآية ٢].

والذين يعقلون القرآن قبل الناس كلهم هم العرب.

ومن أول القصد إلى العرب والعناية بلسانهم وتنبيههم إلى أن القرآن أنزل بلسانهم دون جميع الألسنة؛ جلبًا لهم حتى يعلموا أنه أنزل لهم وفيهم قبل الناس كلهم.

إنَّ العرب قوم يعتزون بقوميتهم، وهم قوم ذوو عزةٍ وإباءٍ- خصوصًا في الجاهلية- فكان من حكمة القرآن أن يجلب نافرهم ويقرِّب بعيدهم بأن هذا القرآن أنزل بلسانهم.

ومن هذا الباب توسعة اللَّه في قراءة القرآن على سبعة أحرف[1]، وهي

---

(١) نزول القرآن على سبعة أحرف ثابت في الأحاديث الصحيحة المستفيضة بل المتواترة عن النبي ﷺ، وقد أورد جملة طيبة منها الحافظ ابن كثير - رحمه اللَّه تعالى- في «فضائل القرآن» ذيل كتابه «تفسير القرآن العظيم».

اللَّهجات التي تجتمع على صميم العربية وتختلف في غير ذلك.

وسَّع عليهم في ذلك لتشعر كل قبيلة أن هذا القرآن قرآنها؛ لأن اللسان الذي نزل به لسانها، وهذا هو ما يقصده القرآن.

ومن هذا الباب- أيضًا- إشعارهم بأن صاحب الرسالة منهم ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: الآية ١٢٨] الآية.

فمن الطبيعة العربية الخالصة أنها لا تخضع للأجنبي في شيء؛ لا في لغتها ولا في شيء من مقوماتها.

ولذلك نرى القرآن يذكرها بالشرف، ويحدثها كثيرًا عن أمة اليهود التي لا يناديها إلا بـ ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾. تذكيرًا لها بجدها الذي هو مناط فخرها، كل ذلك لأنها أمة تحيا بالشرف والسمو والعلو- ويذكرها بالذكر- وهو في لسانها الشهرة الطائرة والثناء المستفيض.

يقول تعالى لنبيه، وهو يعني القرآن: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ﴾ [الزخرف: الآية ٤٣- ٤٤].

والأنبياء لم يبعثوا إلا في مناسب الشرف ومنابع القوة ومنابت العزة ليبنى المجد الطريف من الدين على المجد التليد من أحساب الأمة وأنسابها وشرفها وعزتها، وما كان لها من مناقب تلتئم مع أصول الدين.

فقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ﴾. يعني: أنه شرف لكم. وقومه هم العرب لا محالة.

ويقول بعد ذلك: ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزّخرُف: الآية ٤٤]. ليشعرهم أن عليهم

من الواجبات في مقابلة هذا الشرف الذي أعطوه ما ليس على غيرهم، ولا شك أن ثمن المجد غال.

وهذا الشرط الذي ذكره اللّٰه وذكر به العرب هو شرط واجب الاعتبار والتنفيذ.

لأن الأمة التي لا تؤدي ثمن المجد لا تحافظ عليه. ثم هي أمة لا يعتمد عليها في النهوض بنفسها ولا بغيرها.

وإنما ذكرهم اللّٰه بذلك لينهضوا بالأمم على ذلك الأساس، وهو إحياء الشرف الإنساني في نفوسها، وليعاملوها على ذلك الأساس بالعدل والرحمة والتكريم.

وما ذكَّر القرآن العرب بتكريم بني آدم وخلقهم في أحسن تقويم إلا ليعاملوهم على هذه القاعدة التي وضعها الخالق. وأن أعداء البشرية اليوم وقبل اليوم يعمدون إلى قتل الشرف من النفوس ليستذلوا من هذا النوع ما أعز اللّٰه، ويهينوا منه ما كرم اللّٰه.

والخلاصة: أن عناية القرآن بإحياء الشرف في نفوس العرب ضرورية لإعدادهم لما هُيئوا له من سياسة البشر.

وبهذا نستعين على فهم السرِّ والحكمة في اختيار اللّٰه للعرب للنهوض بهذه الرسالة الإسلامية العالمية، واصطفائه إياهم لإنقاذ العالم مما كان فيه من شرٍّ وباطل.

وهذا السرُّ هو أنهم ما كانوا عليه من شرف النفس وعزتها والاعتداد بها،

هو الذي هيَّأهم لذلك، ولو كانوا أذلاء لما تهيئوا لذلك العمل العظيم.

وانظروا واعتبروا ذلك بحال أمة هي أقرب أمة إلى العرب، وهي أمة إسرائيل، فإنها لم تكن مهيأة لإنقاذ غيرها. وإنما هيئت لإنقاذ نفسها فقط؛ لأن مقوماتها النفسية لم تصل بها إلى تلك الدرجة العليا. ولذلك عانى موسى معها ما عانى، مما قصه القرآن علينا؛ لنعتبر به في الحكم على الأمم.

ولا حاجة إلى التطويل في الحديث عن بني إسرائيل، فإن القرآن قد فصَّل لنا شؤونهم تفصيلًا، وإنما أنبهكم على هذا الفارق الجوهري بين الأمتين.

وقد تقولون: إن بني إسرائيل اختارهم اللَّه وفضلهم على العالمين.

والجواب الذي يشهد له الواقع: أنه اختارهم لينقذوا أنفسهم من استعباد فرعون، وليكونوا مظهرًا للنبوة والدين في أول أطوارهما، وأضيق أدوارهما، وهذا هو الواقع، فإن الأمة العربية استطاعت أن تنهض بالعالم كله، وأن تظهر دين اللَّه على الدين كله، و أما بنو إسرائيل فإنهم ما استطاعوا أن ينهضوا حتى بأنفسهم، وإنما نهض بهم موسى نهضة قائمة على الخوارق، وما نهضوا بأنفسهم إلا بعد موسى بزمن مع اتصال حبل النبوة فيهم ومغاداة الوحي الإلهي ومراوحته لهم.

فالأمتان- العربية والإسرائيلية- متمايزتان بالأثر، ومتمايزتان بحديث القرآن عنهما.

وإذا تلمسنا الحكمة المقصودة من اختيار اللَّه لبني إسرائيل، مع أنهم غير مستعدين للقيام بنهضة عالمية عامة، وجدنا تلك الحكمة في القرآن مجلوة في أبلغ بيان، في قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ

وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: الآية ٥- ٦].

فالسرُّ المتجلي من هذه الآية هو أن اللَّه أراد بما صنع لبني إسرائيل وبما قال لهم أن يعلم هذا العالم الإنساني من سنن اللَّه في كونه ما لم يكن يعلم. وهو إخراج الضد من الضد، وإخراج الحيِّ من الميت، وإنقاذ الأمة الضعيفة- التي لا تملك شيئًا من وسائل القوة الروحية ولا من وسائل القوة المادية- من استعباد الأقوياء المتألهين.

فهو مثل عملي ضربه اللَّه لخلاص أضعف الضعفاء من مخالب أقوى الأقوياء، وجعل المستضعفين أئمة وارثين وسادة غالبين، والتمكين لهم في الأرض، وإراءة الأقوياء المستعلين في الأرض عاقبة باطلهم لكيلا ييأس المستضعفون في الأرض من روح اللَّه.

وقد قال موسى لبني إسرائيل؛ تمكينًا لهذا المعنى في نفوسهم: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٢٩].

وإلى هذا المثل العملي تشير الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٤٣].

وأما العرب فإنهم اختيروا لوظيفة عالمية عامة لما فيهم [من][1] شرف

---

(١) سقطت من الأصل.

متأصل واستعداد كامل وصفات مهيأة.

ولهذا كان منبع الرسالة بمكة، وشأنها عند العرب هو شأنها، فهم مجمعون على تقديسها، ولأنها في وسط الجزيرة وصميمها.

ووسط الجزيرة بعيد كل البعد عن المؤثرات الخارجية في الطباع والألسنة، تلك المؤثرات التي يجلبها الاحتكاك بالأجانب والاختلاط بهم، وكل أطراف الجزيرة لم تخل من لوثة في الطباع وعجمة في الألسنة جاءت من الاختلاط بالأجنبي، ولا أضر على مقومات الأمم من العروق الدساسة.

فاليمن دخلتها الدخائل الأجنبية من الحبشة والفرس على طباع أهلها وألسنتهم، والشام ومشارفه كانت مشرفة على الاستعجام، والعراق والجزيرة لم يسلما من التأثر بالطباع الفارسية، فكانت هذه الأطراف تنطوي على عروبة مزعزعة المقومات، ولم يحافظ على الطبع العربي الصميم، إلا صميم الجزيرة، ومنه مكة التي ظهر فيها الإسلام.

وهذا الوسط وإن كان عريقًا في الصفات التي تسمى العصر لأجلها جاهليًّا. ولكنه بعيدًا عن الذل الذي يقتل العزة والشرف من النفوس.

والجاهل يمكن أن تعلِّمه، والجافي يمكن أن تهذِّبه، ولكن الذليل الذي نشأ على الذل يعسر أو يتعذر أن تغرس في نفسه الذليلة المهينة عزَّةً وإباءً وشهامةً تُلحقه بالرجال.

هذا توجيه موجز مقرّب لاختيار اللَّه تعالى العرب للنهوض بالرسالة العامة.

وشيء آخر يرتبط بهذا، وهو أن اللّٰه كما اختار العرب للنهوض بالعالم؛ كذلك اختار لسانهم ليكون لسان هذه الرسالة وترجمان هذه النهضة.

ولا عجب في هذا، فاللسان الذي اتسع للوحي الإلهي لا يضيق أبدًا بهذه النهضة العالمية مهما اتسعت آفاقها وزخرت علومها، وهذا جانب لا أتحدث عنه، فقد كفانا مؤنته أخونا الأستاذ محمد البشير الإبراهيمي في محاضرته[١] التي سمعتموها بالأمس[٢].

* * *

- ٢ -

أيها الإخوان:

جعلنا عنوان الخطاب «العرب في القرآن» وقلنا في أول كلمة منه: أن العناية بالعرب حقٌّ على كلِّ مسلم لارتباط تاريخهم بتاريخ الإسلام.

فما هو حظ العرب من القرآن من الناحية التاريخية بعد أن سمعتم هذه التوجيهات العامة؟

العرب مظلومون في التاريخ، فإن الناس يعتقدون ويعرفون أن العرب كانوا همجًا لا يصلحون لدنيا ولا دين حتى جاء الإسلام فاهتدوا به فأخرجهم من الظلمات إلى النور.

هكذا يتخيل الناس العرب بهذه الصورة المشوهة، ويزيد هذا التخيل

(١) وقد نشرت في مجلة «الشهاب» (ج١، م١٥) الصادر غرة محرم سنة ١٣٥٨هـ.
(٢) الشهاب (ج١، م١٥) غرة محرم ١٣٥٨هـ - فيفري ١٩٣٩م.

رسوخًا ما هو مستفيض في آيات القرآن من تقبيح ما كان عليه العرب، ليحذرنا من جاهلية أخرى بعد جاهليتهم.

والحقيقة التي يجب أن أذيعها في هذا الموقف هي أن القرآن وحده هو الذي أنصف العرب.

والناس بعد نزول القرآن قصروا في نظرتهم التاريخية إلى العرب، فنشأ ذلك التخيل الجائر عن القصد.

والتاريخ يجب أن لا يُنظَر من جهة واحدة، بل يُنظَر من جهات متعددة، وفي العرب نواح تُجتبى، ونواح تُجتنب، وجهات تُذم وتُقبَّح، وجهات يُثنى عليها وتمدح.

وهذه هي طريقة القرآن بعينها. فهو يعيب من العرب رذائلهم النفسية كالوثنية، ونقائصهم الفعلية كالقسوة والقتل.

وينوِّه بصفاتهم الإنسانية التي شادوا بها مدنياتهم السالفة واستحقوا بها النهوض بمدنية المدنيات.

ولنذكر عادًا فهي أمة عربية ذات تاريخ قديم ومدنية باذخة، ذكرها القرآن، فذكرها بالقوة والصولة وعزة الجانب، ونعى عليها الصفات الذميمة التي تنشأ عن القوة، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فُصّلَت: الآية ١٥].

فالنظرة التاريخية المجردة في هذه الآية وفيما ورد في موضوعها تُرينا أنَّ عادًا بلغت من القوة والعظمة مبلغًا لم تبلغه أمة من أمم الأرض في زمنها، حتى

إن اللَّه- جلَّ شأنه- لم يتحدَّ قولهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، إلا بقوته الإلهية التي يُذعن إليها كل مخلوق، ولو كانت في أمم الأرض إذ ذاك أمة أقوى منهم لكان الأبلغ أن يتحداهم بها، وأن أمة تقول هذه الكلمة بحالها أو مقالها لهي أمة معتدَّة بقوتها وعظمتها.

ومن هذه الآية وحدها نستفيد أن عادًا كانت أشد الأمم قوة، وأنها ما بلغت هذه الدرجة من القوة إلَّا بمؤهلات جنسية طبيعية للملك وتعمير الأرض، وأن تلك المؤهلات فيها وفي غيرها من شعوب العرب هي التي أعدتهم للنهوض بالرسالة الإلهية.

وأنَّ القرآن لا ينكر عليهم هذه المؤهلات، وإنما ينكر عليهم لوازمها، ولا ينكر عليهم القوة والعظمة، وإنما ينكر عليهم أن يجعلوها ذرائع للباطل والبغي ومحادة اللَّه، بدليل قوله لهذه الأمة: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هُود: الآية ٥٢].

فهو يضمن لهم أنهم إن آمنوا وعملوا الصالحات يزيد قوَّتهم تمكينًا وبقاء.

ومحال أن ينكر القرآن على الناس القوة، وهو الداعي إليها، والمنفر من الضعف، وإنما شرع القرآن بجنب الدعوة إلى القوة أن تكون للحق وللخير وللرحمة والعدل.

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [الشعراء: الآيات ١٢٨- ١٣١].

فإن هذه الآية- زيادة عن إفادتها لمعنى ما قدمناه- تكشف لنا نواحي من

تاريخ هذه الأمة العربية، ومبلغ مدنيتها وتعميرها، فهي تدل على أنهم كانوا بصراء بعلم تخطيط المدن والأبنية، وهو علم لا يستحكم إلا باستحكام الحضارة في الأمة، ومأخذ هذا من قوله: ﴿بِكُلِّ رِيعٍ﴾.

والآية في قوله: ﴿ءَايَةً﴾. هي بناء شامخ يدل على قوتهم، أو هي آية هادية للسائرين، وهي على كل حال بناء عظيم يدل على عظمتهم وقوتهم.

وما زالت عظمة البناء تدل على عظمة الباني، ولم ينكر عليهم نبيهم نفس البناء الذي هو مظهر القوة، وإنما أنكر عليهم الغاية المقصودة لهم من ذلك البناء الشامخ، فمحط الإنكار قوله: ﴿تَعْبَثُونَ﴾.

ولا شك أن كل بناء شامخ لا يكون لغاية شريفة محمودة فهو عبث ولهو وباطل.

والمصانع يقول المفسرون أنها مجاري المياه أو هي القصور، وعلى القولين فهي دليل على معرفتهم بفن التعمير علمًا وعملًا، وبلوغهم فيه مبلغًا عظيمًا، فهي من شواهدنا على ما سقنا الحديث إليه.

ولكن ليت شعري ما الذي صرف المفسرين اللفظيين عن معنى المصنع اللفظي الاشتقاقي؟!

والذي أفهمه ولا أعدل عنه هو أن المصانع: جمع مصنع، من الصنع، كالمعامل من العمل، وإنها مصانع حقيقية للأدوات التي تستلزمها الحضارة ويقتضيها العمران.

وهل كثير على أمة توصف بما وصفت فيه في الآية- أن تكون لها مصانع

بمعناها العرفي عندنا؟

بلى، وإنَّ المصانع لأول لازم من لوازم العمران، وأول نتيجة من نتائجه.

ولا أغرب من تفسير هؤلاء المفسرين للمصانع إلا تفسير بعضهم للسائحين والسائحات بالصائمين والصائمات.

والحق أن السائحين هم الرحالون والرواد للاطلاع والاكتشاف والاعتبار، والقرآن الذي يحثّ على السير في الأرض والنظر في آثار الأمم الخالية حقيقٌ بأن يحشر السائحين في زمرة العابدين والحامدين والراكعين والساجدين، فربما كانت فائدة السياحة أتم وأعم من فائدة بعض الركوع والسجود.

ولا يقولنَّ قائلٌ: إذا كانت المصانع ما فهمتم، فلماذا يقبحها لهم وينكرها عليهم؟

فإنه لم ينكرها عليهم لذاتها، وإنما أنكر عليهم غاياتها وثمراتها، فإن المصانع التي تشيد على القسوة، والقسوة لا تحمد في مبدأ ولا غاية.

وأي عاقل يرتاب في أن المصانع اليوم هي أدوات عذاب لا رحمة، ووسائل تدمير لا تعمير، فهل يحمدها على عمومها، وإن كانت دلائل حضارة ومدنية؟

ومن محامد المصانع أن تشاد لنفع البشر ولرحمتهم، ومن لوازم ذلك أن تُراعى فيها حقوق العامل على أساس أنه إنسان لا آلة.

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ .

لا بد لكل أمة تسود وتقوى من بطش، ولكن البطش فيه ما هو حق، بأن يكون انتصافًا وقصاصًا وإقامة لقسطاس العدل بين الناس، وفيه ما هو بطش الجبارين.

والجبار هو الذي يجبرك على أن تعمل بإرادته لا بإرادتك، فبطشه إنما يكون انتقامًا لكبريائه وجبروته، وإرضاء لظلمه وعتوِّه، وتنفيذًا لإرادته الجائرة التي لا تُبنى على شورى، وإنما تبنى على التشهي وهوى النفس، لذلك لم ينقم منهم البطش لأنه بطش، وإنما نقم منهم بطش الجبابرة الذي كلّه ظلم.

وفي القرآن ما هو كالتتمة لبحثنا عن حضارة العرب، وكالعلاقة لحضارة عاد بعينها، وهي حكاية عاد إرم ذات العماد.

فهذا الوصف البليغ الذي نقرؤه في «سورة الفجر» صريح بألفاظه ومعانيه في أنه وصف لحضارة عمرانية لا نظير لها.

فالعماد لا تكون إلا في القصور والأبنية الباذخة والمدن المخططة على نظام محكم، وقد قال تعالى، وهو العالم بكل شيء، إنه ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ [الفجر: الآية ٨] .

ومدينة هذا وصفها لا تشيدها إلا أمة لا نظير لها في القوة. وآثار الحضارة يتبع بعضُها بعضًا في الضخامة والعظم.

والوصف القرآني لها، وإن سيق للاتعاظ بعاقبتهم، يدل الباحث التاريخي على أنهم بلغوا في الحضارة غاية لا وراءها. وهم أمة عربية.

فهذه المدينة شيدت في جزيرة العرب لا محالة، وإن الأقرب في التذكير بهم والاتعاظ بمصيرهم أن تكون الرؤية في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ [الفجر: الآية ٦]. علمية؛ لأن التذكير عام لمن تتيسر له رؤية العين، ولمن لا تتيسر له.

ولو ائتمرت الأمم الإسلامية بأوامر القرآن لنشأ فيها رواد يرودون الجزيرة ويجوبون مجاهلها، ولو فعلوا لأمكن أن يعثروا على آثار هذه المدينة في أرض عاد وهي معروفة، ويجمعوا بين الرؤية البصرية والرؤية العلمية، وبين العلم والاتعاظ.

وإننا لا نعبأ في مقام البحث العلمي بما حفَّ هذه الحكاية من أساطير، ولا بما وقع فيه شيخ المؤرخين ابن خلدون حين تعرَّض لنقض تلك الأساطير[1].

* * *

- ٣ -

وأمة أخرى من الأمم العربية وهي ثمود: وهي أمة عربية نلعنها بلعن القرآن لها، ولكننا نذكرها بما ذكرها به القرآن من قوة وتعمير وحضارة.

فصالِحٌ رسول هذه الأمة يقول في دعوتها إلى اللّه وتعريفها بنعمه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هُود: الآية ٦١].

فأمة -أية أمة- لا تعمر الأرض إلا إذا ملكت وسائل التعمير، وهي كثيرة، ومجموعها هو ما نسميه الحضارة أو المدنية.

---

(١) الشهاب (ج٢، م١٥) صفر ١٣٥٨هـ - مارس ١٩٣٩م.

وقد كشفت لنا عن هذا الاستعمار الثمودي عدة آيات بليغة الوصف، ولكن أبلغها وصفًا وأدقها تصويرًا قوله تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ [الشعراء: الآيات ١٤٦- ١٤٩].

أما المغزى الذي سيقت هذه الآية لأجله فهو النفي عليهم. كيف يستعينون بنعم اللَّه التي يسَّرها لهم على الكفر به؟ وإنذارهم أن الكفر بها وبمؤتيها سيكون سببًا في زوالها.

وفي ضمن هذا عرفنا حالتهم التي كانوا عليها في تعمير الأرض. وهي حالة أمة بلغت النهاية في الحضارة المادية وفنونها؛ من زرع الأرض، وتلوينها بأصناف الشجر منظمة، وتقسيم المياه على تلك الغروس إلى ما يستلزمها.

كل ذلك من علم بحال الأرض وطبائعها، وأحوال الأشجار المغترسة وطبائعها، وأحوال الفصول الزمنية، وأحوال الجو وأحوال التلقيح والآبار والجني، وعلم بأصناف التمتع من مناظر ومجالس ومقامات ومآكل. ثم القيام على حفظ ذلك العمران من إفساد الأيدي السارقة، وكل هذا مما يستلزمه وصف القرآن لحالهم لأجل تذكيرهم والتذكير بهم.

وقد ذكرهم القرآن في مواضع بإتقانهم لنحت الحجر، والشجر والحجر آيتا الحضارة المبصرتان، ومن يعرف الحضارة الرومانية بهذا الوطن يعرف أنها ما قامت إلَّا على نحت الحجر وغرس الشجر.

وإنَّ نحت الحجر ليستدعي حاسَّة فنيَّة خاصَّة، ويستدعي مع ذلك قوة بدنية، وقد نعتهم القرآن في نحتهم للحجر بحالة ملابسة، فوصفهم مرة بأنهم

آمنون، ومرة بأنهم فرهون، والفاره: هو الذي يعمل بنشاط وخفة، ولا يأتيه ذلك إلَّا من خبرته بما يعمل، وعلمه بدقائقه واعتياده له.

ومعنى هذا أن أصول هذه الصناعة التي اشتهر بها المصريون القدماء والرومان قد رسخت فيهم، ولكن التاريخ المنقول ظلم العرب وبخسهم حقهم كما قلتُ لكم في طالعة الخطاب.

هاتان أمتان من الأمم العربية أثبت القرآن حالهما، فكان لنا مصدرًا تاريخيًّا معصومًا في إثبات حضارة الشعوب العربية التي بزَّت فيها الأمم.

ولننتقل الآن إلى ناحية أخرى من نواحي الجزيرة وهي اليمن التي عرفها اليونان وغيرهم. وعرفوا المدنيات التي قامت فيها، فسموها بالعربية السعيدة.

وإننا إذا انتقلنا إلى هذه الناحية من الجزيرة نجد العز القدموس(١) والمجد الباذخ والماضي الزاهر لهذه الأمة التي نفتخر بالانتساب إليها، ونباهي الأمم بمدنياتها بالحق والبرهان.

وإننا في حديثنا عن اليمن لا نخرج عن شواهد القرآن.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا

(١) أي: العظيم.

فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: الآيات ١٥- ١٩].

ليس المقام مقام تبسط في وجوه البلاغة المعجزة التي تنطوي عليها هذه الآيات، فقد استوعبت تاريخ أمة في سطور. وصورت لنا أطوارًا اجتماعية كاملة في جمل قليلة أبدع تصوير، ووصفت لنا بعض خصائص الحضارة والبداوة في جمل جامعة لا أظن غير اللسان العربي يتَّسع لحملها كقوله: ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾. وكقوله: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾. وكقوله: ﴿بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾. حتى إذا وصل القارئ إلى مصير هذه الأمة التي سمع ما هاله من وصفها واجهه قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾. وأدركه الغرق في لجج البلاغة الزاخرة.

اللَّهمَّ إنَّ السلامة في الساحل، وإننا لا نعدو موضوعنا، وهو تصور حضارة العرب مما يحكيه القرآن عنها في معرض بيان مصائرها حين كفرت بأنعم اللَّه وبرسله.

الآيات صريحة في أن مدنية سبأ كانت مدنية زاهرة مستكملة الأدوات، ومن قرأ القرآن بعقله فهم ما نفهم من آياته، وعلم كما نعلم أن مدن سبأ كانت عامرة بالبساتين عن يمين وشمال.

ويمين مَن؟ وشمال مَن؟ إنه لا شك يمين السائر في تلك المدن أو الأراضي وشماله.

ومعنى هذا أن طرق السير كانت منظمة تبعًا لتنظيم الغروس عن يمينها وشمالها.

والاكتشافات الأثرية اليوم التي كان لليمن حظ ضئيل منها - وإن كان على غير يد أهلها - تشهد بأن أمم الحضارات اليمنية كانوا من أسبق الأمم إلى بناء السدود المنيعة لحصر المياه والانتفاع بها في تعمير الأرض.

وإقامة السدود لا تتم بالفكر البدوي والعمل اليدوي، بل تتوقف على علوم فكرية منها الهندسة، والهندسة تتوقف ثمراتها على علوم كثيرة، وعلوم العمران كعروق البدن يمد بعضها بعضًا، فهي مترابطة متماسكة متلاحمة، فما يكون السبأيون بلغوا في الهندسة مبلغًا أقاموا به سد مأرب حتى يبلغوا في غيره من علوم العمران ذلك المبلغ.

ولكن لما كفروا بأنعم اللَّه، واستعملوها في ما يسخطه، سلط اللَّه عليهم من الأسباب ما خرب عمرانهم وأباد حضاراتهم، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ . . . إلخ.

ويقول في وصف عمرانهم: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً﴾. يعني أن عمرانهم لم يكن محدودًا وإنما كان متصلًا بعضه ببعضه، فالقرى والمدن يظهر بعضها من بعضها لقربها وتلاحمها، فلا يكاد المسافر يبرح مدينة حتى تبدو له أعلام الأخرى، ولا يكون هذا إلَّا إذا كان العمران متصلًا.

وهذا هو معنى الظهور في الآية، فهو ظهور خاص.

وتقدير السير هو أن يكون منظمًا، ومن لوازمه أن تكون الأوقات مضبوطة بالساعات، والطرق محدودة بالعلامات التي تضبط المسافة.

وقوله تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾. يرشدنا إلى امتداد العمران مسافة الليالي والأيام. وأن الأمن كان مادًّا رواقه على هذا العمران.

ولا يتم العمران إلا بالأمن.

ولكن فات القوم أن يحصِّنوا هذه المدنية الزاخرة بسياج الإيمان والشكر والفضيلة والعدل.

وكل مدنية لم تحصّن بهؤلاء فمصيرها إلى الخراب. والناس من قديم مفتونون بعظمة المظاهر يحسبون أنها خالدة بعظمتها باقية بذاتها.

فالقرآن يذكر لنا الكثير من مصائر الأمم حتى لا نغتر بمظاهرها، وحتى نعلم أن سنة اللّه لا تتخلَّف في الآخرين كما لم تتخلَّف في الأولين.

وأما قوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾. فإن المفسرين السطحيين يحملونه على ظاهره، وأي عاقل يطلب بُعد الأسفار؟!

والحقيقة أنهم لم يقولوا هذا بألسنتهم، وإنما هو نتيجة أعمالهم، ومن عمل عملًا يفضي إلى نتيجة لازمة فإن العربية تعبر عن تلك النتيجة بأنها قوله، وهذا نحو من أنحاء العربية الطريفة.

ولا زال الناس- على عاميتهم- يقولون فيمن عمل عملًا يستحق عليه الضرب أو القتل: إنه يقول: أقتلني أو أضربني، وهو لم يقل ذلك، وإنما أعماله هي التي تدعو إلى ذلك.

فالمعنى: أن أعمالهم هي التي طلبت جزاءها اللازم لها المرتبط بها ارتباط اللازم بالملزوم، والدال بالمدلول، فكأن ألسنتهم قالت ذلك.

ويؤيد هذا في القرآن كثير، ومنه قوله تعالى: ﴿سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ﴾ [الأنعام: الآية ١٣٩]. لأن الجزاء أثر للفعل فهو مرتبط به.

ولا يقولن قائل: إن القول يقع مدلوله في القلب حالًا، ولا كذلك العمل، فقد يتأخر جزاؤه طويلًا؛ لأن الجزاء إذا كان محقق الوقوع يصير كأنه حاصل بالفعل. وكل عاقل يقطع بأنه إذا وقع الظلم من الظالم فقد استحق عليه الجزاء، ولا يلاحظ مسافة ما بين الظلم وجزائه.

أما المباعدة بين أسفارهم التي اقتضاها كفرهم بأنعم اللّه، فهي كناية عن محو العمران وخراب القرى التي كانت ظاهرة متقاربة حتى لا يبقى منها إلا القليل فيتباعد ذلك القليل بالطبع بخراب الكثير.

وأين العمران المتلاحم الذي يرتاح فيه المسافر لضبط المسافة وتعدد المشاهد، من الخراب الذي يوحش النفس فيزيد المسافة بُعدًا على بُعدٍ؟

وملكة سبأ، وعرشها العظيم وملكها، وما قصه القرآن من نبئها أعظم وأروع.

فمخبر سليمان عليه السلام يقول عنها: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النَّمل: الآية ٢٣]. وما وصف عرش ملكة سبإ بالعظيم عند سليمان نبي اللّه الذي سخر له الجن والريح؛ إلا وهو في نفسه عظيم.

أيها الإخوان:

إنَّ في قصة ملكة سبإ في القرآن لدرسًا تتفجر منه ينابيع العِظة والعبرة، وإرشادًا إلى ما تقوم به الأمم، ولولا أن هذا الخطاب قد طال لآثرنا منها العِبر وأثرنا بها العَبر، ولكن لا يفوتنا أن نختلس منها إشارات، وما عليكم بعد ذلك إلا أن تتدبروا الآية ففيها نظام الشورى صريحًا لا مواربة فيه، وفيها أن بناء الأمم إنما يعتمد على القوة، وقد تكون مؤنثة فلابد أن يسندها بأس شديد،

وفيها أن الملأ هم الأشراف وأهل الرأي، وهم أعضاء المجالس الشورية، ولعلهم كانوا بالانتخاب العرفي، وهو نظام مدني، ولعلهم كانوا بالانتخاب الطبيعي أو الوراثي، وهو لا يكون إلا في الأمم التي شبت عن طوق البداوة.

ولعلَّ كاتبًا من كُتَّابنا يتناول هذا البحث بحث الانتخاب في الإسلام، ولئن استرشد القرآنَ في هذا الباب ليرشدنَّه.

أيها الإخوان:

هذه مدنيات ضخمة غبرت في هذه الأمة التي أهَّلها اللَّه لحمل الرسالة الإلهية إلى العالَم.

وهذه بعض خصائص هذه الأمة التي هيأها اللَّه للنهوض بالعالم، وإنقاذه من شرور الوثنية وبنياتها، ومن ضلال العبودية بجميع أصنافها، وإن القومية العربية موضوع مترامي الأطراف، وليس من الممكن الإحاطة به في مثل هذا الخطاب. وحسبي أن أكون قد خدمتها من هذه الناحية التي هي خدمة للإسلام والقرآن. وعليكم[1]

---

(١) قال العلماء: يكره أن يقول المبتدئ بالسلام: عليكم السلام، لحديث أبي جري الهُجيمي قال: أتيتُ رسول اللَّه ﷺ فقلت: عيك السلام يا رسول اللَّه، قال: «لا تَقُلْ: عليك السلام. فإن عليك السلام تحية الموتى».

أخرجه أبو داود (٤٠٧٨ و٥١٩٨) والترمذي (٢٧٢٧) وغيرهما، وقال: «حديث حسن صحيح».

وقال الحاكم (٤/ ١٨٦): «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي.

وصححه أيضًا ابن القيم في «زاد المعاد» (٢/ ٤٢٠) وغيره.

قال ابن القيم في «بدائع الفوائد» (٢/ ١٧٢- ١٧٤): «إن قوله ﷺ: «عليك السلام تحية الموتى» ليس تشريعًا منه وإخبارًا عن أمر شرعي، وإنما هو إخبار عن الواقع المعتاد الذي جرى على ألسنة الشعراء والناس، فإنهم كانوا يقدّمون اسم الميت على الدعاء، كما قال قائلهم:

عليك سلام اللَّه قيس بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحما =

السلام[1].

= وقول الذي رثى عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

عليك سلام من أمير وباركت … يد اللَّه في ذاك الأديم الممزق

وهذا أكثر في أشعارهم من أن نذكره ههنا، والإخبار عن الواقع لا يدل على جوازه فضلًا عن كونه سنة، بل نهيه عنه مع إخباره بوقوعه يدل على عدم مشروعيته، وأنَّ السنة في السلام تقديم لفظه على لفظ المُسَلَّم عليه في السلام على الأحياء وعلى الأموات.

فكما لا يقال في السلام على الأحياء: عليكم السلام، فكذلك لا يقال في سلام الأموات كما دلت السنة الصحيحة على الأمرين».

قال: «وهنا نكتة بديعة ينبغي التفطن لها، وهي أن السلام شرع على الأحياء والأموات بتقديم اسمه على المسلَّم عليهم لأنه دعاء بخير، والأحسن في دعاء الخير أن يتقدم الدعاء به على المدعوّ له، كقوله تعالى: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [هُود: الآية ٧٣]، وقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الصَّافات: الآية ١٠٩]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾ [الصَّافات: الآية ٧٩]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾ [الصَّافات: الآية ١٣٠]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرّعد: الآية ٢٤].

وأما الدعاء بالشر فيقدّم فيه المدعو عليه على المدعوّ به غالبًا، كقوله تعالى لإبليس: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ﴾ [ص: الآية ٧٨]، وقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ﴾ [الحِجر: الآية ٣٥]، وقوله: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ [التّوبَة: الآية ٩٨] و[الفتح: ٦]، وقوله: ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ [الشّورى: الآية ١٦].

وسِرُّ ذلك -واللَّه أعلم- أن في الدعاء بالخير قدَّموا اسم الدعاء المحبوب الذي تشتهيه النفوس وتطلبه، ويلذ للسمع لفظه، فيبدأ السمع بذكر الاسم المحبوب المطلوب، ويبدأ القلب بتصوره، فيفتح له القلب والسمع، فيبقى السامع كالمنتظر لمن يحصل هذا، وعلى من يحل، فيأتي باسمه، فيقول: عليك أولك، فيحصل له من السرور والفرح ما يبعث على التحاب والتواد والتراحم الذي هو المقصود بالسلام.

وأما في الدعاء عليه، ففي تقديم المدعو عليه إيذان باختصاصه بذلك الدعاء، وأنه عليه وحده، كأنه قيل له: هذا عليك وحدك لا يشركك فيه السامعون، بخلاف الدعاء بالخير فإن المطلوب عمومه، وكل ما عم به الداعي كان أفضل».

(١) الشهاب (ج٣، م١٥) ربيع الأول ١٣٥٨هـ- أفريل ١٩٣٩م.

الفهارس

* * *



فهرس أطراف الآيات القرآنية الكريمة

(سورة آل عمران)

(سورة النساء)

(سورة المائدة)

(سورة الأنعام)

(سورة الأعراف)

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] (٢/ ٨٨)

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] (٢/ ٣٧٣)

(سورة الأنفال)

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٩] (١/ ١٨٩)

﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤] (١/ ٣٧٤)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥] (١/ ٦١)

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] (٢/ ١٩٣)

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٦٥) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٥، ٦٦] (٢/ ٥٧- هامش)

(سورة التوبة)

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] (٢/ ١١)

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] (١/ ١٨٨، ٢/ ١٣٦)

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ [التوبة: ٦٠] (١/ ٢١٩- هامش)

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: ٩٢] (١/ ٣١٤)

﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ [التوبة: ٩٨] (٢/ ٤١٧- هامش)

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣] (١/ ٢٠٢)

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا

(سورة يونس)

(سورة هود)

(سورة يوسف)

(سورة الرعد)

(سورة الإسراء)

(سورة الكهف)

(سورة الحج)

(سورة المؤمنون)

(سورة النور)

(سورة الفرقان)

(سورة الشعراء)

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣] (٢/ ٢٣٧)

﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣] (٢/ ٤١٣)

﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] (٢/ ٢٤٧)

﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣] (٢/ ٢٤٧)

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤] (٢/ ٢٤١)

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥] (٢/ ٢٤٣)

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩﴾ [النمل: ٢٦] (٢/ ٢٤٦)

﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٦] (٢/ ٢٤٧)

﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٢٩] (١/ ٣١٣)

﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ [النمل: ٤٦] (٢/ ٥١)

﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل: ٦٠] (٢/ ١٩٤)

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢] (١/ ١٨٩)

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ﴾ [النمل: ٩١- ٩٢] (١/ ٧٢، ٢/ ١١)

(سورة القصص)

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [القصص: ١، ٢] (٢/ ٢٦٠)

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥، ٦] (٢/ ٣٩٩)

﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٥، ١٦] (٢/ ١٢١- هامش)

(سورة العنكبوت)

(سورة لقمان)

(سورة السجدة)

(سورة الأحزاب)

(سورة سبأ)

(سورة فاطر)

(سورة يس)

(سورة الصافات)

(سورة ص)

(سورة الزمر)

(سورة غافر)

(سورة فصلت)

(سورة الشورى)

(سورة الزخرف)

(سورة ق)

(سورة الذاريات)

(سورة النجم)

(سورة القمر)

(سورة الحديد)

(سورة الحشر)

(سورة الملك)

(سورة القلم)

(سورة الجن)

(سورة القيامة)

(سورة الإنسان)

(سورة عبس)

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾ [عبس: ١- ٤] (٢/ ١٢١- هامش)

(سورة التكوير)

﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ﴾ [التكوير: ٨، ٩] (١/ ٢٤٠)

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠] (١/ ٣١٣- هامش)

(سورة المطففين)

﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] (١/ ١٤٤- هامش)

(سورة البروج)

﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢] (١/ ٣٩٢)

(سورة الأعلى)

﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ [الأعلى: ٩] (١/ ٥٢)

(سورة الغاشية)

﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ﴾ [الغاشية: ٢١] (١/ ٥١)

﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ۝٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢] (١/ ٥٠)

(سورة الفجر)

﴿وَٱلۡفَجۡرِ﴾ [الفجر: ١] (٢/ ٣٤٩)

﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ [الفجر: ٦] (٢/ ٤٠٦)

﴿لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [الفجر: ٨] (٢/ ٤٠٦)

﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦ كَلَّاۖ﴾ [الفجر: ١٥- ١٧] (٢/ ٢٦)

(سورة الشمس)

(سورة التين)

(سورة العصر)

(سورة النصر)

(سورة الفلق)

(سورة الناس)

* * *

فهرس أطراف الأحاديث النبوية الشريفة

(ك)

(ل)

(م)

(لا)

* * *

فهرس أطراف الآثار السلفية وغيرها

طرف الأثر (الجزء والصفحة)

(أ)

(ت، ح، خ، د، ر، س، ف)

* * *

فهرس الفوائد

١- أن يكون المعنى صحيحًا في نفسه.
٢- أن يكون مأخوذًا من التركيب القرآني أخذًا عربيًّا صحيحًا.
٣- أن يكون له ما يشهد له من أدلة الشرع (٢/ ٢٢٧)

- من الأصول المقررة عند العلماء: أن لا مؤاخذة للمخالف للأمر عن غير انتهاك للحرمة (٢/ ٢٣٣)

- من فروع الأصل المتقدم: سقوط الكفارة -بل والقضاء أيضًا- عمن أفطر في رمضان متعمدًا متأولًا تأويلًا قريبًا (٢/ ٢٣٤)

- الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- لا يعلمون من الغيب شيئًا إلَّا ما أطلعهم اللَّه عليه وأعلمهم به (٢/ ٢٣٥)

- الفلاح المنفي في الحديث الصحيح: «لن يفلح قومٌ ولوا أمرهم امرأة» هو الفلاح في لسان الشرع، وهو تحصيل خير الدنيا والآخرة (٢/ ٢٤٠)

- تحريم السجود للمخلوق (٢/ ٢٤٤)

- الظواهر دلائل البواطن (٢/ ٢٤٩)

- اللَّه ﷻ لم يجاز الخلق على مقتضى علمه فيهم -وهو العلم الذي لا يتخلف- وإنما جعل جزاءهم على أعمالهم (٢/ ٢٨٩)

- التحلية بعد التخلية، والتزيّن بعد إزالة الأدران (٢/ ٢٩٦)

-ترتيب سور القرآن توقيفي (٢/ ٣٤٠)

- الأمر للنبي ﷺ أمرٌ لنا، لأننا المقصودون بالتكليف (٢/ ٣٤٩)

- من لطائف اللغة العربية أن الفتح والفلح والفجر والفلق والفرق والفري والفأ والفقأ والفقه، كلها ذات دلالات واحدة (٢/ ٣٥٠)

- من دقائق القرآن ولطائفه في البلاغة أنه يقدّم أحد الاسمين المتلازمين في آية لِسِرٍّ من أسرار البلاغة يقتضيها ذلك المقام، ثم يؤخر ذلك المقدّم في آية أخرى لِسِرٍّ آخَر (٢/ ٣٤٩)

* * *

فهرس الألفاظ المشروحة

(ج)

(ح)

(ش)

(ص)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

* * *

فهرس الأعلام

(ب)

(ت)

(ج)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

* * *

فهرس المذكورين بجرح أو تعديل

(أ)

(ب، ت، ج، ح، د، ر، ز، س، ش، ص، ض)

(ع، غ)

(ف، ق، ل)

(م)

(هـ، ي)

* * *

فهرس الشِّعر

صدر البيت	قافيته	(الجزء/ الصفحة)
- وكلّ ذي غيبة يؤوب	لا يؤوب	(١/ ٢١٢)
- من يسأل الناس يحرموه	لا يخيب	(١/ ٢١٢)
- ساعد بأرض إن كنت فيها	غريب	(١/ ٢١٢)
- فأمّا عيون العاشقين فأسخنت	فقرّت	(٢/ ١٦٨)
-	هجود	(١/ ٣٣٢)
- يعجبه السخون والبرود	مزيد	(١/ ٢٧٥)
- وطال حذاري خيفة البين والنوى	متقوف	(١/ ٢٦٢)
- عليك سلام من أمير وباركت	الممزق	(٢/ ٤١٦)
- ألا كل شيء ما خلا اللّه باطل	زائل	(١/ ١٣٩)
- أعلى الممالك ما يبنى على الأسل	كالقُبل	(٢/ ٢٠١)
- نهاية إقدام العقول عِقال	ضلال	(٢/ ٥٥)
- وأرواحنا في وحشة من جسومنا	ووبال	(٢/ ٥٥)
- ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا	وقالوا	(٢/ ٥٦)
- ألا ليت شِعري هل أبيتن ليلة	جليل	(٢/ ٣٦٢)
- وهل أردن يومًا مياه مجنة	طفيل	(٢/ ٣٦٢)
- كفاك بالعلم في الأمي معجزة	اليتم	(١/ ١٥٦)
- إلّا رمادًا هامدًا دفعت	سُحم	(١/ ٤٢٨)
- سألنا فأعطيتم وعدنا فعدتم	سيحرم	(١/ ٢١٥)

* * *

فهرس الأمثال

* * *

فهرس الأماكن والبلدان

* * *

فهرس مصادر ومراجع التحقيق والتعليق

- أولًا: الكُتب:

* آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (١- ٥) - دار الغرب الإسلامي- بيروت.

* إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة: للبوصيري -دار الوطن- الرياض.

* الإتقان في علوم القرآن: للسيوطي -دار المعرفة- بيروت.

* أحكام القرآن: لأبي بكر بن العربي -دار المعرفة- بيروت.

* أحكام القرآن: للجصّاص -دار الكتاب العربي- بيروت.

* إحياء علوم الدين: للغزّالي -دار المعرفة- بيروت.

* الأدب المفرد: للبخاري -مكتبة المعارف- الرياض.

* الأذكار: للنووي -دار ابن حزم- بيروت.

* إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري: للقسطلاني -دار الكتاب العربي- بيروت.

* إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: للألباني -المكتب الإسلامي- بيروت.

* الإصابة في تمييز الصحابة: لابن حجر العسقلاني -دار الكتب العلمية- بيروت.

* أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: لمحمد الأمين الشنقيطي -عالم

الكتب- بيروت.

* أضواء على الصحافة التونسية: لعمر بن قفصية -دار بوسلامة- تونس.

* الاعتصام: للشاطبي -دار المعرفة- بيروت.

* الأعلام: للزركلي -دار العلم للملايين- بيروت.

* أعلام من الزيتونة: لمحمود شمّام- تونس.

* إعلام الموقِّعين عن ربّ العالمين: لابن القيم -دار الجيل- بيروت.

* اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم: لابن تيمية -دار العاصمة- الرياض.

* الأمر بالاتباع: للسيوطي -دار الكتب العلمية- بيروت.

* أهل الفترة ومَن في حكمهم: لموفق أحمد شكري- مؤسسة علوم القرآن- عجمان، ودار ابن كثير- دمشق.

* بدائع الفوائد: لابن القيم -دار الكتاب العربي- بيروت.

* البداية والنهاية: لابن كثير - مكتبة المعارف- بيروت.

* البدع والنهي عنها: لابن وضاح -دار ابن حزم- بيروت.

* تاريخ المدينة: لابن شبة -دار الكتب العلمية- بيروت.

* التبيان في آداب حملة القرآن: للنووي -دار ابن حزم- بيروت.

* تخريج أحاديث «رسالة الشرك»: لأبي عبد الرحمن محمود -دار الراية- الرياض.

* تخريج الإحياء = المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإيحاء من الأخبار، للعراقي = إحياء علوم الدين.

* التذكار في أفضل الأذكار: للقرطبي -دار الكتب العلمية- بيروت.

* تذكرة الحفاظ : للذهبي -دار الكتب العلمية- بيروت .

* تراجم الأعلام : لمحمد الفاضل بن عاشور -الدار التونسية- تونس .

* الترغيب والترهيب : للمنذري -دار الفكر- بيروت .

* تغليق التعليق : لابن حجر العسقلاني -المكتب الإسلامي- بيروت .

* تفسير الطبري -دار الفكر- بيروت .

* تفسير القرآن العظيم : لابن كثير -دار الأندلس- بيروت .

* التفسير الكبير : للفخر الرازي -مكتبة عبد الرحمن محمد- مصر .

* تفسير المنار : لمحمد رشيد رضا- دار الكتب العلمية- بيروت .

* تقريب التهذب : لابن حجر -دار ابن حزم- بيروت .

* التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير: لابن حجر العسقلاني- دون ذكر الناشر .

* التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: لابن عبد البر -وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- المملكة العربية السعودية .

* تهذيب الآثار : للطبري -دار المأمون للتراث- دمشق وبيروت .

* تهذيب التهذيب : لابن حجر -دار الكتب العلمية- بيروت .

* تيسير العزيز الحميد : لسليمان بن عبد اللّه بن محمد بن عبد الوهاب .

* جامع بيان العلم وفضله: لابن عبد البر -دار ابن الجوزي بالدمام- السعودية .

* جامع التحصيل في أحكام المراسيل : للعلائي -عالم الكتب- بيروت .

* جامع العلوم والحِكم : لابن رجب -مؤسسة الرسالة- بيروت .

* الجامع لأحكام القرآن : للقرطبي -دار إحياء التراث العربي- بيروت .

* الجدّ الحثيث في بيان ما ليس بحديث: للعامري.

* جلباب المرأة المسلمة في الكتاب والسنة: للألباني -المكتبة الإسلامية- عمان.

* حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: لأبي نُعيم -دار الكتب العلمية- بيروت.

* دلائل النبوة: لأبي نُعيم -دار النفائس- بيروت.

* دلائل النبوة: للبيهقي -دار الكتب العلمية- بيروت.

* الرسل والرسالات: لعمر الأشقر -دار النفائس- الأردن.

* رياض الصالحين: للنووي -المكتب الإسلامي- بيروت.

* زاد المسير في علم التفسير: لابن الجوزي -المكتب الإسلامي- بيروت.

* زاد المعاد في هدي خير العباد: لابن القيم -مؤسسة الرسالة- بيروت.

* الزهد: لأحمد -دار الجيل- بيروت.

* سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها: للألباني -مكتبة المعارف- الرياض.

* سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة: للألباني -مكتبة المعارف- الرياض.

* السنة: لابن أبي عاصم - المكتب الإسلامي- بيروت.

* السنن لابن ماجه -دار إحياء التراث العربي- بيروت.

* السنن لأبي داود = عون المعبود.

* السنن: للترمذي -دار إحياء التراث العربي- بيروت.

* السنن للدارمي -دار الكتب العلمية- بيروت.

* السنن للنسائي -دار الكتاب العربي- بيروت.

* السنن الكبرى: للبيهقي -دار الكتب العلمية- بيروت.

* السنن الكبرى: للنسائي -دار الكتب العلمية- بيروت.

* سير أعلام النبلاء: للذهبي -مؤسسة الرسالة- بيروت.

* شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك -المكتبة العصرية- بيروت.

* شرح الأُبّي على صحيح مسلم -دار الكتب العلمية- بيروت.

* شرح الزرقاني على موطأ مالك بن أنس: دار الفكر- بيروت.

* شرح صحيح مسلم: للنووي -دار إحياء التراث العربي- بيروت.

* شرح العقيدة الطحاوية: لابن أبي العز -المكتب الإسلامي- بيروت.

* شرح العقيدة الواسطية: لابن عثيمين- دار ابن الجوزي- الدمام (السعودية).

* الشرح الكبير: للدردير.

* شُعب الإيمان: للبيهقي -دار الكتب العلمية- بيروت.

* شمائل الرسول ﷺ: للترمذي = مختصر الشمائل.

* الشيخ المولود الحافظي، حياته وآثاره: لمحمد الصالح آيت علجت- منشورات دار الكتب- الجزائر.

* الصحاح: للجوهري -دار العلم للملايين- بيروت.

* صحيح ابن خزيمة -المكتب الإسلامي- بيروت.

* صحيح البخاري = فتح الباري.

* صحيح الترغيب والترهيب: للألباني -مكتبة المعارف- الرياض.

* صحيح الجامع الصغير: للألباني -المكتب الإسلامي- بيروت.

* صحيح سنن أبي داود: للألباني -غراس- الكويت.

صحيح مسلم -دار إحياء التراث العربي- بيروت.

* صحيح موارد الظمآن: للألباني -دار الصميعي- الرياض.

* صراع بين السنة والبدعة: لأحمد حماني -دار البعث قسنطينة- الجزائر.

* الصلاة وحكم تاركها: لابن القيم -المكتب الإسلامي- بيروت.

* الصواعق المرسلة =مختصر الصواعق.

* ضعيف موارد الظمآن: للألباني -دار الصميعي- الرياض.

* الطبقات الكبرى: لابن سعد -دار بيروت- بيروت.

* طريق الهجرتين: لابن القيم -دار ابن القيم بالدمام- السعودية.

* عون المعبود شرح سنن أبي داود: للعظيم آبادي -دار الكتب العلمية- بيروت.

* فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء: دار العاصمة -الرياض.

* فتح الباري شرح صحيح البخاري: لابن حجر العسقلاني -دار السلام- الرياض.

* فتح البر في الترتيب الفقهي لتمهيد ابن عبد البر، للمغراوي -مجموعة التحف النفائس الدولية- الرياض.

* فضائل القرآن: لابن كثير = تفسير القرآن العظيم.

* فضائل القرآن: لأبي عُبيد القاسم بن سلام -دار الكتب العلمية- بيروت.

* فيض القدير شرح الجامع الصغير: للمناوي -دار المعرفة- بيروت.

* القاموس المحيط: للفيروز آبادي -دار الكتب العلمية- بيروت.

* القبس في شرح موطأ مالك بن أنس: لأبي بكر بن العربي -دار الغرب

الإسلامي- بيروت.

* الكامل: للمبرد.

* الكامل في الضعفاء: لابن عدي -دار الكتب العلمية- بيروت.

* كتاب الضعفاء والمتروكين: للذهبي- مكتبة النهضة الحديثة- مكة.

* كتاب الفقيه والمتفقه: للخطيب البغدادي -دار ابن الجوزي- السعودية.

* كتب حذّر منها العلماء: لمشهور حسن -دار الصميعي- الرياض.

الكشاف: للزمخشري- دار المعرفة- بيروت.

* كشف الأستار عن زوائد البزار: للهيثمي -مؤسسة الرسالة- بيروت.

* لسان العرب: لابن منظور -دار صادر- بيروت.

* المجالسة وجواهر العلم: لأبي بكر الدينوري -دار ابن حزم- بيروت.

* مجمع الزوائد: للفحهيس ٣

هيثمي -دار الكتاب العربي- بيروت.

* المجموع شرح المهذب: للنووي -دار إحياء التراث العربي- بيروت.

* مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية -وزارة الشؤون الإسلامية

والأوقاف بالمملكة العربية السعودية.

* مختصر الشمائل المحمدية: للألباني -المكتبة الإسلامية- عمان.

* مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة: لابن الموصلي -مكتبة

الباز- مكة.

* مدارج السالكين: لابن القيم -دار الكتاب العربي- بيروت.

* مراتب الإجماع: لابن حزم -دار ابن حزم- بيروت.

* المستدرك على الصحيحين: للحاكم -دار الكتاب العربي- بيروت.

* مسند أبي يعلى -دار الثقافة العربية- دمشق.

* مسند أحمد - المكتب الإسلامي- بيروت.

* مشاهير التونسيين: لمحمد بوذينة - تونس.

* المصنف: لعبد الرزاق -المكتب الإسلامي- بيروت.

* المصنف في الأحاديث والآثار: لابن أبي شيبة -دار الكتب العلمية- بيروت.

* المعجم الأوسط: للطبراني -مكتبة المعارف- الرياض.

* المعجم الصغير: للطبراني -دار الكتب العلمية- بيروت.

* المعجم الكبير: للطبراني- مكتبة ابن تيمية- القاهرة.

* مفتاح دار السعادة: لابن القيم -دار ابن عفان- السعودية.

* المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة: للسخاوي -دار الكتاب العربي- بيروت.

* من أعلام الإصلاح في الجزائر: لمحمد الحسن فضلاء- الجزائر.

* المنتقى شرح الموطأ: للباجي.

* الموطأ: للإمام مالك = شرح الزرقاني على الموطأ.

* ميزان الاعتدال في نقد الرجال: للذهبي -دار المعرفة- بيروت.

* نسيم الرياض شرح الشفا لعياض: للخفاجي -دار الكتاب العربي- بيروت.

* نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية: للزيلعي -دار الحديث- القاهرة.

* النهاية في غريب الحديث والأثر: لابن الأثير -المكتبة الإسلامية-

القاهرة.

- ثانيًا: المجلّات:

* مجلة «الشهاب» (١- ١٦) - دار الغرب الإسلامي - بيروت.

* * *

فهرس الموضوعات

من سورة الفرقان

من سورة النمل

من سورة الذاريات

الفهارس

* * *